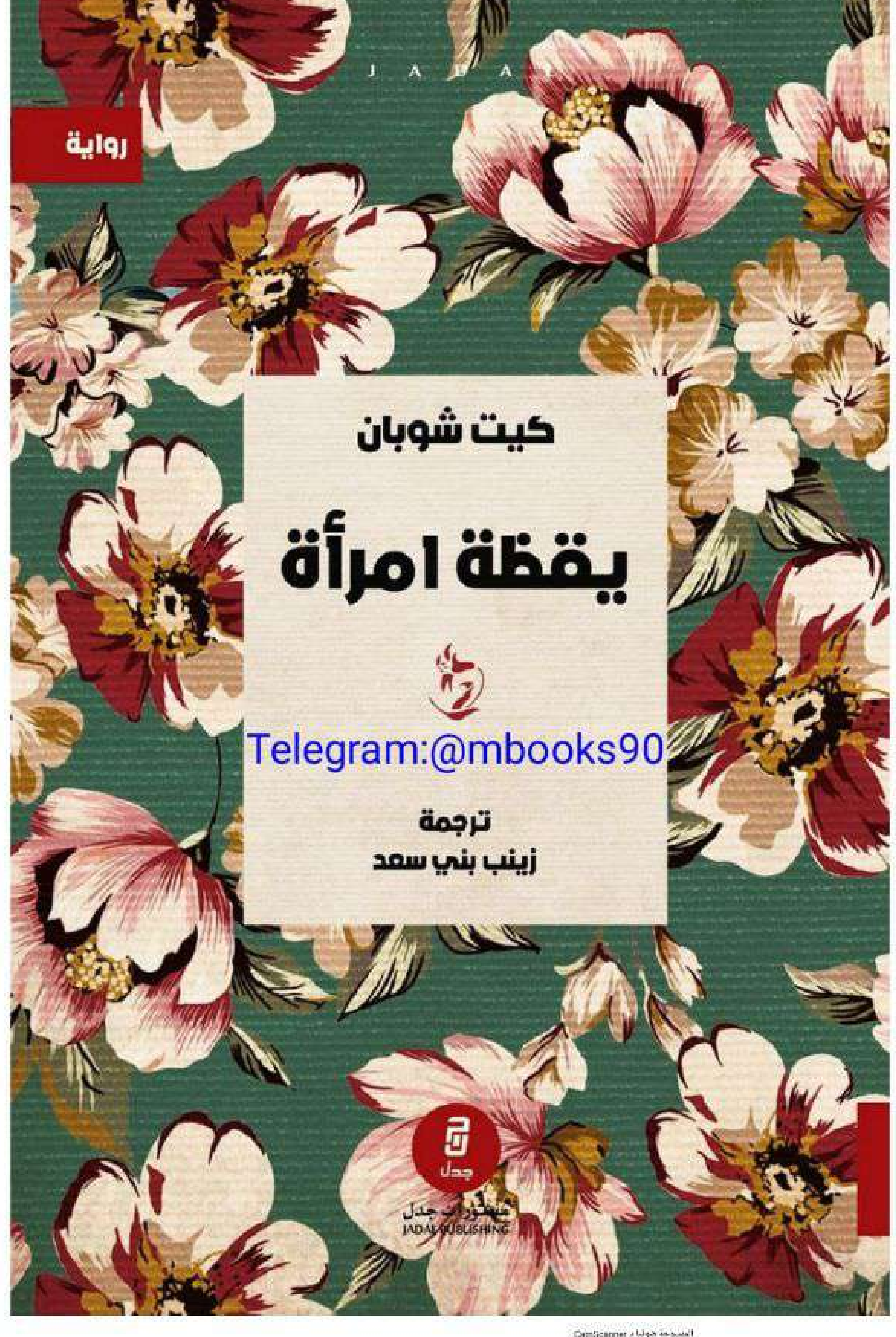


الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المقدمة

كلاسيكية جنوب أمريكية بامتياز، لواحدة من أكثر الكُتّاب والكاتبات قراءةً وتميُّزًا من تراث لويزيانا الكريولي حتى بعد مرور أكثر من مائة وعشرين عامًا على نشرها، وبالرغم من ردود الفعل المختلفة التي لاقتها من النقاد والقُرّاء على حد سواء. فهذهِ رواية بوسعها أن تتحدث إلى أي إنسان، في أي زمانٍ ومكان، وخاصة النساء المكبّلات بأدوار جندرية مفروضة عليهنّ اجتماعيًا. فهي بمثابة دعوة لتحرير النساء من قيود المجتمع وحقها في تقرير حياتها بعيدًا عن سلطة الرجل.

تُعد كيت شوبان (1850-1904) رائدة الكاتبات النسويات للقرن التاسع عشر والعشرين. ولها في مجال القصص القصيرة أعمال لافتة للنظر. نُشرِتْ «يقظة امرأة» لأول مرة عام 1899م. وغدَتْ من أولى الروايات المرجعية للكثير من الحركات النسوية، مما أدى لخضوعها للرقابة وليس للحظر بالمعنى الدقيق للكلمة.

يظهر أسلوب شوبان الأدبي تأثرهُ بالفرنسي جي دي موباسان بشكلٍ واضح: **التركيز الإدراكي على السلوك البشري وتعقيدات الهياكل الاجتماعية** وهو ما يُدعى بمذهب السرد الواقعي. مما جعلها من أوائل أدباء التراث الجنوب أمريكي التي بلغت القمة بأسلوبها إلى جانب الروائع المعاصرة لكل من فولكنر، فلاناري أونر، كاثرين آن بورتر، وتينيزي وليامز.

يشير عنوان الرواية «اليقظة» إلى بداية إدراك البطلة -الزوجة والأم- لمكانتها في الكون كإنسان، والاعتراف بعلاقاتها كفرد مع العالم في أعماقها ومع المحيطين بها. ولسوء الحظ، لم يستطع زوجها أن يفهم «أن زوجتهُ

بدأت تكتشف ذاتها، وأنّها بدأت تضع جانبًا، تلك الذات الوهمية، التي نفترض أنها ثوب تظهر به أمام العالم» بعد أن «أغرتها الذات» لِتقضي «ثيازات الحياة الأعمق» في ظلّ مجتمع أمريكي مشابه للمجتمع الفيكتوري في إنجلترا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وما لعب دورًا مركزيًا في يقظتها هي ميولها الفنية التي بدأت تتنامى وتكتشف حاجتها إليهِ من خلال الرسم والموسيقا، ومن خلال ذاتها هي. مع أن صحيفة مورننغ تايمز واشنطن خَلُصتْ في مراجعة عن الرواية إلى أن:

«ما تسبب في يقظة إدنا هو رجُل، وهذا الرجل هو روبرت ليبرون»

لكن لو أمعنا النظر سندرك أنّ يقظة إدنا تشكلّتْ على يدها هي بنفسها. كانتْ هي الوسيلة إلى هذا الإدراك، جسدها، فنّها، معارفها، والوقت الذي تقضيهِ في الطبيعة، هربًا من السلطة الذكورية الخانقة، كما أشار دونالد بيتزر -باحث وناقد أدبي أمريكي- إلى أن كيت شوبان التي قرأتْ لمؤلفين أمثال تشارلز داروين، لا بُدّ أن تتناول صراعات شخصياتها في سياق الفلسفة الطبيعية في القرن التاسع عشر. ويزعم بأن الرواية وصراعات إدنا لا يمكن فصلهما عن مساهمتهما في الاعتقاد الطبيعياني بأن إرادة الإنسان غالبًا ما تكون مرتبطةً بعدم قابلية حياة الرجال والنساء للانفصال عن الشؤون الدنيوية، الطبيعية والاجتماعية التي يعيشونها

حملت هذهِ الرواية عنوان «روح مُنعزلة» في بادئ الأمر، ويتمثل ذلك واضحًا في وصول إرادة إدنا لذروتها عندما رفضت -كما سيلاحظ القُرّاء في الفصل الحادي عشر- التزحزح من أرجوحتها الشبكية الصغيرة المُعلقة في مدخل المنزل عندما طلبَ زوجها الدخول إلى المنزل. وهذا الجانب يكشف عن حاجتها في البقاء لوحدها في ذلك الوقت المتأخر من الليل، كما ستصوغ

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

فيرجينيا وولف ذلك بعد ما يقرُب من ثلاثين عامًا، في رائعتها «غرفة تخص المرء وحده».

ظلت هذه الرواية في طي النسيان منذ أن نُشرت، حتى أعاد بير أينرت سيرستد، أستاذ الأدب الأمريكي في المعهد الأمريكي بجامعة واسلو، اكتشاف كيت شوبان وأعمالها، من خلال دراساتهِ وكُتبهِ التي أصبحت مرجعًا مهما لظهور الأدب النسوي في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين.

زينب بني سعد



١

في قفصٍ مُعلّق على باب النُزُل، ثمّة ببغاء أخضر ذو رأسٍ أصفر، كان يقول مرارًا وتكرارًا: «اخرُج من هنا! اخرُج من هنا حُبًا بالله!»

كان يتكلم الإسبانية قليلًا، وأيضًا، لغةً لا يفهمها أحد، باستثناء الطائر المُحاكي المُعلّق على الجانب الآخر من الباب، وتغاريده المنغّمة تنبعث مع النسيم بإلحاحٍ مثير للسخط. فعجز السيد بونتيلييه عن قراءة جريدته بأيّ قدرٍ من الارتياح. وظهرت عليهِ تعابير الضجر وتأوهات تنمّ عن الشعور بالقرف.

فسلك القاعة الكبيرة وقطع المسالك الضيقة التي تَصِل المنازل الريفية لمنتجع آل ليبرون الواحدة بالأخرى. واتخذ لهُ مجلسًا قُبالة باب المبنى الرئيسي. كان الببغاء والطائر المُحاكي مُلكًا للسيدة ليبرون، لذلك، يحق لهما إصدار أي ضجيج يريدانه. وكان من دواعي سرور السيد بونتيلييه التخلي عن رفقتهما بعد أن أصبحا حيوانين مزعجين.

توقف أمام باب منزله الخاص، الذي كان الرابع من المبنى الرئيسي ومجاورًا له. جلس في كرسيٍ هزّاز مصنوع من الخوص كان موضوعًا هناك وانكب مرة أخرى على مهمة قراءة الصحيفة. اليوم أحد، وكان قد مضى على صدور الصحيفة يومًا واحدًا، فصحف يوم الأحد لم تصل بعد إلى جزيرة غراند. وقد كان مطّلعاً بالفعل على تقارير السوق. فألقى نظرة سريعة على الافتتاحيات ومقتطفاتٍ من الأخبار التي لم يكن لديه الوقت الكافي لقراءتها قبل أن يترك نيو أورليانز في اليوم السابق.

السيد بونتيلييه رجل يرتدي نظارات. في الأربعين من عمره، متوسط

الطول، هزيل البنية إلى حدٍ ما حتى إنه محدودبٌ قليلاً. شعره ناعمٌ بلون البُنّ، مفروق من جانب واحد. وكانت لحيته مشذّبة بعنايةٍ فائقة.

كان بين الحين والآخر، يتجاهل الصحيفة ويجول بنظرهِ في الأرجاء، فثمّة جلبةٌ أكثر من أي وقت مضى في المنزل. حيث كانوا يطلقون على المبنى الرئيسي اسم «النُزل» لتمييزه عن المنازل في المنتجع. فالطيور الثرثارة المغردة ما تزال تثرثر وتغرد. وثمة فتاتان صغيرتان-التوأمان فريڤال- تعزفان أوبرا زامبا عزفًا ثنائيًا على البيانو(1) . بينما أخذت السيدة ليبرون تُلقي الأوامر على العامل الصبي بنبرة حادةٍ كلما دخلت النُزل وهي تتحرك بهمةٍ ونشاط جيئةً وذهابًا، وتُلقي الأوامر نفسها على خادمة غرفة الطعام بالنبرة الحادة ذاتها كلما خرجت. كانت سيدة جميلةً مفعمةً بالحيوية. ترتدي اللون الأبيض دائمًا، وتضعُ أكماما تصل الكوع، تنورتها ذات القماش المُنشّى تتجعد كلما دخلت وخرجت.

على مسافة أبعد قُبالة أحد المنازل، ثمة سيدة تتشح بالسواد تسير على نحوٍ رزين ذهابًا وإيابًا، وهي تُسبّح بمِسبَحتِها. ثمة عدد كبير من النزلاء قصدوا جزيرة شينير كامينادا على متن لُغر بودليت(0) لسماع القداس. تحت ظلال أشجار بلوط الماء مجموعة من الشبان يلعبون الكروكيت. وكان طفلا السيد بونتيلييه هناك كذلك، صغيران مفعمان بالنشاط بعمر الرابعة والخامسة، ترافقهما مربية خلاسية بخطوات متباعدة يتخللها لحظات تأمليّة.

أخيرًا، أشعل السيد بونتيلييه سيجاراً، وبدأ بالتدخين تاركاً الصحيفة تفلت من يده بذهنٍ شارد، وأخذ يحدّق بنظرةٍ ثابتة إلى مظلة شمسية بيضاء تتقدم بخطى حلزون من جهة الشاطئ. كان بإمكانه أن يراها بوضوح من بين جذوع أشجار بلوط الماء الهزيلة وعبر امتداد أزهار الأقحوان الصفراء.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بدا الخليج بعيدًا، كأنه يذوب في زُرقة الأفق على نحوٍ غامض. والمظلة الشمسية ما زالت تقترب على مهل.

تحت الظُلّة المخططة بلون زهري تجلس زوجتهُ، السيدة إدنا بونتيلييه، والشاب روبرت ليبرون. حين وصلا إلى المنزل، جلسا على الدّرجة العلوية للمدخل وكلٌ منهما مواجة للآخر يتكئان على عمودِ الدرابزون، وشيءٌ من الإرهاق بادٍ عليهما.

«يا لها من حماقة! السباحة في مثل هذهِ الساعة وفي مثل هذا الجو القائظ!» هتف السيد بونتيلييه. الذي غاص بنفسهِ في مياه البحر في وضح النهار لذلك بدا النهار طويلًا بالنسبة لهُ. «لقد سفعتكِ الشمس لدرجة يصعب معها التعرف عليكِ»، قال السيد بونتيلييه وهو ينظر إلى زوجته كما ينظر المرء لقطعةٍ ثمينة من ممتلكاته الشخصية التي أصابها بعض الضرر. فرفعت يديها، يدان نضرتان جميلتان، وراحت تعاينهما معاينةً دقيقة، عندها سحبت أكمامها ذات اللون البُني الفاتح فوق المعصمين. عندما نظرت ليدها، تذكّرت الخواتم التي أعطتها لزوجها قبل أن تغادر إلى الشاطئ. فتوجهت إليه بهدوء. فهم زوجها، وأخرج الخواتم من جيب سترته وألقاهم في راحة يدها المفتوحة. وضعت السيدة بونتيلييه الخواتم في أصابعها وشبكت ركبتها، نظرت نحو روبرت وأخذت تضحك. تلألأت الخواتم على أصابعها، فأجاب روبرت ابتسامتها بابتسامة.

«ما الأمر؟!» سأل بونتيلييه، وهو ينقّل نظراته بينهما بتهادٍ وتعجب.

كان السخف بعينه، مغامرةً هناك تحت المياه. حيث حاول كلاهما روايتها في آنٍ واحد. لن يبدُ ذلك لطيفًا إن قالاه. وقد أدركا هذا، وكذلك السيد بونتيلييه الذي بدأ يتثاءب ويمطّ بجسده. فنهض وقال إنه يفكر بالتوجه إلى

نُزُل كلاين كي يلعب البلياردو.

«تعال معي يا ليبرون،» اقترح على روبروت ليبرون. إلا أنّ روبرت اعترف بصراحةٍ تامة أنه يُفضّل البقاء حيث هو، والحديث مع السيدة بونتيلييه.

«حسنًا، تخلصي منهُ ما إن يصيبكِ بالملل يا إدنا.» أوعز إليها زوجها بينما كان يستعد للمغادرة.

«خُذ المظلة.» نادتْ عليهِ وحملتْها إليهِ فأخذها، رفعها على رأسهِ نازلًا الدرجات، وانصرف.

«هل ستعود لتناول العشاء؟» نادتهُ زوجته. توقف للحظة وهز كتفيه. تلّمس جيب سترته، ثمّة ورقة نقدية من فئة عشرة دولارات. لذلك فهو يجهل الأمر، لربما سيعود للعشاء باكراً، وربما لن يعود. كل هذا يعتمد على الرفقة التي يجدها في نُزُل كلاين وعلى «حجم اللعبة». لم يقل ذلك، لكنها فهمته وابتسمت. ثم أومأت إيماءة وداع.

أراد الطفلان مرافقة والديهما عندما رأوه، فقام بتقبيلهما ووعدهما بأن يجلب لهما الفول السوداني وحلوى الشوكولاتة.

---

(1)زامبا: هي أوبرا كوميكا مكونة من ثلاثة أعمال للملحن الفرنسي فرديناند هيرولد، مع ليبريتو لملسفيل. إحدى شخصياتها تغرق في البحر.

(0)اللُغر: مركب ذو شراع رباعي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للسيدة بونتيليه عينان لامعتان ذواتا نظرةٍ ثاقبة ولونٍ قمحي كلونِ شعرها تقريبًا. كان لديها أسلوبها في تصويب نظرتها سريعًا على شيءٍ ما، وإبقائها هناك كما لو أنها ضائعة في ما يُشبه متاهةً روحيةً من التفكير أو التأمُّل.

كان حاجباها أغمق بدرجةٍ واحدة من شعرها، وكانا سميكين شبه مستقيمين مما يؤكد عمق عينيها. امرأة فاتنة، لوجهها ملامح آسرة، يتسم بصدقٍ ثابت في التعابير ومرحٍ خفيٍ مناقضٍ للملامح. كانت تملك أسلوبًا يشد الانتباه.

لفَّ روبرت لفافة تبغ صغيرة. وقال إنه يدخن لفافة تبغ لإنه لا يستطيع شراء السجائر. كان لديه سيجارا في جيبه أعطاه إياه السيد بونتيليه، فضَّل ادخارها لتدخين ما بعد العشاء. وكان هذا أمرًا طبيعيًا ومناسبًا له.

أما بالنسبةِ للون بشرتِه، فلا يختلف عن لون بشرة رفيقتهِ. وجهُ محلوقُ جيدًا، جعل التشابه أكثر جلاءً مما كان ليحدث لو لم يحلقه. لم يكن هناك أثرِ للهمّ على محيّاه. ضاقت عيناه، وعكست تعب ذلك النهار الصيفي ونوره. مدّت السيدة بونتيلييه يدها إلى مروحةٍ يدوية مصنوعة من سعف النخيل ملقاة عند المدخل وبدأت تهوّي لنفسها، في حين أخذ روبرت ينفخ دخان سيجارته نفخًا خفيفًا من بين شفتيه. وطفقا يتحدثان بغير انقطاع عن الأشياء من حولهما. مغامراتهما المسلية في المياه اتخذت من جديد ملامح مبهجة. عن الرياح والأشجار، والأناس الذين ذهبوا إلى شينير، عن الأطفال الذين يلعبون الكروكيت تحت أشجار البلوط، والتوأمان فريقال اللتان كانتا تعزفان أوبرا الشاعر والفلاح (2). وقد تحدث روبرت كثيراً عن نفسه. كان

شابًا غرًا، ولم يكن يعرف أكثر من الحديث عن نفسهِ. بينما تحدثت السيدة بونتيلييه قليلا عن نفسها للسببِ عينه. كان كلٌّ منهما مهتمًا بما يقولهُ الآخر. تحدث روبرت عن نيّته للذهاب إلى المكسيك في الخريف، حيث ينتظره الحظ. لطالما اعتزم الذهاب إلى المكسيك لكن بطريقةٍ ما، لم يصل إلى هناك أبدًا.

وفي الوقت نفسه، حافظ على وظيفته البسيطة في مؤسسةٍ تجارية في نيو أورليانز، حيث الألفة مع الإنكليز والفرنسيين والإسبان على قدم المساواة، منحهُ قيمةً لا يُستهان بها ككاتب ومراسل.

كان يقضي عطلته الصيفية مع والدتهِ في جزيرة غراند على غرار ما يفعل دائمًا. ففي السابق قبل أن يتذكر روبرت شيئاً، كان «المنتجع» بمثابة رفاهية صيفية في عائلة ليبرون. أما اليوم، فها هو محاطٌ بعشرات المنازل الريفية أو أكثر. منازل تعجُ بالزوار والنزلاء خاصةً من الحي الفرنسي، مما أتاح للسيدة ليبرون الإبقاء على حياة مالية مريحة وهذا من حقها الطبيعي. أما السيدة بونتيلييه فقد تحدثت عن مزرعة والدها في ميسيسيبي، وعن البيت الذي قضت فيهِ صباها في بلدةٍ بلوغراس القديمة في ولاية كنتاكي. فهي امرأة أمريكية، بخليط من عرقٍ فرنسي بعيد. وراحت تقرأ رسالة من أختها البعيدة في الشرق، والتي كانت مخطوبةً وعلى وشك الزواج، الأمر الذي أثار انتباه روبرت، ودفعتهُ الرغبة لمعرفة طبيعة الفتيات والأخوات، وكيف كان الأب، وكم من الوقت مضى على موت الأم.

عندما طوت السيّدة بونتيلييه الرسالة، كان قد حان الوقت لأن ترتدي ثيابها من أجل العشاء الباكر.

«أظن أن ليونس لن يعود» قالت السيدة بونتيلييه وهي تنظر إلى الاتجاه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي اختفى فيه زوجها. وافقها روبرت الرأي، حيث هناك العديد من رجال نادي نيو أورلينز في تُزُل كلاين. عندما تركته السيدة بونتيلييه لتدخل غرفتها، نزل الشاب من الدَرجات وسار الهوينا صوب لاعبي الكروكيت، حيث، روّح عن نفسهِ مع طفلا بونتيلييه الصغيرين، اللذين كانا مولعين بِهِ أيّما ولع، خلال نصف ساعةِ ما قبل العشاء.

---

(2) الشاعر والفلاح: أوبرا للملحن النمساوي فرانز فون سوبييه (1819-1895)

كانت الساعة تشير للحادية عشر في تلك الليلة عندما عاد السيد بونتيلييه من نُزُل كلاين، وكان بمزاج جيد، معنويات عالية، وثرثار للغاية. وقد أيقظ بدخولهِ زوجته التي كانت في السرير مستغرقة في نومها. تحدث إليها وهو يخلع ملابسه، أخبرها بالحكايات والأخبار والقيل والقال الذي سمعهم خلال النهار. ثم أخرج من جيوب بنطالهِ، قبضةً من الأوراق النقدية المطوية وقدر كبير من العملات الفضية وكدسها على المكتب دون تمييز مع المفاتيح والسكين والمناديل وكُل ما يوجد في جيبه. كان النعاس يغلب على زوجتهِ، فأجابته إجابات مقتضبة بعض الشيء.

فظن، أنه من المحبط جدا رؤية زوجته، التي كانت المحور الوحيد لوجودهِ، تُبدي اهتماما فاترًا بالأشياء التي تهمه، ولا تقدِّر أحاديثهِ كما يجب.

في المقابل، نسي السيد بونتيلييه حلوى الشوكولاتة والفول السوداني اللذين وعد صغيريهِ بهما. مع أنه يحبهما حباً جمًا. فقصد الغرفة المجاورة حيث ينام صغيراه لإلقاء نظرةٍ عليهما والتأكد من كونهما يخلدان للنوم كما يجب. وكانت نتيجة التحرّي الذي أجراه لا تبعث على الرضا. حيث دخل وحمل الصغيرين إلى أسرّتهما حتى بدأ أحدهما يركل ويتحدث عن سلة مليئة بالكركند.

فعاد السيد بونتيلييه لزوجته بمعلومات مفادها أن راؤول مصاب بحمى عالية، وأنّه بحاجةٍ للعناية. ثم أشعل سيجارًا وجلس بالقرب من باب مفتوح ليدخن.

إلا أنّ السيدة بونتيلييه كانت واثقة تمام الثقة بأن راؤول لا يعاني من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحمى وقالت أنه آوى إلى الفراش بصحة جيدة، ولم يشتكِ من ألمٍ طوال اليوم. لكن السيد بونتيلييه كان على معرفةٍ كافية بأعراض الحمى لدرجة أنه لم يكن مخطئًا. وأكد لها أن الحمى تبتلع الصغير في تلك اللحظة، في الغرفة المجاورة. ولام زوجتهُ لغفلتها وإهمالِها المعتادين للأولاد. فإن لم تأخذ الأم دورها في الاهتمام بأطفالها، فمن سيؤدي الدور بحق السماء؟ فهو مشغولٌ بأعمال السمسرة ولا يسعهُ الحضور في مكانين في آنٍ واحد، أن يكسب رزقه من أجل عائلته خارج المنزل وأن يبقى في المنزل ليتأكد بأنّ ما من مكروه أصاب أحدًا منهم. لقد تحدث بنبرةٍ رتيبة ومُلحّة. عندئذٍ، نهضت السيدة بونتيلييه من السرير وذهبت إلى الغرفة المجاورة وسرعان ما عادت وجلست على طرف السرير، حنت برأسها إلى الأسفل على الوسادة. لم تنبس ببنت شفة، ورفضت الإجابة على زوجها عندما استجوبها. وما إن انتهى من تدخين سيجاره، حتى آوى إلى السرير واستغرق في نومٍ عميق خلال نصف دقيقة.

ظلّت السيدة بونتيلييه مستيقظة تمامًا في ذلك الوقت. وأخذت تبكي لفترة، مسحت دموع عينيها بكُمّ ردائها. وعندما أطفأت الشمعة التي تركها زوجها مشتعلة، وضعت قدميها العاريتين في خُفٍّ مصنوعٍ من الساتان عند قدم السرير وخرجت إلى الشرفة، حيث جلست على كرسي الخوص وبدأت تتأرجح ذهابًا وإيابًا على مهل.

حينذاك، كان الوقتُ قد تجاوز منتصف الليل. كلُّ المنازل مظلمة فيما عدا وميض ضوءٍ خافتٍ وحيد ينبعثُ من رواق المنزل الرئيسي. ما من أصوات في الخارج سوى نعيق بومةٍ عجوز حطّت على قمةِ شجرةِ بلوط، وهدير البحر الأبدي الذي لم يزدد في تلك اللحظة العاطفية، بل انحسرتْ مويجاتهِ مثل تهويدةٍ محزونةٍ في وجه الليل. فانهمرت الدموعُ شرهةً من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عيني السيدة بونتيلييه، لدرجة أن كمّها الرطب لم يعد يُجدِ نفعًا. كانت تمسك بمسند كرسيها بيد واحدة، فانزلق كمّها الفضفاض حتى كتف ذراعها المرفوعة تقريباً. استدارت، ودفنت وجهها الحانق المبتل في ذراعها المثنية، واستمرت بالبكاء هناك، ولم تعد تكترث بتجفيف وجهها وعينيها وذراعيها. لم تكن لتستطيع معرفة سبب بكائها، وما كانت مواقف كهذهِ، غريبةً في حياتها الزوجية، ويبدو أنّ هذه المواقف لم تؤثر قط على طيبةِ زوجها وإخلاصهِ الثابت، اللذين أصبحا مضمرين، مفهومين ذاتيًا.

ضيقةُ صدرٍ لا توصف، يبدو أنها وُلِدتْ في مكان غير مألوفٍ من وجدانها، ملأ جُلّ كيانها بأسىً مُلتبس، كأنهُ ظلّ، كسحابةٍ تعبر نهار روحها الصيفي. كان شعور ذلك يبعث على الغرابة والعجب. كان حالة مزاجية، فهي لم تجلس هناك لتلوم زوجها سرًا وتندب القدر الذي قاد خطواتها إلى الدرب الذي سلكاه، وإنما جلستْ هناك تبكي نفسها بكاءً شديدًا. فراح البعوض يلهو بها، يعضُّ ذراعيها المُمتلئين، ويقرضُ قدميها العاريتين. حتى نجحت تلك الكائنات الصغيرة، القارصة الطنّانة، في تبديد الحالة المزاجية التي قد تُبقيها هناك في الظلام لنصف ليلة بطولها.

في صباح اليوم التالي، استيقظ السيد بونتيلييه في الوقت المناسب ليستقل حنطورًا (3) سيقلّه إلى الباخرة في المرسى. كان عائدًا إلَى نيو أورليانز لأعمالهِ، ولن يَزوَهُ مرة أخرى فِي الجزيرة حتى السبت القادم. وكان قد استعاد رباطة جأشه التي يبدو أنها تزعزت بعض الشيء من الليلة الماضية. وبدا تواقًا للرحيل، حيث كان يتطلع إلى أسبوع مفعم بالحياة والعمل في شارع كاروندليت.

أعطى السيد بونتيلييه زوجته نصف المال الذي كان قد جناه من نُزُل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلاين في الليلة السابقة. فإدنا تُحِبُ المال كغيرها من معظم النساء، فقبلتهُ بشيء من الشعور بالرضا.

«سنشتري بهِ هدية زفافٍ جميلة لأختي جانيت» صاحت إدنا. وقسمت الفواتير وهي تعدّها الواحدة تلو الاخرى.

«أوه! سنرسل للأخت جانيت هديةً أغلى من ذلك يا عزيزتي.» قال السيد بونتيلييه ضاحكاً بينما كان يهمُّ لتقبيلها قبلة الوداع. في حين كان الصغيران يتشقلبان حولهما، يتشبثان بساق والدهما، يملأهما الرجاء بأن يعود وهو مُحمّلٌ بما لذّ وطاب.

لطالما يحضر الرجال والسيدات والأطفال وحتى الممرضات لتوديع السيد بونتيلييه، فقد كان صاحب منزلةٍ عظيمة. وقفت زوجته ملوّحة والابتسامة تملأ وجهها، والصغيران يناديان فيما يختفي والدهما الجالس في الحنطور القديم على الطريق الرملي.

بعد بضعة أيام وصل صندوق للسيدة بونتيلييه من نيو أورليانز، مرسلٌ من زوجها. صندوقٌ مليء بقطعٍ مختلفةٍ من الحلوى، وبعض الأطعمة اللذيذة زكية الرائحة، وأجود أنواع الفواكه والمعجنات، وبضع مرطبانات من الدبس اللذيذ، وحلوى الشوكولاتة بقدرٍ وفير.

وفي مثل محتويات هذا الصندوق، تتصرف السيدة بونتيلييه بسخاءٍ بالغ. حيث كانت معتادة على استلام الصناديق عندما تكون خارج المنزل. فأحضرت المعجنات والفاكهة إلى غرفة الطعام، وقامت بتوزيع حلوى الشوكولاتة على الجميع. فالسيدات اللاتي التقطن بأصابعهن الرقيقة التي تعرف ما تختار بنهمٍ شديد إلى حدٍ ما، اعترفن جميعهن بأن السيد بونتيلييه

أفضل زوج في العالم. وبهذا، أجبرت السيدة بونتيلييه على الاعتراف بأنها لا تعرف حقيقةً أصدق مما يقُلنه.

---

(3) الحنطور أو الكوتشي (في المغرب) عربة مخصصة للركاب، يجرها حصان

ثمة صعوبة على السيد بونتيلييه لأن يشرح -بحسب قناعاتهِ الخاصة هو أو أي شخص آخر- كيف فشلت زوجته في واجباتها تجاه صغيريهما. لقد كان شعورًا أكثر من كونهِ إدراكًا، ولم يُعبّر أبدًا عن ذلك دون أن يرافقه شعورٌ بالندم، والتكفير عن ذلك بعدها.

فإن تعثر أحد ولديهِ وسقط أثناء اللعب، فهو لم يكن ميالاً إلى الإسراع والبكاء بين ذراعي والدته طلبًا للمواساة، بل كان على الأرجح يُقيل نفسه من عثرته، يمسح الدموع من عينيه والرمل من فمه، وينهض مواصلًا اللعب. وكأي طفلين مثلهما، يتمالكان أنفسهما، يوحدان الجهود، ويصمدان في معارك طفولية بقبضاتٍ مضاعفة وأصواتٍ مرتفعة، وعادةً ما يتغلبان حتى على أمهات الصغار الآخرين بهذهِ الطريقة. كان ينظر إلى المربية الخلاسية على أنها عبءٌ كبير، فهي بارعةٌ في إقفال أزرار القمصان والبنطلونات وتمشيط الشعر وفرقهِ لا غير! إذ يبدو أن ثمة قانون في المجتمع يفرض أن يكون الشعر ممشطاً ومفروقًا!

باختصار، لم تكن السيدة بونتيلييه أمًا كما يجب. إذ يبدو أن الأمهات ازددن في ذلك الصيف في جزيرة غراند. وكان من السهل معرفتهنّ، يخفقن في الأنحاء بأجنحةِ حارسةٍ حانية، ما إن يهدد أي أذىً -سواء كان حقيقيًا أو خياليًا- ذريتهنّ الغالية. فهن نساء يعبدنَ أولادهنّ وأزواجهنّ، ويعتبرن طمس ذواتهنّ كأفراد، مزيّة مقدسة. وينفين أجنحة كالملائكة الحارسة.

كنّ معظمهنّ فاتنات في الدور الذي يقُمنَ بهِ. وكانت إحداهن مثالًا حيًا لكل نعمةٍ وسحرٍ أنثوي موجود. إن لم يعشقها زوجها، فسيكون رجلًا فظًا يستحق

الموت بالتعذيب البطيء. كان اسمها أديل راتينيول. ليس هناك كلمات لوصفها ما خلا كلمات قديمة كُتِبت لتُصوِّر بطلةً رومانسيةً سابقة وسيدة باهرة الجمال من بنات أحلامنا.

ما من شيء متوارٍ أو مخفي حول سحرها. حيث كل ما كان هناك هو جمالها، متوهجٌ وجليٌ، فشعرها المغزول بلون الذهبِ ما من مشط ولا دبوس شعرٍ قادرٍ على إمساكِهِ. عيناها الزرقاوان لم يكونا سوى حبتا ياقوتٍ أزرق. شفتاها حمراوتان لدرجة تدفع المرء بعدم التفكير بغير الكرز ومعظم الفواكه القرمزية الشهية عند النظر إليهما. كانت تبدو ممتلئة بعض الشيء، لكن ذلك لم ينتقص مقدار ذرة من نعمةِ كل خطوةٍ تتخذها، أو إيماءة تقوم بها. ما كان المرء ليريد أن يكون عنقها الأبيض أقل امتلاءً، أو أن تكون ذراعاها الجميلتان أكثر نحافةً. لم تُخلَق يدان أجمل من يديها. كان من المبهج النظر ليديها وهي تُدخِل الخيط في إبرتها، أو رؤيتها وهي تضبط الكشتبان الذهبي بإصبعها الأوسط المستدق فيما كانت تَخيط سراويل ليليةٍ صغيرة أو تصنع صُدارًا أو مريلة.

كانت السيدة راتنيول شديدة التعلق بالسيدة بونتيلييه، وغالبًا ما كانت تأخذ عُدة الخياطة وتذهب للجلوس معها بعد الزوال. وفي ظهيرة اليوم الذي وصل فيه الصندوق من نيو أورليانز، كانت السيدة راتنيول موجودة هناك تجلس في الكرسي الهزاز منهمكة في خياطةِ زوجٍ صغير من سراويل النوم. فقد جلبت معها نماذج من السراويل لكي تُفصّلها للسيدة بونتيلييه، أعجوبة من الثياب التي صُمّمت لتُغطي جسد الطفل تمامًا، بحيث لا يَبين من الجسد شيئًا سوى عينين صغيرتين، كثياب سكّان الإسكيمو. فقد صُمّمت لثياب الشتاء، حيث يشتدُ البرد وتتسلل التيارات الهوائية الغادرة من المداخن

وتجد طريقها عبر ثقوب المفاتيح.

كان قلب السيدة بونتيلييه مرتاح تمامًا من ناحية احتياجات الملابس الحالية لطفليها، ولم يسعها أن تفهم الجدوى من وراء الاستعجال بملابس لليالي الشتاء وجعلها موضوعًا يقاطع تأملاتها الصيفية. لكنها لم تشأ الظهور بصفةٍ غير وديةٍ لا مبالية، لذلك جلبت لها الصحف وألقتها على أرضية المدخل، وبتوجيهاتٍ من السيدة راتنيول، فصّلت قطعةً ثياب، لا تتأثر بالماء.

كان روبرت هناك، جالسا كما جلس يوم الأحد السابق. أما السيدة بونتيلييه، فقد شغلت أيضًا نفس المكان السابق على الدرجة العلوية، متكئةً إلى العمود بهمّةٍ فاترة وصندوق حلوى الشوكولاتة إلى جوارها، راحت تعرضهُ للسيدة راتنيول على فترات. بدتْ تلك السيدة في حيرةٍ من أمرها لاتخاذ اختيار. ولكن في النهاية استقرت على قطعة من حلوى النوغة، متسائلةً عما إن كانت شديدة الحلاوة. إذ أن من السهولةِ بمكان أن يؤذيها ذلك. فالسيدة راتنيول، متزوجةٌ منذ سبع سنوات، وكانت تُرزَق بطفل كل سنتين تقريبًا. في ذلك الحين، كان لديها ثلاثة أطفال وبدأت تفكر في إنجابِ طفلٍ رابع. وكانت تتحدث دائماً عن «ظروفها». حيث لم تكن «ظروفها» واضحة المعالم بأي حال من الأحوال، وما كان لأحد أن يعرف شيئًا عنها إلا لإصرارها على جعلها موضوعًا للنقاش.

بدأ روبرت في طمأنتها، مؤكدًا أنه سبق وأن عرف سيدة عاشت على حلوى النوغة طوال حياتها، ولكن عندما رأى اللون يصبغ وجه السيدة بونتيلييه، راجع نفسه وغيّر الموضوع. فالسيدة بونتيلييه، على الرغم من زواجها من شخص من الكريول (5) ، لم تشعر أنها في بيتها بمعنى الكلمة في ذلك المجتمع الكريولي. ولم يسبق لها أن ألفيتْ بهذا الشكل الحميم فيما

بينهم. لم يكن هناك سوى الكريول في ذلك الصيف في منتجع آل ليبرون، بعضهم يعرف بعضًا، ويبدون كأنهم عائلة كبيرةٌ واحدة، تجمع بينهم أجمل العلاقات الودّية.

السمة التي ميزتهم والتي أثارت إعجاب السيدة بونتيلييه أيّما إعجاب، كانت افتقارهم الكامل للتحفُّظ في القول. لم تكن حريتهم في التعبير مفهومة في البداية بالنسبةِ لها، مع إنها لم تجد صعوبة في المقاربة بين ذلك وبين العفة السامية التي تبدو في المرأة الكريولية فطرية لا لَبس فيها. لم تنسَ إدنا بونتيلييه ذهولها عندما سمعت السيدة راتنيول ذات الصلة بالعجوز السيد فاريڤال وهي تتحدث عن القصة المروعة لإحدى حالات ولادتها دون أن تمتنع عن ذكر أي تفاصيل خاصة. وكانت السيدة بونتيلييه قد بدأت في التعود على مثل هذه الصدمات، ولكنها لم تتمكن من كبح جُماح الحُمرة التي تعلو خديها.

وأكثر من مرة، قاطعت بحضورها، قصص الطرائف(4) التي كان روبرت يُسلّي بها مجموعة من النساء المتزوجات.

مرّ الكتاب القصصي بعدة أدوار على النزلاء. وعندما حان دورها للقراءة، قرأتهُ بذهولٍ بالغ. فشعرتْ برغبةٍ تدفعها لقراءة هذا الكتاب سرًا في أوقات خلوتها، على الرغم من أن أيًا من الآخرين لم يفعلوا ذلك بغرض إخفائه عن الأنظار، عند سماعهم لاقتراب خطوات أحدهم. انتقدوه علنًا وأصبح موضع نقاش دون قيود على الموائد. عندئذٍ، تخلّت السيدة بونتيلييه عن مشاعر الدهشة، وخَلُصتْ إلى أن العجائب لن تنتهي أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(5) الكريول: مجموعات عرقية نشأت خلال الحقبة الاستعمارية نتيجة اختلاط عنصري شمل أساساً غرب أفريقيا وبعض الأشخاص الآخرين الذين ولدوا في مستعمرات، مثل الفرنسيين والإسبان والسكان الأمريكيين الأصليين.

(4)Droll stories : مجموعة قصصية للكاتب أونوريه دي بلزاك، نشرت في ثلاث مجموعات من 10 قصص لكل منها، في 1832، 1833، و 1837. تضم بعض القصص الخادشة للحياء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعتاد الجميع تشكيل مجموعة لطيفة يجلسون هناك بعد ظهر ذلك الصيف. حيث تجلس السيدة راتنيول وتقوم بأعمال الخياطة، وغالباً ما تتوقف لتروي قصة أو حادثة بحركةٍ معبرة جدًا من يديها الرائعتين. في حين يلزم روبرت والسيدة بونتيلييه مكانيهما بلا عمل. يتبادلان الكلمات والنظرات، أو الابتسامات، بين الحين والآخر مما يشير إلى مرحلةٍ متقدمةٍ من الألفة والصداقة الحميمية. لقد عاش في ظلها طيلة الشهر المنصرم، ولم يفكر أحدٌ بذلك. إذ توقع الكثيرون أن روبرت سيكرس نفسهُ للسيدة بونتيلييه عند وصوله. فمنذ سن الخامسة عشر -الذي مضى عليهِ أحد عشر عامًا- وروبرت يجعل من نفسهِ المرافق المخلص لسيدةٍ جميلة أو لبنت في كل موسمٍ صيفي في جزيرة غراند، وفي بعض الأحيان يرافق بنتًا شابة وأحيانًا أرملة. ولكنه قليلًا ما كرس نفسهُ لامرأة متزوجة مثيرة للاهتمام. ولموسمين متتاليين، عاش روبرت تحت ظلال الآنسة ديوڤين لكنها توفيث بين الصيفين. حينذاك، تظاهر روبرت بأنه في حالةٍ يُرثى لها، فرمى بنفسهِ عند قدمي السيدة راتينيول طلبًا لأي فُتاتٍ من المواساة والرأفة التي قد يكون من دواعي سرورها أن تتعطف بها عليه.

أحبت السيدة بونتيلييه الجلوس والتحديق في رفيقتها الفاتنة وكأنها تنظر ربما، إلى فتاة نقية طاهرة.

«هل يمكن لأحدهم أن يفهم كيف تختبئ القسوة تحت ذلك المظهر الخارجي اللطيف؟» همهم روبرت، وواصل:

«إنها تعلم أنني عشقتها ذات مرة. لقد جعلتني أعشقها. كانت تقول: **أوه إنه**

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

روبرت. تعال يا روبرت، اذهب يا روبرت، قف مكانك، اجلس، افعل هذا وافعل ذاك، تأكد بأن الطفل نائم، الكشتبان من فضلك -حيث ما من أحد يدري أين تركته غير الرب- تعال واقرأ لي شيئًا لألفونس دوديه(6) بينما أخيط.»

«حقًا! لم أطلب منك ذلك أبدًا، لطالما كنتَ تحوم حول قدمي مثل قطٍ مزعج.»

«تعنين مثل كلبٍ هائم! وبمجرد ظهور السيد راتنيول في المشهد، صار روبرت كالكلب و.... هيا غادر المكان، وداعًا، ارحل حبًا بالله.»

«لربما خشيتِ من جعلِ ألفونس يشعر بالغيرة.» قالت السيدة راتنيول بسذاجة مفرطة اضطرتهم للضحك جميعًا. قد تشعر اليد اليمنى بالغيرة من اليسار، وقد يغار القلب من الروح، لكن في هذا الشأن، لا يشعر الزوج الكريولي بالغيرة أبدًا. فمشاعر الحب الجارف عندهُ، تقزّمت من الهَجر.

في هذه الأثناء استمر روبرت، مخاطباً السيدة بونتيلييه، في الحديث عن حبهِ الميئوس منه ذات مرة للسيدة راتينيول. عن ليالي الأرق الطوال، عن النيران التي تستعر في صدره وتستنزفه حتى يغلي البحر من لهيبهِ عندما يغطس يومياً للسباحةِ فيهِ، بينما واصلت سيدةُ الإبرة عملها إلى حدٍ ما، ثم أبدث تعليقًا ينمُّ عن ازدراء:

«مهرجٌ أحمق. سخيف. كفى ثرثرة اخرج من هنا»

لم يتخيل روبرت أسلوب الهزل الجدّي هذا عندما يكون وحيدًا بصحبة السيدة بونتيلييه، فهي لم تعرف بالضبط ما تستنتج منه. وفي تلك اللحظة، كان من المستحيل بالنسبة لها أن تخمن أي جزءٍ منه كان ينطوي على دعابة

وما هي نسبة جِذيتهِ. وقد فهمت أنه كثيرا ما كان يخاطب السيدة راتينيول بكلمات الحب، دون أي نيّةٍ في أن تؤخذ على محمل الجد. كانت السيدة بونتيلييه فرحةً لأنه لم يقم بدور مماثل تجاهها حيث سيُعد أمراً مرفوضًا ومستفزًا.

حينذاك، أحضرتْ السيدة بونتيلييه أدوات الرسم، إذ كانت تقضي وقتها بممارسة الرسم أحياناً، بطريقةٍ غير احترافية. وقد أحبتْ تلك التسلية لأنها تزرعُ فيها ذلك الشعور بالرضا، لم يمنحهُ لها أي عملٍ آخر.

لقد تمنّت لوقت طويل أن تختبر هوايتها على السيدة راتينيول، ولم يحدث قط أن بدتْ تلك السيدة موضوعاً مغرياً أكثر مما كانت عليه في تلك اللحظة، حيث جلستْ هناك كامرأةٍ مثيرةٍ في بريق ذلك النهار المتلاشي الذي أثرى لون بشرتها المشرق.

قام روبرت وجلس على الدرج أسفل السيدة بونتيلييه ليراقب عملها. تعاملت إدنا مع فرش الرسم بسهولة وحرية لم تنبعا من معرفةٍ طويلة وثيقة، وإنما من موهبةٍ فطرية. تابع روبرت عملها باهتمامٍ بالغ، وأبدى بعض الملاحظات بصوتٍ عالٍ ينمُّ عن التقدير باللغة الفرنسية، والتي وجهها إلى السيدة راتينيول:

«لكنها ترسم بطريقةٍ لا بأس بها! إنها ضليعة بعملها! وتملك الموهبة!»

خلال هتافاتهِ وإعجابهِ الغافلِ بالعمل، أراح رأسه بهدوءٍ على ذراع السيدة بونتيلييه. فصدّته بلطف. كرر تجاوزهُ مرة أخرى. فلم يسعها إلا أن تعتقد بأن ذلك طيشٌ ورعونةٌ منه. غير أن هذا ليس سبباً يدعوها للرضوخ له. لم تحتجَّ إدنا على ذلك، ماعدا في المرة الثالثة بعد أن صدّته برفقٍ لكن بكل حزم. لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقدم روبرت أي اعتذار. واللوحة المنجزة لا تحمل أدنى قدرٍ من التشابه مع السيدة راتينيول. وقد خاب أملها كثيرًا عندما رأت أنها لا تشبهها. لكنه كان عملًا جيدًا إلى حدٍ ما، ومقبولًا في العديد من النواحي. لكن على ما يبدو أن السيدة بونتيلييه لم تقتنع بذلك. فبعد أن عاينت اللوحة بعينٍ ناقدة، رسمت لطخةً كبيرة من الطلاء على وجه اللوحة، وجعدت الورقة بين يديها.

جاء الصغيران وارتقيا الدرجات بمشية متعثرة، تتبعهما المربية الخلاسية بمسافةٍ جيدةٍ كما اشترطوا عليها مراعاتها. فجعلتهما السيدة بونتيلييه يحملان لوحاتها وأشياءها إلى داخل المنزل. كانت تسعى لمنعهما من الخروج كي يحظيا بالقليل من الحديث سويةً، لكنهما أظهرا قدرًا كبيرًا من الجدّية. فلم يَقدُما إلا من أجل التحقق من محتويات صندوق حلوى الشوكولاتة. وقَبِلَ كلاهما دونما تذمر ما اختارتهُ لهما والدتهما، وكل واحدٍ منهما يمدُّ يدين مكتنزتين ومفتوحتين كمغرفة، بأملٍ لا جدوى منه، من إمكانية ملئها. ومن ثم، غادرا. أخذت الشمس تغوص شيئًا فشيئا غرب السماء، والنسيم الذي يصّاعد من الجنوب معتدلًا، ويبعث على الوهن محمّلًا برائحة البحر الساحرة. احتشد الأطفال ذوو الثياب المُزيّنة حديثًا تحت شجرة البلوط. أصواتهم عاليةٌ وحادة.

حزمت السيدة راتينيول عُدّة خياطتها. فوضعت الكشتبان، المقص، والخيط معا على نحوٍ مرتب في اللفافة التي ثبتتها بدبوس بإحكام. وبدأت تشكو من الشعور بالإعياء. فهرعت السيدة بونتيلييه كي تحضر الكولونيا ومروحةٍ يدوية. غسلت وجه السيدة راتينيول بعطر الكولونيا، فيما طفق روبرت يستعمل المروحة بهمّةٍ لا داعي لها.

وسرعان ما تبدد الوهم. فلم تستطع السيدة بونتيلييه إلا أن تتساءل عما

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إذا لم يكن هناك شيءٌ من سعة الخيال متأصل في جذور صديقتها، لأن لون الورد لم يخبُ أبدا من على وجه السيدة راتينيول. وهكذا، وقفث تشاهد تلك المرأة الفاتنة وهي تمشي أسفل صفٍ ممتدٍ من الشرفات، بالكياسة والعظمة التي من المفترض أن تحوزها الملكات في وقتٍ ما.

هرع صغارها لاستقبالها. حيث تعلق اثنان منهم بتنورتها البيضاء، بينما أخذت الثالث من مربيتهِ، حملتهُ بالكثير من الدلال وعبارات التحبُب والغنج، وذراعاها الحنونة تحيطان بالصغير رغم أن الطبيب، منعها من رفع دبوس كما يعرف الجميع ذلك حق المعرفة!

«أذاهبة للسباحة؟» سأل روبرت السيدة بونتيلييه، والذي لم يكن سؤالًا بقدر ما كان تذكيرًا.

«أوه، كلا» أجابت بنبرةٍ يعتريها التردد. « إنني متعبة، لذلك لا أعتقد.» وحادث بنظرها عن وجهه بعيدًا صوب الخليج حيث بلغها هديره الرنان وكأنهُ استعطاف مُحِبٍ رؤوم، لكنهُ مفروضٌ لا مناص منه.

«أوه.. تعالي» قال روبرت بإصرار. «هيا بنا، لا ينبغي أن تفوّتي موعد السباحة. ستكون المياه منعشةً ولن تضيرك بشيء. هيا»

والتقط قبعتها القشية الخشنة الكبيرة المعلقة على وتد خارج الباب، ووضعها على رأسها. نزلا من الدرج، وسارا معا صوب الشاطئ. كانت الشمس غاربةً في السماء وكان النسيم معتدلًا ودافئاً.

---

(6)ألفونس دودييه: كاتب فرنسي ارتبط بالمدرسة الطبيعية، وامتزجت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أعماله اللوحات الواقعية للحياة اليومية بالخيال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تستطع إدنا بونتيلييه أن تفهم سبب رغبتها في الذهاب إلى الشاطئ مع روبرت. كان عليها أن ترفض في المقام الأول، وفي المقام الثاني، تبعتهُ بانقياد، استجابةً لإحدى الرغبات العارمة المتناقضة التي دفعتها إلى ذلك.

ثمة فجرٌ لا ريب منهُ، بدأ ينبلجُ في أعماقها على نحوٍ خافت. فجرٌ ينير الطريق، ثم يحجبه. وفي تلك المرحلة المبكرة. كان وقعُ ذلك عليها مربك. لقد دفعها إلى الاستغراق في الأحلام، إلى التيقظ، إلى لوعةٍ مبهمة تهزمها في منتصفِ الليل وهي تُسلّم نفسها للدموع.

خُلاصة القول. بدأت السيدة بونتيلييه تدرك مكانتها في هذا الكون ككائن بشري، وتدركُ صِلاتها كفردٍ مع العالم فيها ومن حولها. قد يبدو هذا الإدراك وكأنه عبء ثقيل الوطأة يحلُّ على روح امرأة شابة في الثامنة والعشرين. ولربما أكثر إدراكًا، مما يجيزهُ الروح القدس بكل سرورٍ عادةً، لأي امرأة.

غير أنَّ بداية حدوث الأشياء، وخاصة من شؤون هذا العالم، هي بدايات غامضة، معقدة، مضطربة، ومثيرة لقلقٍ بالغ لا محالة. عجبًا، كيف أن قلّة منا - نحن البشر- نجا من مثل هذه البدايات! وكم من الأرواح هلكت في اضطرابها!

هدير البحر الساحر لا يهدأ أبدًا، هامسًا، صاخبًا، داعيًا الروح إلى أن تهيم في هاوية العزلة، وأن تترك الروح ذاتها لمتاهات التأمل الداخلي. صوت هدير البحر يتحدث إلى الروح. أثرُ البحرِ لمسةٌ تُثير الحواس، يغمرُ الجسد في عناقه الدافئ الرقيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٧

لم تكن السيدة بونتيلييه امرأة تمنح الثقة للآخرين، وهي سمة تُنافي طبيعتها لغاية الآن. حتى عندما كانت طفلة، كانت تعيش عالمها الصغير في قرارة نفسها. في فترة مبكرة جدا، فهمت غريزيًا الحياة المزدوجة: الوجود الخارجي الذي يتماشى مع الأحكام، والحياة الداخلية التي ترتاب وتطرح الأسئلة.

بدأت إدنا في ذلك الصيف في جزيرة غراند، بإرخاء رداء التحَفّظ قليلًا، الذي لطالما كان يجللّها. لربما هناك عوامل مؤثرة، بل لا بد من وجودها. عوامل خفية وواضحة على حد سواء، تعمل بطرقها المتعددة لدفعها على القيام بذلك. لكن أكثر التأثيرات وضوحًا كان تأثير أديل راتينيول. في البداية، جذبها السحر الجسدي المفرط للكريوليين، لأن إدنا لديها ميلٌ حسّي للجمال. ثم أن، الوضوح في أسلوب حياة المرأة برمتها، والتي بوسعِ أي امرئ قراءته، والذي يشكلُّ تباينًا جليًا مع تَحفّظ المرأة الفطري، لعل هذا ما مهد للحلقة الرابطة. من يستطيع أن يعرف ما هي المعادن التي يستخدمها الخالق في تشكيل الرابطة الخفية التي نسميها التوادّ الوجداني، والتي بإمكاننا أيضًا أن نسميها الحُبّ؟

ذات صباح، قصدت المرأتان الشاطئ معاً، يداً بيد، تظللهما مظلة بيضاء ضخمة. إذ أقنعت إدنا السيدة راتينيول بترك الأطفال وراءها، لكنها لم تنجح في إقناعها بالتخلي عن عدة التطريز الصغيرة خاصتها، حيث ترجتها أديل للسماح لها بحملهم معها في جيبها. ثم هربا من روبرت بطريقةٍ يتعذر تفسيرها!

لم يكن المشي إلى الشاطئ أمراً هينًا، لأن الطريق إليه عبارة عن دربٍ رملي ممتدٍ يحده من كلا الجانبين نمو نباتي متشابك هنا وهناك استحوذ على جزء من الطريق على نحو فجائي دائم. ثمة فدان من أزهار الأقحوان الصفراء ممتدٌ في متناول اليد. وعلى مسافة أبعد، تزخر حدائق نباتية تتخللها مزارعُ صغيرةٌ من أشجار البرتقال والليمون. العناقيد الخضراء الداكنة تلمع من بعيد تحت أشعة الشمس.

كان لكلا المرأتين قامةٌ ممشوقة جميلة. لكنَّ السيدة راتينيول تفوز بالشخصية الأكثر أنوثةً ووقارًا. أما قوام إدنا بونتيلييه، فيسلب لُبَّك على حين غرَّة. خطوط جسدها واضحةٌ، سابغةٌ، ومتناسقة. كان جسدًا يتخذ وضعيات ساحرة حينًا بعد حين. ليس ثمة ما يوحي بالزينة في هيئتها، وليست ممن ينشغلن بالثياب التقليدية الحديثة. حتى إن أيَّ عابر سبيل بالصدفة، قد لا يلتفتُ للنظر إليها مرةً أخرى. لكن، لو كان المرء ذا إحساس وفطنة عميقين، كان سيعترف بها كمثالٍ حيّ للجمال السامي، من مشيتها الرشيقة وجِدِّيَة سلوكها. مما جعل إدنا بونتيلييه مختلفة عن الأُخريات.

ارتدت إدنا في ذلك الصباح فستانًا من الموسلين الأبيض الممتاز، يشغلهُ شريطٌ مستقيم بُنّي اللون وياقة من الكتان الأبيض. واعتمرتْ قبعةَ القش الكبيرة التي أخذتها من الوتد على الباب. كانت القبعة موضوعةً بغير عنايةٍ على شعرها القمحي شبه المُمَوَّج، لأنها ثقيلة، فالتصقت برأسها. بينما قامت السيدة راتينيول، التي كانت أنيقة المظهر بربط وشاحٍ شفاف حول رأسها وارتدت قفازات مصنوعةٍ من جلد الكلب وقفازات واقية للرسغين. وكانت ترتدي فستانًا أبيض اللون، فستان رقيق النسيج ذو تموُّجات يليق بأناقتها. فالأقمشة الناعمة التي ترتديها لا تليق إلا بثرائها وحُسنها الأخاذ، كقيمةٍ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جمالية أكبر من التصاميم الدارجة.

كان ثمة عدد من الحمامات العمومية على امتداد الساحل. بناءٌ غير منظم لكنهُ متين، مرفقٌ بمداخل صغيرة واقية مواجهة للشاطئ. كل حمام يتكون من غرفتين، وكل عائلة في منتجع آل ليبرون تمتلك غرفة خاصة بها، مجهزة بجميع الأدوات الأساسية للحمام وأي وسيلة أخرى من وسائل الراحة قد يرغب فيها مالكوها. لم يكن للمرأتين نية في السباحة. فقد عرجتا على الشاطئ لمجرد التنزه وليكونا بمفردهما قرب البحر. كانت غرفتا آل بونتيلييه وآل راتينيول ملاصقتين لبعضهما بعضًا تحت السقف نفسه.

وقد أحضرت السيدة بونتيلييه معها مفتاح الحمام بحكم العادة. فتحت باب حجرتها ثم دلفت. وسرعان ما خرجت حاملة بساطًا فرشته على أرضية المدخل، ووسادتين كبيرتين مصنوعتين من الشعر مغطاتين بقماش خشن وضعتهما قبالة الجزء الأمامي من المبنى. وجلستا هناك في ظلال المدخل، جنبًا إلى جنب، وظهورهما متكئة إلى الوسائد وأقدامهما ممدودة. أزالت السيدة راتينيول وشاحها الشفاف، ومسحت وجهها بمنديل ناعم إلى حد ما، وأخذت تُرَوِح لنفسها بالمروحة التي كانت تحملها دائمًا، معلقة في مكان ما حول رسغها بشريط طويلٍ ضيّق. نزعت إدنا عِقدها وفتحت فستانها من جهة حنجرتها، أخذت المروحة من السيدة راتينيول وبدأت تُرَوح لنفسها ورفيقتها. كان الجو دافئًا. ولفترة من الوقت، لم يفعلا شيئًا سوى تبادل الملاحظات حول الحرارة ووهج أشعة الشمس، لكن كان ثمة نسيمٌ يهُب. رياحٌ مضطربةٌ عالية ضربت وجه البحر وصيّرته زبدًا. حتى أنها طيّرت تنانير المرأتين وأبقتهما فترة من الوقت منخرطتين في تسوية وتعديل التنانير وتثبيت دبابيس الشعر ودبابيس القبعة. ثمّة أشخاص قليلون يمارسون

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الرياضة على مسافة من الشاطئ.

في تلك الساعة، كان الشاطئ خاليًا من أي صوتٍ بشريّ. أما السيدة ذات الرداء الأسود، فكانت تمارس التعبد الصباحي أمام باب الحمام المجاور. وثمة عاشقان شابان يتطارحان لهفة قلبيهما تحت خيمة أطفال وجداها خالية.

جالت عينا إدنا بونتيلييه حولها، إلى أن ثبتث بصرها على البحر أخيرًا. كان النهارُ صافيًا يحمل العينين على إمعان النظر بعيداً جدًا، بقدر امتداد السماوات الزرقاء. ثمة غيوم بيضاء متفرقة، معلّقة في الأفق تسير على نحوٍ بطيء.

في اتجاه جزيرة القط، لاح مركب ذو شراع مثلث الرأس، وثمة مراكب أخرى صوبَ الجنوب، بدث شبه ساكنة من مسافةٍ بعيدة.

«بمن...بماذا تفكرين؟» سألث أديل رفيقتها، التي كانت تراقب وجهها بشيء من إعجاب ينطوي على بهجة، مأسورة بتعابير وجهها المستغرقة التي يبدو كأنها استحوذت على كل ميزةٍ وحوّلتها إلى امرأة ذات جمال مهيب يبعث على الطمأنينة.

«لا شيء»، جاء رد السيدة بونتيلييه بدايةً، وأضافت في الحال: «يا لغبائي! يبدو لي أنه الرد الذي نستخدمه بشكل فطري على مثل هذا السؤال. دعيني أفكر..» فأرجعث رأسها الى الوراء، ضيقت عينيها الساحرتين حتى بدأتا تشعان كنقطتين ضوئيتين لامعتين وتابعث:

«لم أكن أفكر بشيء حقًا؛ لكني لربما أستطيع تقفي آثار افكاري»

«أوه! لا عليكِ.» قالت السيدة راتينيول ضاحكةً: «لستُ بتلك الصرامة. سأعفيكِ من عناء التفكير هذه المرة. فالجو شديد الحرارة، لا سيما للتفكير

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

في الأفكار»

«ولكن من أجل التسلية» أصرّت إدنا، «أولا، مشهد البحر الممتد في البعيد، وتلك المراكب مثلثة الأشرعة الراسية تحت السماء الزرقاء، رسما لوحةً مبهجة تدفعني للجلوس والتحديق فيهما ليس إلا. الرياح الحارة التي تهب في وجهي جعلتني أفكر -دون أن يكون لذلك صِلَة- أنه يمكنني اقتفاء أثرِ يوم صيفي في كنتاكي. أن أتقصى أثرَ مَرجٍ يبدو شاسعًا بحجم محيط بالنسبة لفتاةٍ صغيرةٍ تمشي عِبرَ حشائش أعلى من مستوى خصرها. فطوّحتْ ذراعيها في الهواء كما لو أنها تسبح وهي تمشي، تضرب الحشائش العالية كما يندفع المرء في المياه. فهمتُ الصلة في هذه اللحظة!»

«إلى أين كُنتِ ذاهبة ذلك اليوم في كنتاكي، نزهة عبر الحشائش؟»

«لا أذكر. كنت أسير عبر حقل كبير. عرقلتْ قبعتي الرؤية. لم أرَ أمامي سوى امتداد من اللون الأخضر، وشعرتُ كما لو أنني يجب أن أسير إلى الأبد، دون أن أصل إلى نهاية. لم أعد أذكر ما إذا كنت خائفة أو سعيدة. لا بد أنني كنتُ مستمتعة. لم يكن يوم أحد على الأرجح. كنتُ أهرب من الصلوات، من الخدمة المشيخية، والقراءة بروحٍ يسودها الغم إلى جوار والدي ما يجعل بدني يقشعر من التفكير بالأمر لحد الآن.»

«وهل كنتِ تهربين من الصلوات منذ ذلك الحين يا عزيزتي؟» سألت السيدة راتينيول ملاطِفةً. فسارعت إدنا للقول:

«أوه كلا كلا. كنتُ طفلة غافلة في تلك الأيام أتبع دافعًا مضلِّلًا بلا تردد. وعلى النقيض من ذلك، ترسخ الدين بداخلي في إحدى فترات حياتي، بعد أن بلغتُ الثانية عشرة وحتى الآن. عجبًا! على ما أعتقد حتى الآن، مع أنني لم

أفكر كثيرًا في ذلك! كنتُ مسيَّرة بالعادة. لكن أتدرين؟»

وصمتت إدِنا فجأة. ثم حولت عينيها سريعًا إلى السيدة راتينيول ومالت إلى الأمام قليلاً لتجعل وجهها قريباً جداً من وجه رفيقتها واستطردت قائلة:

«في هذا الصيف، ينتابني أحيانًا نفس الشعور كما لو أنّي أسير في ذلك المرج الأخضر مرة أخرى، بلا عمل، بلا هدف، بلا وعيٍ ولا وجهة.»

وضعت السيدة راتينيول يدها فوق يد السيدة بونتيلييه القريبة منها. ولمّا رأتْ أنّ إدِنا لم تسحب يدها، شبكتها بثباتٍ وحرارة. حتى أنها بيدها الأخرى ربتت عليها بحُب، وهمهمت بصوت خفيض: «يا حبيبتي المسكينة»

في البداية، بدا الأمرُ مربكًا بعض الشيء بالنسبة لإدِنا، لكنها سرعان ما استسلمتْ دون تردد، لتربيتة الكريولية اللطيفة. لم تكن معتادة على التعبير عن المودة بلغة صريحةٍ منطوقة، سواء كان ذلك مع نفسها أو مع الآخرين. كانت هي وأختها الصغرى جانيت تتشاجران كثيرا بفعل عادات سيئة. بينما كانت شقيقتها الكبرى مارغريت، فتاةً رزينةً محترمة. ربما لأنها تحملت مسؤولياتها كأم وربّة منزل في سنٍ مبكرةٍ من حياتها بعد أن توفيتْ والدتهم وهنّ فتيات صغيرات. لذلك، لم تكن مارغريت مسرفة في التعبير عن عاطفتها، بل أصبحتْ فتاة واقعية.

كان لإدنا صديقةٌ حَينية، ولكن سواء كان عن طريق الصدفة أم لا، بدا أن لكليهما عاملًا مشتركًا وهو أن كل واحدة فيهما مكتفية بذاتها. لم تدرك يومًا، أنّ شخصيتها الكتومة هي السبب الأكبر بكل ما يحدث لها، بل وربما بكل ما حدث. لها صديقةٌ مقربة في المدرسة، ذات موهبةٍ فكريةٍ استثنائية. كانت تكتب مقالات رنّانة، أُعجِبتْ بها إدنا وسعت إلى تقليدها. وهي من جعلت

إدنا تتألق وتنخرط معها في أحاديث حول كلاسيكيات الأدب الإنكليزي، وأحياناً يخُضن في جدالاتٍ دينية وسياسية. لطالما تساءلت إدنا عن بعض الميول التي سببث لها قلقًا داخليًا في بعض الأحيان دون أن يتجلى أثر ذلك على ملامحها وتعابير وجهها. ففي سن مبكرة جدا، لربما حدث ذلك وقتَ اجتازت مرحلة المشي في محيط الحشائش المتموجة، تذكرث أنها كانت مولعة للغاية، بضابطٍ من سلاح الفرسان، مهيبٌ، لهُ عينان حزينتان، كان قد زار والدها في ولاية كنتاكي. عندما يقوم بزيارتهم لم تكن تملك القدرة على تجاهل وجوده، ولا إبعاد عينيها من وجهه الذي كان أشبه بوجه نابليون مع خصلة من شعره الأسود تسترسل على جبهته. إلا أن ضابط سلاح الفرسان ذاك، اختفى من حياتها بشكلٍ لا يُدرَك.

في مرحلةٍ أخرى من حياتها، ارتبطث مشاعرها ارتباطًا عميقًا برجلٍ شاب زار آنسةً تعيش في عزبة مجاورة. وحدث ذلك بعد أن انتقلت عائلة إدنا إلى ميسيسيبي للعيش فيها. كان الشاب مخطوبا لهذهِ الآنسة، وكانا أحيانًا يطلبان من مارغريت ايصالهم بالعربة. كانت إدنا آنسةً صغيرة، تنتقل إلى مرحلة مراهقتها ليس إلا. وإدراك أنها هي بشحمها ولحمها مجرد نكرةٍ بالنسبة للشاب المخطوب، كان بمثابةِ محنة مريرة بالنسبة لها. وهكذا مضى هو أيضاً، كما الأحلام.

وكانت تتحول لشابةٍ ناضجة عندما باغتها بما خُيِّل لها أن يكون ذروة قدرها. حين بدأت ملامح وهيئة كاتب تراجيدي كبير، يطارد مخيلتها ويحرك حواسها. افتتانها العميق بِهِ، أضفى عليها سمةً من سمات الأصالة والصدق. لقد لوّنها اليأس من حبهِ لها، بأسمى ألوان الحب الكبير. حتى اتخذتْ صورة مؤطرة للكاتب التراجيدي موقعًا على مكتبها. فأي فردٍ بإمكانه أن يمتلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صورة لكاتب دون أن يُثير شبهاتٍ أو أحاديث القيل والقال. وكان لهذه الطريقة أثرٌ لئيم تعتزُ به. إذ أعربت في حضور الآخرين عن إعجابها بمواهبِهِ العظيمة، حين كانت تمرر صورتهِ في أي جلسةٍ وتسهب بالحديث عن دقة شبه الصورة بهِ. وعندما تنزوي بمفردها بين الفينة والأخرى، كانت تأخذ الصورة وتُقبّل الزجاج البارد بكل ما تملك من عاطفة.

كان زواجها من ليونس بونتيلييه محض صدفة، يشابه في هذا المضمار العديد من الزيجات الأخرى التي تتوارى خلف إرادة القدر. وفي خضم حبها السري الكبير، التقت به. وكما دَرَجَ الرجال على ذلك، وقع ليونس في الحب، وأخذ يتودد لها بكل جدّية وشغف بحيث لم يترك شيئًا مما ينبغي فعلهُ، لكسب ودّها. لقد أسعدها، وأغراها إخلاصه المطلق. حتى خُيّل لها وجود تناغم وجداني في الأفكار والذوق يجمع بينهما، حيث أنها أساءت فهم هذا الاعتقاد. يُضاف إلى هذا، معارضة قوية من قبل والدها وأختها مارغريت لزواجها من شخص كاثوليكي، ونحن لا نحتاج إلى البحث عن الدوافع التي أدّت لقبولها الزواج من السيد بونتيلييه.

كان لزواجها من الكاتب التراجيدي أن يمثل قمّة الهناء. بَيدَ أنه لم يكن نصيبها في هذا العالم. وكزوجة مخلصةٍ لرجل يعبدها، شعرت بأنها ستأخذ مكانها في عالم الواقع بكل كبريائها، وتوصد وراءها البوابات في عالم الرومانسية والأحلام إلى أبد الآبدين.

ولم يمر وقت طويل قبل أن ينضم الكاتب إلى ضابط سلاح الفرسان والشاب المخطوب وبضعة أشخاص آخرين مضوا في طريقهم. ووجدت إدنا نفسها وجها لوجه مع الحقائق. أصبحت مغرمةً بزوجها، مدركة بارتياحٍ يتعذر تفسيره، أنه ما من أثرٍ لحُبٍ ولا ودٍّ مفرط زائف، يضفي لونًا على وجدانها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحيث يهدد بانفراط زواجها.

ثم صارت أمًّ مولعةً بأطفالها على نحوٍ متفاوت ومندفع. كانت تضمهم في بعض الأحيان بشغفٍ كبير إلى صدرها، وفي أحيانٍ أخرى، تتناساهم. في السنة التي سبقت ذلك، أمضى الصغيران ردحًا من الصيف مع جدتهما بونتيلييه في إيبرفيل. إذ شعرت بالاطمئنان بخصوص سعادتهما ورفاهيتهما. لم تفتقدهما إلا بشوق شديد من حين لآخر. كان غيابهما مريحًا بالنسبة لها إلى حدٍ ما. مع أنها لم تعترف بذلك حتى لنفسها. وبدا أن ذلك أعتق رقبتها من المسؤولية التي تحملتها على نحوٍ أعمى والتي لم يجعلها القدر جديرة بها.

لم تكشف إدنا عن كل هذا للسيدة راتينيول في ذلك اليوم الصيفي عندما جلستا بوجوهٍ متوجهة صوب البحر. بل أن جزءًا كبيرًا من كل هذا غاب عن ذاكرتها. أرخت رأسها على كتف السيدة راتينيول. كانت محمرة الخدين، تشعرُ بالشكر من سماع نبرة صوتها، ومن طعم الصراحة غير المعهود. شوش ذلك ذهنها كفعل النبيذ، أو كأول نَفَسٍ من الحرية.

ثم تناهت إليهما أصواتٌ تقترب. فشاهدا روبرت محاطاً بمجموعة من الأطفال يبحث عنهما، يرافقهُ صغيرا السيدة بونتيلييه، وقد حمل ابنة السيدة راتينيول الصغيرة بين ذراعيه. كان ثمة أطفال آخرون بالإضافة إلى ذلك. تتبعهم مربيتان يبدو على ملامحهما الضيق والخضوع.

فنهضت المرأتان على الفور وأخذتا بنفض ثيابهما وإرخاء عضلاتهما. ثم ألقت السيدة بونتيلييه الوسائد والبساط في الغرفة. هرع الأولاد جميعا إلى سقيفة المدخل، واصطفوا هناك يحملقون في العاشقَين الدخيلين اللذين ما فتئا يتبادلان العهود والتنهدات حتى نهضا، لكنما بشكوى قلبية، وانصرفا ببطءٍ إلى مكان آخر.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

استولى الأطفال على الخيمة، وانضمت السيدة بونتيلييه إليهم. فيما أخذث السيدة راتينيول ترجو روبرت لمرافقتها إلى المنزل، لأنها بدأت تشكو من تشنج في أطرافها وتصلُّب المفاصل. لدرجة أنها اتكأت على ذراعه أثناء مشيهما المتثاقل.

٨

«أسدِ لي معروفًا ياروبرت» تكلمت المرأة الجميلة إلى جوارهِ بمجرد أن بدأت هي وروبرت طريقهما البطيء الى البيت. نظرت لوجهه وهي تستند إلى ذراعهِ تحت ظل المظلة التي رفعها.

«أكيد! بقدرِ ما تودّين»، وعاد ليلقي نظرة خاطفة على عينيها اللتين كانتا مليئتين بالجِدّية وبشيء من التكهنات.

«أطلب منك طلبًا واحدًا فقط. دع السيدة بونتيلييه وشأنها»

«أها!» هتف هتافاً ممزوجًا بضحكةٍ صبيانيةٍ مباغتة: «السيدة راتينيول تشعر بالغيرة!»

«هراء! أني جادةٌ وأعني ما أقوله. دع السيدة بونتيلييه وشأنها»

«السبب؟» سأل وقد استحال هو أيضًا لشخص جاد إزاء طلب رفيقتهِ.

«إنها ليست واحدة منا. ليست مثلنا. وقد ترتكب خطأً فادحًا حين تأخذ مشاعرك تجاهها على محمل الجد.»

فاحمّر وجه روبرت من الامتعاض. خلع قبعته اللطيفة وأخذ يحركها على ساقهِ بصبر يكاد ينفد وهو يمشي.

«ولِمَ عساها ألّا تأخذني على محمل الجد؟» سأل بنبرةٍ حادة وأضاف: «هل أنا كوميدي؟، مهرج؟ عفريت علبة؟ (9) لِمَ عساها ألّا تفعل؟ أنتم الكريوليون! لم أغد اطيقكم! هل ستعتبروني دائمًا مشروعًا من مشاريع التسلية؟ أتمنى أن تأخذني السيدة بونتيلييه على محمل الجد. آمل أن تملك ما يكفي من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفطنة لتجد فيَّ صفةً حسنة إضافةً إلى حس الفكاهة. لو اعتقدتُ بوجود أي شك...»

«أوه، يكفي، روبرت!» اقتحم صوتها فورة غضبِهِ وأردفتْ: «أنك لا تعي ما تقول. تتحدث بقليلٍ من التفكر كما نتوقع من أحد هؤلاء الأطفال هناك الذين يلعبون في الرمال. إن أوليتَ اهتمامًا لأي امرأة متزوجة هنا بأي نية مؤكدة ظاهرة، فلن تغدُ الرجل المحترم الذي نعرفه جميعًا، ولن تكون لائقًا لرفقة الزوجات وبنات الناس الذين يثقون بك.»

وهكذا تحدثت السيدة راتينيول بما تظن أنه وفق العادات والتعاليم المسيحية. فهز الشاب كتفيهِ متململًا.

«أوه! حسنًا! ليس الأمر كذلك»، وأعاد قبعته إلى رأسِهِ بقوة: «ينبغي أن تُدركي أنّ مثل هذه الأمور لا تروق رفيقكِ»

«أيصح أن تكون كل علاقتنا عبارة عن تبادلٍ للمديح والمجاملات؟ يا إلهي!»

«ليس من اللطيف أن تخبركِ امرأة بذلك...» قال لا مباليًا، لكنه توقف بشكلٍ مباغت وقال: «طيب، لو كنتُ مثل آروبين، أتذكرين آلسي أروبين وتلك القصة مع زوجة القنصل في بيلوكسي؟» وروى قصة آلسي أروبين مع زوجة القنصل؛ وقصةً أخرى عن تينور الأوبرا الفرنسية(8) الذي تلقى رسائل ما كان من المفترض كتابتها. وتحدث عن قصص أخرى، قصص خطيرة وأخرى سعيدة حتى نسيا السيدة بونتيلييه وميلها المحتمل لأخذ الشباب على محمل الجد.

بمجرد أن عادت السيدة راتينيول إلى منزلها، دلفت لتنال قسطًا من الراحة

التي اعتبرته أمرًا مفيدًا. قبل أن يغادرها روبرت، رجاها أن تعفو عن تململهِ- الذي دعاه وقاحة- إزاء تحذيراتها التي تنطوي على نوايا حسنة. وقال بابتسامة خفيفة: «لقد ارتكبتِ خطأ واحدًا يا أديل. ليس ثمة احتمال بأن تأخذني السيدة بونتيلييه على محمل الجد. كان ينبغي أن تحذريني من أخذ نفسي على محمل الجد. لعل في نصيحتك قيمة معينة إذ أعطتني موضوعًا من أجل التفكّر إلى اللقاء. لكنكِ تبدين مرهقة!» ثم أضاف بلطف: «أتودين أن أحضر لكِ صحنًا من حساء اللحم؟ أو أمزج لكِ شراب التُّودي؟ دعيني أخلط لكِ التُّودي مع قطرةٍ من نكهة أنغوستورا.»

فوافقت السيدة راتينيول على اقتراح حساء اللحم، إذ عدّته اقتراحًا مقبولًا رائعًا. فدخل روبرت المطبخ بنفسه، وهو مبنى منفصل عن المنازل الريفية، قابع في الجزء الخلفي من المنزل. وأحضر لها بنفسهِ الحساء الأصفر في كأسٍ من الخزف الفرنسي المزخرف الرقيق، وأضاف إلى الصحن بعض البسكويت المملح الهشّ. فأخرجتْ ذراعاً بيضاء عارية من الستارة التي حجبت بابها المفتوح، وأخذتْ الكأس من يديه. وقالت لهُ بأنه «رجلٌ طيب» وقد عنتْ ذلك. فشكرها روبرت واستدار صوب «المنزل الرئيسي».

كان العاشقان يدخلان النزل لتوهما وكل واحد منهما يميل تجاه الآخر كما تنحني أشجار البلوط المائي على البحر. لم يبدُ أن هناك ذرة من الأرض تحت أقدامهما. لعل رأسيهما كان مقلوبًا رأساً على عقب، لذا بدا العاشقان وكأنهما يسيران في سماءٍ صافية بالغة الرقة بكل ما في الكلمة من معنى. تسير خلفهما السيدة ذات الرداء الأسود بخطى بطيئة. إذ بدتْ شاحبةً قليلاً ومتعبة أكثر من المعتاد. ما من أثرٍ للسيدة بونتيلييه والأطفال. تفحص روبرت المنطقة علّه يلمح طيفها. فهُم بلا ريب، سيختفون حتى تحين ساعة الغداء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صعد الشاب إلى غرفة والدته. كان يقع في أعلى المنزل، ويتألف من زوايا غريبة الشكل وسقفٍ مائل على نحوٍ عجيب تبرز منهُ نافذتان واسعتان تطلان من الخارج صوب الخليج إلى أبعد مسافة قد تصلها عين إنسان. فيما كان أثاث الغرفة بسيطًا، هادئًا وعمليًا.

كانت السيدة ليبرون مشغولة بالعمل على ماكينة الخياطة، ترافقها فتاة صغيرة سمراء جالسة على الأرض، تُشغِّل بيديها عجلة الماكينة. فالمرأة الكريولية لا تجازف بتعريض صحتها للخطر.

فقام روبرت وجلس عند عتبة إحدى النوافذ. أخرج كتابًا من جيبه وبدأ يقرأه بكل ما أوتي من تركيز، استنادا إلى الدقة والتكرار اللذين قلْب بهما الأوراق. أحدثت ماكينة الخياطة صخباً مجلجلًا في الغرفة؛ لقد كانت من النوع الثقيل عتيقة الصنع. وحين عمّ الهدوء الغرفة، تبادل روبرت ووالدته قليلًا من الأحاديث الجزافية.

«أين السيدة بونتيلييه؟»

«برفقة الأطفال عند الشاطئ»

«لقد وعدتُ بإعارتها كتابًا لغونكور(7). لا تنسَ إنزالهِ وأخذهِ عندما تخرج. إنه موجود على رف الكتب الذي فوق الطاولة الصغيرة.»

وعاد صوت جلبة الماكينة، أصوات قعقعة مستمرة ثم توقف بصوت شديد، لخمس أو ثمان دقائق قادمة.

«أين يذهب أخوك فيكتور بالحنطور؟!»

«الحنطور؟ فيكتور؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«بلى هناك أمامك في الأسفل. يبدو أنه يستعد للسفر لمكانٍ ما، نادِ عليه»

وعاد صوت الجلبة من جديد. فأطلق روبرت صفيرًا حادًا ثاقبًا لدرجة أنه لربما شمعَ عند رصيف الميناء.

«لن يلتفت» قال روبرت

فهرعت السيدة ليبرون إلى النافذة ونادت «فيكتورا» وهي تلوّح بمنديل، كررت النداء، فركب الشاب الحنطور وبدأ الحصان يعدو مسرعًا. عادت السيدة ليبرون إلى ماكينة الخياطة، وبقدر امتعاضها، استحال وجهها للون قرمزي بالكامل. كان فيكتور الابن والأخ الأصغر، مشاغبًا ذا طباع تكشف عن فَوزة روح الشباب فيه، وإرادة لا يمكن للفأس كسرها.

«متى ما تنطقي، فأنا مستعد لأبرحه ضربًا لأي سبب من الأسباب التي يملك القدرة على كبتها.»

«ليتَ أباك كان حيًا. هذا كل ما أتمناه.» وارتفع صوت الجلبة ثانيةً، قعقعة مستمرة ثم توقف! كان ثمة اعتقاد راسخ في ذهن السيدة ليبرون بأن مجريات الكون وكل ما يتعلق به كان من الواضح أنه سيكون أكثر عقلانية ونظاما لو لم يتم نقل السيد ليبرون إلى مجالات أعمال أخرى خلال السنوات الأولى من حياتهم الزوجية.

«ما أخبار مونتيل؟» تساءل روبرت.

ومونتيل هذا، رجلٌ في منتصف العمر. كان جُلّ طموحه ورغبته على مدى السنوات العشرين الماضية، هو ملء الفراغ الذي تركه السيد ليبرون في أسرته.

«عندي رسالة منه في مكان ما هنا» قالت السيدة ليبرون وبدأت تبحث في درج الماكينة حتى وجدت الرسالة قابعةً أسفل سلة القطع الفنية.

«يقول في رسالتهِ أن أبلغك أنه سيكون في فيرا كروز بداية الشهر القادم، إن كنتَ ما تزال تنوي الانضمام إليه.» قالت السيدة ليبرون وعمَّ الغرفة صوت الجلجلة ثم توقف!

«لِمَ لم تخبريني بذلك من قبل يا أمي؟ أنتِ تعرفين أنني أردتُ...» وعلا صوت الماكينة مرةً أخرى.

«هل لمحتَ السيدة بونتيلييه عائدة مع الأطفال؟ سوف تتأخر على الغداء مرة أخرى. إنها لا تبدأ بالاستعداد لتناول الغداء حتى اللحظة الأخيرة..» وارتفع صوت ماكينة الخياطة من جديد «إلى أين تذهب؟!»

«أين قلتِ قد وضعتِ غونكور؟»

---

(9) لعبة تتكون من مهرج تقفز من صندوق حالما يُفتح الغطاء

(8) التينور أو الصدّاح هو نوع من الأصوات الغنائية الرجالية، والذي يجب أن يكون أعلى الأصوات

(7). أدموند دي غونكور: كاتب فرنسي شهير، ومؤسس أكاديمية غونكور

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩

كان كل نورٍ في القاعة وهاجا. اشتعل كل قنديل بأقصى ما يمكن أن يكون دون أن يُطلق أدخنةً من المدخنة أو أن يشكل تهديدًا بأن تُحدث ضررًا في المكان. إذ كانت مثبتةً على مسافات متباعدة على الحائط لتحيط الغرفة كلها. جمع أحدهم أغصان البرتقال والليمون، وصمم بها زينةً أنيقة الشكل تمتد فيما بين المصابيح. فشعَّ اللون الأخضر الداكن من الأغصان وتألق انعكاسه على الستائر البيضاء المنسوجة من الموسلين التي انسدلت على النوافذ، وامتلأت بالهواء، ثم أخذت ترفرف بإرادة متقلّبة من أثر ريحٍ شديدة هبّت عليها من جهة الخليج. لقد كان مساء يوم السبت، بعد مرور بضعة أسابيع على ذلك الحديث الخاص الذي دار بين روبرت والسيدة راتينيول في طريقهما من الشاطئ. حين جاء عدد غير عادي من الأزواج والآباء والأصدقاء للإقامة حتى يوم الأحد، وقد استقبلتهم عوائلهم بكل حفاوةٍ وبدعمٍ ماديٍ من السيدة ليبرون. كانت موائد الطعام قد انزوث إلى طرف واحد من القاعة، وامتدتْ المقاعد في صفوف وفي مجموعات. حيث تتجمع أعضاء الأسرة للحديث وتبادل القيل والقال العائلي في أول المساء. وفي تلك اللحظة، بدا أن هناك ميلًا واضحًا للترفيه، لتوسيع دائرة الثقة وإضفاء طابعٍ أعمّ على النقاشات.

وقد شمح لكثير من الأطفال بالسهر بعد وقت نومهم المعتاد. حيث تمددت مجموعة صغيرة منهم على بطونهم على الأرض وهم ينظرون إلى الأوراق الملونة للمجلات الترفيهية التي أحضرها السيد بونتيلييه. وقد سمح طفلا السيد بونتيلييه للصغار الباقين بذلك لكي يسودونهم. كانت الموسيقا، الرقص، والقراءة، هي الوسائل الترفيهية المتوفرة، أو بالأحرى، المُتاحة.

ولكن الأمر لم يكن منظمًا، إذ ما من شيءٍ يوحي بترتيب مسبق، ولا حتى تخطيط مدروس لذلك.

في ساعة مبكرة من المساء، تمكن الحضور من إقناع التوأمان فريڤال للعزف على البيانو. كانتا فتاتين في الرابعة عشرة من العمر، ترتديان ألوانَ عذراوات دائمًا -الأزرق والأبيض- كأنهن من عرائس المسيح المباركة في معموديتهما! وهكذا، انضمتا في معزوفة ثنائية لأوبرا «زامبا»، ثم تبعتا معزوفتهما بافتتاحية أوبرا «الشاعر والفلاح» امتثالًا لطلبٍ بطريقة وديّة من كل الحاضرين.

«اخرُج من هنا! اخرُج من هنا حُبًا بالرب.» صرخ الببغاء المُعلّق عند الباب.

كان الكائن الوحيد من بين الموجودين هناك، ممن يتسم بصراحةٍ كافية ليعترف بأنه لم يكن يستمع إلى هذه العروض الرقيقة للمرة الأولى في ذلك الصيف. فغضب جدّ التوأمين، السيد فريڤال العجوز أيّما غضبة، لأن الببغاء قاطع عزف التوأمين، وأصرّ على أخذ الطائر خارجًا والتخلص منه. اعترض فيكتور ليبرون صاحبُ القرارات الحاسمة كقرارات القدر. ولحسن الحظ، لم يقاطع الببغاء الحفلة أكثر من ذلك. ففيما يبدو، كان كمن يضمُرُ بداخلهِ ضغينة، وأنه شفى غليله بالتوأمين من خلال سَوْرَة غضبه السريع ذاك.

في وقت لاحق من الأمسية، قرأ أخٌ وأختٌ -شابان- قصة كان قد سمعها الحاضرون مراتٍ عديدة خلال أمسيات الشتاء في المدينة. ثم قدمت فتاة صغيرة رقصة التنورة في مركز القاعة(10). ولعبت والدتها دورًا مساعدًا وفي الوقتِ نفسه، راقبت ابنتها بإعجابٍ مفترس وتوجُسٍ مقلق. لم يكن هناك داعٍ لقلقها. فصغيرتها كانت سيدة الموقف. كانت ترتدي ثيابا ملائمة

لهذه الأمسية. ثوبًا رماديًا من التول، وجوارب حريرية سوداء. كانت رقبتها الصغيرة وذراعاها عاريتين. أما شعرها المتموج بشكلٍ غير طبيعي، فكان مصففًا مثل خُصلٍ من الريش الأسود المنفوش فوق رأسها. كانت تتخذ وضعيات مفعمةً بالجمال. مُقدّم حذاءِ رقصها الصغير يتلألأ وهي تثبُ للأعلى بسرعة وفجائية مُذهلتين.

لم يكن ثمّة سببٌ يمنع أحدًا من الرقص. بَيدَ أن السيدة راتينيول لم تستطع. لذلك وافقت بسعادة على العزف للآخرين. وقد أبلت بلاءً حسنًا في العزف. حافظت على إيقاع رقصة الفالس على نحوٍ بديع. وبثت جوًّا في العزف بدا ملهماً بحق. كانت تواصل عزفها لأجل الأطفال، لأنها وزوجها اعتبراه وسيلة لإضفاء البهجة على البيت وجعله جميلًا.

كل من في القاعة شارك في الرقص تقريبًا باستثناء التوأمين اللتين يستحيل التسبب في تفريقهما ولو لفترةٍ وجيزة حتى عندما ينبغي أن تدور إحداهما في أنحاء القاعة بين ذراعي رجل ولربما، يتشاركان رقصةً معًا. لكنهما لم تفكرا بذلك حتى.

بعد ذلك، حان وقت نوم الأطفال، فأُرسِلوا إلى غرف نومهم. مضى بعضهم مطيعًا، بينما جُر بعضهم الآخر وهم يصرخون معترضين. فقد سُمح لهم أن يظلّوا إلى ما بعد وجبة المثلجات، مما يدلّ طبعا على حدود تساهل البشر.

قُدّمت المثلجات مع كعكٍ بلونٍ ذهبي وفضي مرتب في أطباق كبيرة على شكل قطع متناوبة. حيث قامت امرأتان من ذوي البشرة السمراء بصنعها وتجميدها في عصر ذلك اليوم في المطبخ تحت إشراف فيكتور الذي أوضح أنه كان سيكون كعكًا ممتازا لو أنه فقط احتوى على القليل من الفانيليا والمزيد من السكر، ولو أنه جُمّد لفترة أطول كي يكتسب صلابة أكثر ولو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنهم تجنبوا إضافة الملح في مرحلة من مراحل صنعه. كان فيكتور فخوراً بإنجازه، وأخذ يحث الجميع على تناولهِ أكثر من اللازم.

بعد أن رقصت السيدة بونتيليه مرتين مع زوجها، مرة مع روبرت، ومرة مع السيد راتينيول، الذي كان رجلا نحيفًا، فارع الطول، يتمايل أثناء الرقص مثل قصبة في مهب الريح، خرجت إلى الرواق وجلست عند عتبة النافذة المنخفضة، حيث تحظى بإطلالة على كل ما يجري في القاعة، وفي نفس الوقت، بإمكانها أن تنظر صوب الخليج. كان ثمّة خيطٌ رفيع يسطع من جهة المشرق، وكان القمر يبزغ بحيث تُلقي أشعتهُ الغامضة نورًا ممتدًا فوق البحر الهائج، عبر مسافاتٍ بعيدة.

«هل تودين سماع عزف الآنسة رايس؟» سأل روبرت الذي دخل الرواق حيث تجلس إدنا. وَدَّت إدنا بالطبع سماع عزف الآنسة رايس، لكنها خشيت أنه من غير المجدي طلبها.

«سأطلب منها ذلك، سأخبرها أنكِ توَدين سماع عزفها. إنها تُحبّكِ وسوف تأتي». ثم استدار مسرعًا صوب أحد المنازل البعيدة، حيث كانت الآنسة رايس تهدج في مشيتها. فقد كانت تجُر كراسي إلى غرفتها وخارجها، وتحتج أحيانًا على بكاء طفلٍ في منزلٍ مجاور تسعى مربيتهُ جاهدةً لجعلهِ ينام. كانت سيدة مكروهة، شابة إلا أنها لم تعُد صغيرة، متخاصمة مع الجميع تقريبًا بسبب طباعها التي كانت تتسم بشخصية قويةٍ مستقلة وميول لتجاهل آراء ومبادئ الآخرين. بَيدَ أن روبرت أقنعها دون أن يواجه صعوبة كبيرة.

ودخلت القاعة معه خلال فترة استراحة من الرقص. وعندما دخلت، انحنت شبه انحناءة غريبة تنمُ عن غطرسة. كانت امرأة عادية، لها وجهٌ

صغير ذابل، هيئتها وعيناها مشرقتان. لا تملك ذوقًا في الثياب على الإطلاق، إذ كانت ترتدي نوعًا من الدانتيل الأسود الذي عفا عليه الزمن، مع مجموعة من أزهار البنفسج الاصطناعي مثبتةً على جانب شعرها.

فطلبت رايس من روبرت:

«اسأل السيدة بونتيلييه عما تودُّ سماعه»

وجلست ثابتة أمام البيانو دون أن تلمس مفاتيحه، فيما حمل روبرت رسالتها إلى إدنا عند النافذة.

انتاب الجميع شعورًا عامًا بالدهشة، وباستجابةٍ صادقة، عندما رأوا عازفة البيانو تدخل. ثم ساد القاعة جوٌ من الهدوء والتوقعات. أما إدنا، فقد بدت محرجة قليلاً من الإشارة إليها لمحاباة المرأة الصغيرة المتعجرفة. فأوضحت لروبرت إنها لا تجرؤ على الاختيار، وطلبت من الآنسة رايس أن تعزف ما يروق لها.

كانت إدنا شخصية مولعةً بالموسيقا جدًا. وكان لألحان الموسيقا-المعزوفة بصورةٍ متقنة- طريقتها في إثارة تخيُلاتٍ في ذهنها. كان يروقها أحيانًا الجلوس في الغرفة في الصباحات حين تعزف السيدة راتينيول أو تتدرب على العزف. إذ عزفت تلك السيدة مقطوعةً لإدنا بعنوان «العزلة». معزوفةً ثانوية، قصيرةً وحزينة. وكان للمقطوعة اسمٌ آخر، لكنها أطلقت عليها اسم «العزلة» لأنها حين سمعت ألحانها، مَثُلث أمام مخيلتها صورة لرجل يقف بجانب صخرة مهجورة على شاطئ البحر. هيئةٌ لرجلٍ عارٍ. كان وضعه هذا بمثابةِ عزلة لا أمل منها فيما كان ينظر إلى طائر ناءٍ يحلق بعيدًا عنه. ثمة مقطوعة أخرى رسمث في ذهنها هيئة امرأة شابة لطيفة ترتدي ثوبًا عالي

الخصر، وترقص بخطواتٍ متبخترة بينما تنزل على دربٍ مشجر ممتد بين سوجٍ نباتية. ومقطوعة أخرى في وقت لاحق، ذكّرتها بأطفال يلعبون، وأخرى بلا شيء على وجه الأرض سوى بسيدةٍ محتشمة تداعب قطة.

أثارت النوتات الأولى التي بدأتها الآنسة رايس على البيانو، رعشةً حادة أسفل العمود الفقري للسيدة بونتيلييه. لم تكن المرةِ الأولى التي تسمع فيها السيدة بونتيلييه فنانًا يعزف على البيانو. قد تكون المرة الأولى التي تستعد فيها لذلك، ولعلها المرة الأولى التي يكون فيها كيانها في حالة هدوء لتتبهر بالحقيقة الراسخة.

انتظرتْ إدنا الصور الحسية التي ظنّتْ أنها ستكوّنها وتتألق في تخيلاتها. فذهب انتظارها أدراج الرياح. لم تُراودها صورٌ للعزلة أو الأمل، الشوق أو اليأس. ولكن الانفعالات نفسها كانت تُثار داخل روحها، تتأرجح فيها، وتجلدها. كما لو تتلاطم الأمواج على جسدها الرائع يومًا بعد يوم. لقد كانت ترتعش. كانت تختنق، حتى اغرورقتْ عيناها بالدموع وأعمتها.

انتهت الآنسة رايس من العزف. نهضتْ، وانحنت انحناءة عظيمة، انحناءةً تنمُّ عن نُبْل ثم غادرتْ. حتى أنها لم تتوقف لسماع الشكر ولا للتصفيق. وأثناء مرورها بالرواق ربتتْ على كتف إدنا.

«حسنًا، هل أعجبكِ عزفي؟» سألت الآنسة.

لم تتمكن السيدة الشابة من الإجابة. ضغطتْ على يد عازفة البيانو على نحوٍ متوتر. فلاحظت الآنسة رايس اضطراب إدنا، وحتى دموعها. ربتتْ مرة أخرى على كتفها وهي تقول:

«أنتِ الوحيدة التي تستحق أن أعزف لها. أما أولئك الآخرون؟ ياللهول!»

ومضت تهدج في مشيتها خارج الرواق صوب منزلها.

لكنها كانت مخطئة بشأن «أولئك الآخرون». فعزفها أصابهم بحمى العاطفة. وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث عنها:

«يا لهُ من شعورٍ جيّاش!»

«يا لها من عازفة!»

«لطالما أخبرتكم أنَّ ما من أحد يستطيع العزف لشوبان مثل الآنسة رايس!»

«تلك الافتتاحية الأخيرة! يا إلهي! إنها تزلزل مشاعر المرء!»

وبدأ الوقت يتأخر، وكان هناك نزعة واضحة للانصراف. ولكن شخصًا ما -لعلهُ روبرت- خطر على باله الاستحمام في تلك اللحظة الغامضة تحت نور القمر الساحر.

---

(10)رقصة التنورة شكل من اشكال الرقص الشعبي ينتج فيه التأثير عن طريق حركات التنانير الرشيقة، شاعت في اوروبا وامريكا في القرن التاسع عشر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في جميع الأحوال، اقترح روبرت النزول للشاطئ، ولم يُقابل بالمخالفة قط. ما من أحدٍ لم يكن مُستعدًا ليتبعه عندما يتقدم المسير. مع أنّه لم يتقدم المسير حقًا وإنّما وجْههُ فحسب، وكان هو نفسه يتسكع مع العاشِقَين اللذَين لم يُبديا ميلًا للتسكع وعزلا أنفسهما عن البقية. كان يسيرُ بينهما -سواء كان ذلك بنيّةٍ خبيثة أو شقية- إذ لم يكن ذلك واضحًا تمامًا حتى لنفسه.

سارَ آل بونتيلييه وآل راتينيول في البداية. تتكئ النساء على أذرع أزواجهن. تسمع إدنا وقع أقدام روبرت خلفهم وتسمع ما يقوله أحيانًا. وتعجبت من عدم انضمامه إليهم. إذ لم يكن ذلك من عادته. في الآونة الأخيرة، كان يظل بعيدًا عنها يومًا كاملًا، ثم يأتي ليضاعف تعلقهِ الشديد في اليوم التالي وما بعده، وكأنه يعوّض عن الساعات الضائعة. بدأت تشتاق إليه في الأيام التي كان يملك فيها الحجّة للابتعاد عنها، تمامًا كما يشتاق المرء إلى الشمس في يوم غائم دون أن يفكر كثيرًا فيها عندما تكون مشرقة. سار الناس في مجموعات صغيرة صوب الشاطئ. تحدثوا وضحكوا، وأخذ بعضهم يغني. كان ثمة فرقة تعزف في نُزُل كلاين، فتناهت الموسيقا إلى أسماعهم بصوتٍ خافت، ممزوجة ببُعد المسافة. وكانت تعمُّ الهواء روائح غريبة ونادرة، مزيج من رائحة البحر والحشائش والأرض الرطبة التي حُرثت حديثًا، المخلوطة بعبيرٍ زكي منبعث من الحقول والأزهار البيضاء في مكانٍ ما قريبٍ منهم. لكن الليل لم يرخِ سدوله كاملاً على البحر واليابسة. والعُتمة لمّا تلقِ بثقلها على المكان. في حين ألقى القمر بنورهِ الفضي على العالم كما لو أنّه أحجية، أو كخفّة الاستغراق في النوم.

مشى معظمهم في المياه كما لو أنهم على أرض مألوفة. كان البحر هادئًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة، يعلو ببطء ليصير أمواجًا عظيمة تذوب في بعضها بعضًا ولا تنكسر إلا على جرف الشاطئ في قمم رغوية صغيرة تلتف مثل ثعابين بيضاء هادئة.

حاولت إدنا تعلُّم السباحة طوال الصيف. وتلقت تعليمات من الرجال والنساء على حدٍ سواء، ومن الأطفال في بعض الأحيان. اتبع روبرت نظام الدروس بصورةٍ شبه يومية. وكان على وشك الشعور بالإحباط لإدراكه عدم جدوى جهوده. فعندما تنزل إدنا المياه، كان يتشبث بها فزعٌ لا سبيل إلى ضبطهِ ما لم تكن هناك يدٌ بالقربِ منها، يمكنها اللجوء لها، لطمأنتها.

لكنها في تلك الليلة، بدث مثل طفلةٍ صغيرةٍ قد أدركت فجأة قدراتها وبدأت تمشي لأول مرة بمفردها، وهي تهدج في مشيتها، تتعثر، وتمسك بأي شيءٍ حولها بشجاعةٍ وبكامل ثقتها. كان بإمكانها أن تصرخ فرحًا. وقد صرخث فرحًا كما لو أنها بحركة كاسحة أو اثنتين رفعت جسدها على سطح الماء.

فاستحوذ عليها شعورٌ بسعادةٍ غامرة، كما لو أنها مُنحت قدرةً لا يُستهان بها للتحكم في جسدها وروحها. لقد صارت امرأة جريئة ومتهورة تبالغ في تقدير قدرتها. أرادت أن تسبح لأبعد حد، حيث لم تصل أي امرأةٍ من قبل. كان نجاحها غير المتوقع في السباحة، موضع إعجاب وتصفيق. إذ هنا كل فردٍ منهم نفسه لأنّ تعليماته الفريدة حققت هذه الغاية المنشودة.

«كم أن ذلك سهلًا!» أخذت تفكر «إنه بغاية السهولة!» ثم أضافت بصوتٍ مسموع: «لماذا لم أكتشف ذلك من قبل؟ فكروا في الوقت الذي بددتهُ وأنا أخوض المياه مثل طفلٍ صغيرا!»

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

لم تنوِ الانضمام إلى المجموعة في رياضاتهم ولهوهم، لأنها كانت مأخوذةً بقدراتها التي تمكنث منها حديثًا. فسبحث بعيدًا لوحدها. حولت وجهها صوب البحر كي تفهم انطباعها حول المكان والعزلة الذي نقلهُ لها ذلك المدى الهائل من المياه الذي يتقاطع مع السماء المقمرة ويذوبُ فيها. ليبلغ أثره خيالها. وبينما كانت تسبح، بدت وكأنها تحاول بلوغ حدٍّ غير محدود حيث تفقد ذاتها. ثم استدارت، ونظرت نحو الساحل والناس الذين تركتهم خلفها. فهي لم تقطع مسافة كبيرة-أي تلك المسافة الشاسعة بالنسبة لسباحٍ متمرس- لكن بالنسبة لرؤيتها المرتابة، فإن شساعة المياه خلفها، اتخذت شكل العوائق التي لن تستطيع قوتها المجردة التغلب عليها أبدًا. وراودتها رؤيا خاطفة عن الموت آذث قلبها، فهالها الأمر واستبد بحواسها خلال لحظات. لكنها استجمعت قواها المدهشة بجهد كبير وتمكنت من العودة إلى اليابسة. لم تذكر أي شيء عن مواجهتها للموت ولحظة الرهبة تلك، ماعدا ما قالتهُ لزوجها: «اعتقدتُ أنني سألقى حتفي بمفردي هناك».

«لم تبتعدِ كثيراً يا عزيزتي، كنتُ أراقبكِ.» جاء رد زوجها.

فقصدتْ إدنا الحمام العمومي على الفور، ارتدت ثيابًا جافة وبدتْ على استعداد للعودة الى البيت قبل أن يغادر الآخرون الشاطئ. بدأت بالابتعاد من هناك. وراح الجميع ينادي عليها ويصيح. فلوّحت لهم بيدها تلويحةً ممانعة ومضت دون إيلاء المزيد من الاهتمام لنداءاتهم المتكررة التي سعت لإيقافها.

«أحيانًا، أميل للتفكير بأن السيدة بونتيلييه ذات مزاجٍ متقلّب» علّقتْ السيدة ليبرون، التي كانت مستمتعةً للغاية وخشيت أن رحيل إدنا المفاجئ قد يضع حداً للمتعة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«إنها كذلك..» أكَّد السيد بونتيلييه مضيفًا: «أحيانًا، وليس غالبًا»

لم تقطع إدنا ربع المسافة في طريقها إلى منزلها قبل أن يلحق بها روبرت.

«هل ظننتني خائفة؟» سألته، دون أدنى قدرٍ من الاستياء.

«لا. كنتُ موقنًا أنك لستِ بخائفة.»

«إذن لماذا أتيت؟ لِمَ لَمْ تبقَ هناك مع الآخرين؟»

«لم أفكر في الأمر»

«بماذا فكرت؟»

«لا شيء، ما الفرق الذي سيُحدثه؟»

«إني مرهقة.» نبست بنبرةٍ متشكية

«أعلمُ ذلك»

«لا تعلم شيئًا. لَمَ عساك أن تعرف؟ لم أشعر بهذا القدر من التعب في حياتي. لكنه ليس شعورًا مزعجاً. اجتاحتني آلاف الانفعالات هذه الليلة ولم أفهم نصفها. لا تبالِ بما أقول، إنّي أفكر بصوتٍ عالٍ فحسب. أتساءل فيما إذا كنتُ سأتأثر مرة أخرى كما أثر بي عزف الآنسة رايس الليلة! أتساءل إن كنتُ سأحظى بليلةٍ أخرى على هذا الكوكب، شبيهةٍ بهذه الليلة! إنها مثل ليلةٍ في حُلم! الناس حولي كأنهم كائنات نصف بشرية خارقة، لا بد من وجود أرواح هناك خارجًا في الليل»

«ثمة أرواح..» همس روبرت: «ألم تعرفي بما يحدث في الثامن والعشرين من أغسطس؟»

«الثامن والعشرون من أغسطس؟!»

«بلى. في الثامن والعشرين من أغسطس، عند منتصف الليل وعند اكتمال القمر -لا بد أن يكون القمر مكتملًا- تنهض من جهة الخليج روحًا سكنت هذه الشواطئ منذ عصور. لتبحث الروح بنظرتها الثاقبة، عن فانٍ واحد جديرٍ بصحبتها. جدير لأن يرقى لبضع ساعات إلى عوالم شبه سماوية. إلا أنّ بحثها لم يؤتِ ثمارًا. فغاصت مرةً أخرى في البحر محبطة. لكنها هذه الليلة، عثرت هذه الروح على السيدة بونتيلييه، ولعلها لن تطلق سراحها بالكامل من التعويذة. ولربما لن تعاني مرة أخرى كإنسانة ضعيفة غير جديرة، بالهيام في ظل وجودها الرائع»

«لا تمزح معي» قالت إدنا، مجروحةً بما بدا لها أنه تهكمًا منه. فهو لم يبالِ بالاستعطاف. وإنما بنبرة لهجتها المشوبة بالعواطف المثيرة للشفقة، الشبيهة بالاستياء.

«هل ستنتظرين السيد بونتيلييه هنا في الخارج؟» سأل روبرت

«نعم، تصبح على خير»

«هل أحضر لكِ وسادة؟»

«ثمّة واحدةٌ هنا» قالت إدنا وهي تتحسس ما حولها، حيث يوجد بعضٌ منها في الظلام.

«قد تكون متسخة. كان الأطفال يتشقلبون عليها.»

«لا يهم»

وبعد أن وجدت الوسادة، عدلتها لتكون تحت رأسها. ثم تمددت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرجوحة الشبكية بنفَسٍ عميق من الراحة. لم تكن امرأة متكبرة أو بارعة الجمال، لم تكن مهتمة بالاستلقاء للخلف على الأرجوحة الشبكية، وعندما فعلت ذلك، كان بدون إيحاء لوضع استراحةٍ تتعمد الإغواء فيه، بل استراحة هادئة بدث أنها تغزو جسدها كله.

«أتودّين مني البقاء معك حتى عودة السيد بونتيلييه؟» سأل روبرت، جالساً على طرف إحدى الدرجات وممسكاً بحبل الأرجوحة المثبتِ بالعمود.

«إن شئتَ. لا تؤرجح الأرجوحة. هلّا أحضرتَ الشال الأبيض الذي تركتُه على عتبة نافذة المنزل؟»

«أتشعرين بالبرد؟»

«كلا. سأشعر بذلك عما قريب»

«عما قريب؟» ضحك روبرت. «أتعرفين كم الوقت الآن؟ إلى متى ستمكثين هنا؟»

«أجهلُ ذلك. هلّا أحضرتَ الشال؟»

«بالطبع» قال ونهض. مضى إلى المنزل يسير على العشب. فراقبت جسده وهو يمّر داخل وخارج أشعة نور القمر. لقد تخطى الوقت منتصف الليل، وكان الهدوء يغُم المكان.

عندما عاد مع الشال أخذتهُ وأبقتهُ في يدها ولم تغطّ نفسها به.

«هل قلتِ أن بإمكاني البقاء حتى يعود السيد بونتيلييه؟»

«قلتُ إن كنتَ راغبًا في ذلك.»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم جلس مرة أخرى، لف لفافة تبغ، وراح يدخنها دون أن ينبس ببنت شفة، ولا حتى السيدة بونتيلييه. ما كان هناك الكثير من الكلمات التي قد تكون أكثر أهمية من لحظات الصمت تلك، أو أن تكون محملّة أكثر بأولى مشاعر الرغبة المتأججة.

عندما سمعت أصوات السبّاحين تقترب، قال لها روبرت طابت ليلتك. لم تجب عليه. لقد ظن أنها نائمة. ومرة أخرى، راقبت جسده وهو يمرّ عبر أشعة نور القمر فيما يمضي مبتعدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١١

«ما الذي تفعلينه هنا يا إدنا؟ ظننتُ أني سأجدكِ نائمة في السرير.» هذا ما قاله زوجها عندما وجدها مُمددةً هناك. كان قد عاد مشيًا مع السيدة ليبرون وتركها عند المنزل. لم ترد زوجته.

«أنتِ نائمة؟» سأل وهو ينحني ليُلقي نظرة عليها.

«كلا»

كانت عيناها تلمعان بإشراقة وحِدّة، دون أن يلقي النعاس بظلالهِ عليهما وهي تنظر إلى زوجها.

«أتعلمين أن الوقت تجاوز الواحدة بعد منتصف الليل؟ هيا تعالي» وصعد الدرج ودلِف إلى غرفتهما.

«إدنا!» صاح السيد بونتيلييه من الداخل بعد مرور بضع لحظات.

«لا تنتظرني» أجابتهُ، فأطل برأسه من خلال الباب وقال بغضبٍ بالغ: «ستبرُدين هناك، ما هذه الحماقة؟ لِمَ لا تدخلين؟»

«الجو ليس باردًا، ولدي شالي».

«سيلتهمكِ البعوض»

«لا يوجد بعوض»

فسمعته وهو يجول في الغرفة. كل خطوة منه تدل على نفاد صبرٍ وغضب. في وقتٍ سابق، كانت ستدخل بناء على طلبه. وبحكم العادة، كانت ستستسلم لرغبتِه، وذلك ليس لأي ذرةٍ من الشعور بالخضوع أو الامتثال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لرغباته المُلّحة، وإنما، على نحوٍ غافل كما نسير ونتحرك ونجلس ونقف ونمضي في مطحنة الحياة اليومية الرتيبة التي تغربلنا.

«إدنا عزيزتي، هل ستدخلين عما قريب؟» سأل مجددًا، لكن هذه المرة بنبرةِ استعطاف.

«كلا، سأبقى هنا في الخارج.»

«إنه الجنون بعينه. لا يمكنني السماح لك بالبقاء هناك طوال الليل. عليك أن تدخلي المنزل فورًا.»

وبحركات متلوّية، استقرت في الأرجوحة الشبكية بإحكامٍ أكثر. وأدركت، أنّ إرادتها قد تأججت، عنيدةً متمردة. ولم يكن في وسعها في تلك اللحظة أن تفعل شيئًا سوى الرفض والتمرد. ثم أخذت تتساءل فيما إذا كان زوجها قد تحدث إليها بهذه الطريقة من قبل، وإذا كانت قد أذعنت لأوامره. بالطبع تحدثَ إليها بهذه الطريقة، تذكرت أنها أذعنت. لكنها لم تستطع أن تُدرك لماذا وكيف توجب عليها الرضوخ. وشعرت كما شعرتْ حينها.

«ليونس اخلُد للنوم، أريد البقاء هنا. لا أرغب في الدخول، ولا أنوي ذلك. لا تكلمني هكذا مرة أخرى، لن أجيبك»

أخذ السيد بونتيلييه يستعد للنوم لكنه انسل من فراشه مرتديًا رداءً إضافيًا. فتح قنينة نبيذ احتفظ بها كمخزونٍ صغير راقٍ ووضعها في مَقْصِف خاص به. فشرب كأسا من النبيذ وخرج إلى الرواق وقدّم كأسًا لزوجته. إلا أنها لم تكن راغبة بالشرب. فسحب الكرسي الهزاز وجلس رافعًا قدميه ذات الخُفّين على درابزون الدرج، وبدأ يدخّن سيجارًا. حتى دخن سيجارين، ثم دخل وشرب كأسا آخر من النبيذ. وعندما عرض على زوجتهِ كأسًا مرةً أخرى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفضت السيدة بونتيلييه قبولَ الكأس. ومجددًا، جلس السيد بونتيلييه بأقدام مرفوعة، وبمرور الوقت، دخن المزيد من السجائر.

بدأت إدنا تشعر بأنها تصحو تدريجيًا من حُلم. حُلمٍ شهي، مُحالٌ عجيب. لتشعر مرة أخرى بالحقائق وهي تعتصر روحها. بدأت الحاجة الجسدية للنوم تتغلب عليها. إنّ الحماس الذي آزر روحها وسما بها، تركها بلا حيلة، مذعنة للظروف التي تزدحم بها.

لقد حانت الساعة الأكثر سكونًا في الليل، الساعة التي تسبق الفجر، عندما يبدو أن العالم يحبس أنفاسه. أخذ القمرُ بالأفول، وقد تحوّل لونه من الفضي إلى النحاسي في وجه السماء المفعمة بالسكينة. لم تعد البومة العجوز تنعق، وتوقفت أشجار البلوط المائي عن الأنين وهي تحني قممها فوق المياه.

نهضت إدنا، مصابةً بشدٍ عضلي من الاستلقاء لفترة طويلة في الأرجوحة الشبكية. ثم صعدت الدرج مترنحةً. تشبثت بوهن بالعامود قبل أن تدخل البيت.

«هل ستدخل يا ليونس؟» سألت، ثم التفتت نحو زوجها.

«نعم يا عزيزتي. بمجرد أن أنتهي من سيجاري»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نامت إدنا لبضع ساعاتٍ فقط، ساعاتٍ متقطعةٍ، محمومةٍ، مشحونةٍ بأحلام غامضة عجزت عن فهمها ولم تترك لها سوى انطباع في عقلها شبه الواعي عن شيءٍ لا يمكن تحقيقه. فاستيقظت وارتدت ثيابها في برد الصباح الباكر. كان الهواء منعشًا، وقد بث إلى حدٍ ما، السكينة في مَلَكتها الإدراكية. ومع ذلك، لم تكن تبحث عن الراحة أو المساعدة من أي مصدر، سواء من الخارج أو من الداخل. كانت تتبع اتباعًا أعمى، أي رغبةٍ عارمة تحركها، كما لو أنها أسلمت نفسها بأيدي غُرباء ليقوموا بإرشادها، وحررت نفسها من المسؤولية.

كان معظم الناس في تلك الساعة الباكرة ما يزالون في أسرّتهم مستغرقين في نومٍ عميق. ما عدا ثُلّة قليلة كانوا يجولون في الأنحاء ممن ينوون الذهاب الى شينير لحضور القداس. أما العاشقان اللذان وضعا خططهما في الليلة السابقة، بدأا يسيران على مهل صوب رصيف الميناء في ذلك الحين. بينما راحت السيدة ذات الرداء الأسود تتبعهما من مسافةٍ قريبة، وهي تحمل كتاب صلوات يوم الأحد ذا الغلاف المخملي والمشبوك بإبزيمٍ ذهبي اللون، ومِسبحتها الفضية الخاصة بيوم الأحد. وحتى العجوز فريقال كان مستيقظاً، وكان مستعدًا لفعل أي شيء قد يخطر على باله. فارتدى قبعته الكبيرة المصنوعة من القش، وأخذ مظلته من المشجب في الغرفة، ثم تبع السيدة ذات الرداء الأسود، وما كان ليتجاوزها قط.

كانت الصبية ذات البشرة السمراء التي تعمل على ماكينة الخياطة الخاصة بالسيدة ليبرون تكنس أرضية الرواق بالمكنسة، بحركات واسعة تَنمُّ عن ذهنٍ شارد. أرسلتها إدنا إلى المنزل لإيقاظ روبرت: «أخبريهِ أنني ذاهبة إلى شينير. القارب جاهز؛ أخبريه أن يُسرع.»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسرعان ما انضم إليها. لم تُرسل في طلبهِ من قبل البتة. لم تسأل عنهُ أبداً. ولم تبدُ قط أنها راغبةً بهِ من قبل. ولا تتذكر أنها قامت بأي شيء غير عادي لجذب انتباههِ. في المقابل، كان روبرت على ما يبدو غير مدركٍ لأيِّ وضعٍ غير عادي في هذا الأمر. لكن وجههُ اكتسى بإشراقةٍ عذبة حين رآها.

فعادا أدراجهما معًا إلى المطبخ لشرب القهوة. ما كان هناك متسعٌ من الوقت لانتظار شيءٍ من مجاملات الخدم. وقفا خارج النافذة ومرر لهم الطاهي قهوة ورغيف خبزٍ صغير، فأكلا وشربا عند عتبة النافذة. وأبدت إدنا إعجابها بالطعم. لم يكن لدى إدنا فكرة عن القهوة أو أي شيءٍ آخر. فأخبرها روبرت أنه كثيرًا ما لاحظ بأنها يعوزُها التفكّر.

«ألم يكفِك التفكير بالذهاب إلى شينير وإيقاظك؟» ضحكت.

«هل يتوجب عليّ التفكير في كل شيء؟ كما يقول ليونس عندما يكون في مزاج سيئ! لا ألومهُ، لم يكن ليحظى بمزاج سيئ لولاي»

وسلكا طريقًا مختصرًا عِبر الرمال، وعلى بعد مسافة شاهدا مسيرة غريبة تتحرك صوب رصيف الميناء: العاشقان يمضيان ببطء جنبًا إلى جنب. السيدة ذات الرداء الأسود، تلحقهما بإطراد. العجوز فريڤال يتقدم ببطء خطوةً بخطوة. وفتاة إسبانية حافية القدمين، تلّف وشاحًا أحمر اللون حول رأسها وتحمل سلة على ذراعها، تسير خلفهم.

عرف روبرت الفتاة، وأخذ يتحدث إليها قليلًا في القارب. لكن ما من أحدٍ موجود معهم فهم ما يقولانه. كان اسمها ماريكيتا، ذات وجهٍ ماكر مُدوّر حاد الملامح، وعينين سوداوين. يداها صغيرتان، وكانت تبقيهما مطويتين فوق مقبض سلتها. لها قدمان عريضتان خشنتان لم تجاهد لإخفائهما. نظرت إدنا

إلى قدميها، ولاحظت الرمل والوحل العالق بين أصابع قدميها المصفرة.

أخذ بوديليت يتذمر لأن ماريكيتا كانت هناك وتشغل مساحةً كبيرة. لكنهُ في الحقيقة، كان منزعجاً من وجود السيد فريڤال العجوز الذي يعتبر نفسه أفضل بحار بين الاثنين. غير أنه، لن يتشاجر مع رجلٍ عجوز مثل السيد فريڤال. لذلك تشاجر مع ماريكيتا. كانت الفتاة ذات سلوكيات سخيفة. تارةً تستميل روبرت، وتارةً، تقوم بحركاتٍ بذيئة. تُحرّك رأسها يمنةً ويسرة. ترنو باشتهاء إلى روبرت، وتسخر من بوديليت.

كان العاشقان لوحديهما. لم يلاحظا أو يسمعا شيئًا. فيما راحت السيدة ذات الرداء الأسود تتلو صلواتها باستخدام المِسبحة للمرة الثالثة. تحدث السيد فريڤال -دون توقف- عمّا يعرفهُ عن التعامل مع القارب، وعما يجهلهُ بوديليت عن ذلك. لقد أحبث إدنا كل شيء. وراحت تحدق بماريكيتا من أصابع قدميها المصفَرة القبيحة إلى عينيها السوداوين الجميلتين، وبالعكس.

«لِمَ تنظر إليّ هكذا؟»سألت الفتاة روبرت.

«لربما تظن أنكِ جميلة. هل أسألها عن السبب؟»

«لا. أهي حبيبتك؟»

«إنها سيدة متزوجة ولديها طفلان»

«أوه! حسنا! لقد هرب فرانسيسكو مع زوجة سيلڤانو، التي لديها أربعة أطفال. لقد سرقا مالهُ كله، وأحد أولادهِ، وقاربهِ»

«اصمتي!» قال روبرت

«هل فهِمتْ ما قلتهُ؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أوه، صمتاً!» جاء رد روبرت

«وهل هذان الاثنان-اللذان يميلان على بعض- متزوجان؟»

«طبعًا لا» أجاب روبرت ضاحكًا

«طبعًا لا» كررت ماريكيتا بإيماءة تأكيدية من رأسها.

كَبِدتْ الشمس السماء، وبدأت حرارتها في سائر الآفاق تلفح الوجوه. وبدا لإدنا أن النسيم يهبُّ هبوبًا خاطفًا ليدفن لدغات الحرارة في مسام وجهها ويديها. بينما يحمل روبرت مظلته فوقها. وفيما كانوا يقطعون المياه جانبًا، أخذ السطح المنتفخ من الأشرعة يصير مشدودًا أكثر، إذ تدفقت الرياح على الأشرعة، وفاضت بها. في حين راح السيد فريڤال يضحك ضحكة صفراء ساخرة على شيءٍ ما وهو ينظر إلى الأشرعة، أما بوديليت فكان يشتم الرجل العجوز بصوتٍ خافت. أبحرت إدنا عبر الخليج إلى جزيرة شينير كاميندادا، وشعرت كما لو أنها تؤخَذ بعيدًا عن المرسى الذي كان قد تشبث بها بكل قوة- إذ كانت سلاسلهُ آخذةً بالارتخاء- وقد انقطعت في الليلة السابقة عندما بدأت الروح الغامضة تحوم خارجًا، تاركةً لها حرية الانجراف إلى حيثما اختارت الإبحار.

تحدث روبرت إليها بلا توقف، لم يعد يلاحظ ماريكيتا. إذ كانت الفتاة تحمل روبيان- مغطى بالأشنات الإسبانية- في سلة الخيزران خاصتها، وكانت تسحق الأشنات بصبرٍ نافد وتغمغم لنفسها بتجهُّم.

«فلنذهب إلى جزيرة غراند تير غدًا؟» قال روبرت بصوت خفيض.

«وماذا عسانا أن نفعل هناك؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"نتسلق التل إلى الحصن العتيق، نلقي نظرة على الثعابين الصغيرة الذهبية المتلألئة، ونراقب السحالي وهي تتشمس"

فنظرتْ إدنا بعيدًا صوب جزيرة غراند تير. ورأتْ أنها تودُ في أن تكون هناك بمفردها مع روبرت، تحت الشمس، يُصيخان السمع إلى هدير المحيط، يشاهدان السحالي الهلامية تتلوّى بين أنقاض الحصن القديم، جيئةً وذهابًا.

«وفي اليوم التالي أو بعده، يمكننا أن نبحر إلى جدول برولوف»، تابع.

«ماذا سنفعل هناك؟»

«أي شيء. نرمي طُعمًا للأسماك»

«لا. سنعود إلى جزيرة غراند تير. دع السمك وشأنه».

«سنذهب حيثما تريدين. سأجعل توني يأتي لمساعدتي في ترميم وتشذيب قاربي ولَنْ نعود بحاجة بوديليت ولا أي شخصٍ آخر. هل تخافين من البيروغ؟»(12)

«أوه كلا»

«إذن، في إحدى الليالي، سوف أقلكِ بقارب البيروغ عندما يكون القمر مكتملًا. ولربما روحكِ الساكنة في الخليج ستهمس لكِ في أي جزيرة من هذهِ الجُزر مخبأة الكنوز ولعلها تقودكِ إلى البقعة المنشودة».

«وفي يومٍ واحد نغدو أغنياء!» ضحكتْ إدنا وأضافتْ: «سوف أمنحك الكنز كله. ذهبُ القراصنة وكل قطعةٍ من الكنز يمكننا إيجادها. أعتقد أنك تعرف كيف تنفقه! فذهبُ القراصنة ليس شيئًا صالحًا للادخار أو الاستخدام. وإنما لتبديدهِ ونثرهِ في الاتجاهات الأربع، للاستمتاع برؤية ذراتهِ الذهبية

وهي تحلق مع الريح»

«ستتقاسمهُ، ونثره سويًا» قال روبرت، واحمّر وجههُ خجلًا

وهكذا، توجه الجميع إلى كنيسة القديسة سوبيروس في لورديس(11)، مبنى صغير عتيق وجذاب، ذو طرازٍ قوطي، يلمع من كل جانبٍ بطلائه الذهبي تحت وهج الشمس. ولم يبق سوى بوديليت وراءهم، وهو يصلّح قاربه. غادرتْ مارييكيتا بسلة الروبيان خاصتها. وهي تُلقي نظرةً على روبرت بطرف عينها، نظرةً توحي بالملامة وبسخرية صبيانية سخيفة.

---

(12)البيروغ : نوع من أنواع الزوارق الشبيهة بزورق الكنو

(11)ماري برنارد سوبيروس، قديسة فرنسية، زعمت انها رأت مريم العذراء في لورديس. وتعتبر لورديس مكانا خصوصيا للزيارة ويُعتقد ان ماء الينابيع المنبعث من المغارة يمكن ان يشفي الناس إذا مرضوا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغلب على إدنا شعورٌ بالضيق والإعياء أثناء الصلاة. بدأ رأسها يؤلمها، وأخذت الأضواء على مذبح الكنيسة تتمايلُ أمام عينيها. ولعلها في غير وقت، كانت ستبذل جهدًا لاستعادة رباطة جأشها، لكن تملّكتها فكرةُ وحيدة: الانسحاب من جو الكنيسة الخانق والخروج إلى الهواء الطلق.

نهضت إدنا، وتخطت الحاضرين من بين قدمي روبرت وهي تنبس بكلمات اعتذار. أما السيد فريفال العجوز، فوقف وقد تملكهُ الفضول والحيرة، لكن، عندما رأى أن روبرت تبع السيدة بونتيلييه، عاد للجلوس. وتحدث همسًا مستفسراً بتوقٍ عن السيدة ذات الرداء الأسود، التي لم تلاحظه ولم تردّ عليه، بل أبقت عينيها مثبتتين على صفحات كتاب صلواتها ذي الغلاف المخملي.

«شعرتُ بدوارٍ كادَ يغلبني» قالت إدنا، رافعة يديها بطريقةٍ عفوية الى رأسها لترفع قبعتها القشية عن جبهتها. «لم أكن لأستطيع البقاء خلال الصلاة»

كانا يقفان خارجًا في ظل الكنيسة. أصبح روبرت في حالة قلقٍ بالغ.

«كان من الحماقة التفكير في الذهاب أصلًا، ناهيكِ عن البقاء. تعالي معي لبيت السيدة أنطوان حيث بوسعكِ أن تنالي قسطًا من الراحة» وأمسك بذراعها وقادها بعيدا. واستمر يحدق في وجهها بقلق.

كم كان الهدوء عميقًا، إذ لم يرافقهما غير هدير البحر وهو يهسهس في القصب الذي ينمو في برك المياه المالحة! وسلسلة ممتدة من البيوت الرمادية المتأثرة بالمناخ، تقبعُ بهدوء بين أشجار البرتقال. فاعتقدت إدنا، بأن هذا اليوم لا بد أن يكون يومًا خاصًا بالرب، على تلك الجزيرة الكئيبة الهادئة. فوقفا متكئين ناحية سياجٍ متهاوٍ مادتهُ تراكمات البحر، لطلب الماء. كان شاب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكادي(14) له مُحيًا لطيف، يسحب المياه من البئر الذي لا يعدو كونهُ عوامةً صدئة غائرة في الأرض، لها فمٌ على أحد جانبيها. لم يكن الماء الذي أعطاهم إياه الشاب في دلو من القصدير، باردًا بما يكفي ليحبانه، بَيدَ أن أثره كان لطيفًا على وجهها الساخن، إذ أحياها وبث النشاط فيها إلى حدٍ كبير.

يقبع كوخ السيدة أنطوان عند الطرف البعيد من القرية. وقد رحّبت بهما بكل حفاوة السكان الأصليين، كما لو فتحت بابها كي تسمح لضياء الشمس بالدخول. كانت امرأة بدينة، تسير بخطواتٍ متثاقلة خرقاء على ألواح أرضية الكوخ. لا تتكلم الإنكليزية. ولكن عندما فهمت من روبرت أن السيدة التي ترافقه متعبة وترغب في الراحة، بدتْ بغاية الحرص لأن تجعل إدنا تشعر وكأنها في بيتها وأن تتصرف فيه بكل ارتياح.

كان المكان نظيفًا برمّتهِ. السرير الكبير ذو الأعمدة الأربع، ناصع البياض، يدفع المرء إلى النوم. كان ينتصب وسط غرفةٍ جانبيةٍ صغيرة تطلُّ على قطعة أرضٍ ضيقةٍ معشوشبة تمتد إلى الحظيرة، حيث يرسو قارب عاطل تتجه عارضة قعرهِ إلى أعلى.

لم تذهب السيدة أنطوان للقُدّاس، كون ابنها طوني قد ذهب، لكنها زعمت أنه سيعود قريبًا، فدعت روبرت أن يجلس وينتظره. فجلس خارج الكوخ عند الباب واستغرق في التدخين. شغلت السيدة أنطوان نفسها في الغرفة الأمامية الكبرى لإعداد العشاء. كانت تَسلُقُ أسماك البوري على بضع جمرات متقدة في موقد ضخم.

بقيت إدنا وحدها في الغرفة الجانبية الصغيرة، خففت من ملابسها، غسلت وجهها ورقبتها وذراعيها في مغسلةٍ موضوعة بين النوافذ. ثم خلعت حذاءها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجوربيها وتمددت في منتصف السرير الأبيض العالي. يا لشعور الرفاهية الذي غمرها! أن يرتاح المرء هكذا في سريرٍ وثيرٍ غريب، مفعمٍ برائحة ريفية عذبة لأشجار الغار الجميلة التي تتخلل الملاءات والمفارش! مدّت إدنا أطرافها القوية التي آلمتها قليلاً، وراحت تمرر أصابعها عبر شعرها المفكوك لفترة من الوقت. نظرت لذراعيها الممتلئتين بينما رفعتهما إلى أعلى بشكلٍ مستقيم وأخذت تدلكهما الواحدة تلو الأخرى، تتفحصهما عن كثب، كما لو أنها ترى لأول مرة، طبيعة بشرتها الحسنة وملمسها الناعم. ثم ببساطة، شبكت يديها خلف رأسها واستسلمت للنوم على هذه الحال.

في البداية، هوّمت عينا إدنا بالنوم. كانت نصف مستيقظة ومنتبهة على نحو عابس للأشياء حولها. كان بإمكانها سماع خطى السيدة أنطوان المتثاقلة وهي تسير ذهاباً وإياباً على الأرضية المفروشة بالرمل. كان بعض الدجاج يقوقئ خارج النوافذ، يبحث عن فتات الطعام فيما بين الحصى في العشب. بعد ذلك سمعت صوت روبرت وطوني يتحدثان تحت السقيفة. لم تتحرك. حتى جفونها كانت ملتصقة بوهنٍ على عينيها الناعستين. واستمرت الأصوات. كان صوت طوني هادئًا، يتحدث بتثاقلٍ أكاديّ، فيما تحدث روبرت سريعًا، بنبرة فرنسية عذبة ساحرة. كانت تفهم الفرنسية على نحوٍ منقوص إلا إذا كانت المُخَاطَب بصورةٍ مباشرة، وكانت الأصوات مجرد جزء من الأصوات الهادئة الأخرى التي تطمئن حواسها.

عندما استيقظت إدنا كانت مقتنعة بأنها نامت بعمقٍ لفترةٍ طويلة. هدأت الأصوات تحت السقيفة، لم تعد خطوات السيدة أنطوان مسموعة في الغرفة المجاورة. حتى أصوات الدجاج، ابتعد إلى مكان آخر ليقوقئ ويبحث عن فتات الطعام. كانت ستائر السرير مسدلة على إدنا لتقيها من البعوض،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذ جاءت المرأة العجوز وأرخت الستائر أثناء نوم إدنا. فنهضت من السرير بهدوء، ونظرت بين ستائر النافذة. ورأت أشعة الشمس المائلة معلنةً عن حلول فترة ما بعد الظهر حلولًا وشيكًا للغاية. كان روبرت هناك تحت السقيفة، متكئًا في الظل أمام العارضة المائلة للمركب المقلوب. كان يقرأ من كتاب. لم يعد طوني معه وتساءلت عما حدث للآخرين. فاسترقت نظرة إليه عدة مرات وهي تغتسل في المغسلة الصغيرة بين النوافذ. كانت قد وضعت السيدة أنطوان بعض المناشف السميكة النظيفة على كرسي، كما تركت علبةً من بودرة الوجه علامة «ديريس» في متناول اليد. وضعت إدنا المسحوق على أنفها ووجنتيها بينما راحت تنظر إلى نفسها عن كثب في المرآة الصغيرة المشوشة على الجدار فوق المغسلة. كانت عيناها يقظتين تمامًا، ومشرقتين. وكان وجهها متوردًا.

عندما أنهت تبرجها، دخلت الغرفة المجاورة. لقد كانت جائعةً جدًا، وما من أحد هناك. ولكن كان ثمة غطاء مائدةٍ مفرودٍ على الطاولة قبالة الحائط، ومفرش موضوع لفردٍ واحدٍ، عليهِ رغيف خبزٍ بُنيّ مقرمش وزجاجة نبيذ بجانب الصحن. فأخذت إدنا قضمةً من الرغيف البُنيّ، وفصلتها بأسنانها البيضاء القوية. سكبت بعضًا من النبيذ في الكأس وشربته كلّه. ثم خرجت من الأبواب بكل هدوء، فقطفت برتقالة من غصنٍ متدلٍ لشجرة، وألقت بها على روبرت، الذي لم يكن يعلم أنها كانت مستيقظة.

انتشر ضياء النهار كلهُ على وجهه عندما رآها وانضم إليها تحت شجرة البرتقال.

«كم سنةً نمتُ؟» استعلمت إدنا. «يبدو أن الجزيرة بأكملها قد تغيرت. لا بد أنّ عِرقًا جديدًا من الكائنات قد ظهر، ولم يبقَ سوانا أنا وأنت كآثار من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضي. كم سنةٍ مضت على موت السيّدة أنطوان وولدها طوني؟ ومتى اختفى رفاقنا من جزيرة غراند عن الأرض؟»

فسوّى روبرت تجعيدةً ثوبها من جهة كتفها بطريقةٍ حميمية وقال:

«لقد نمتِ مائة عام بالضبط. وتركوني هنا لأحرس منامكِ. ولمائة عام ظللتُ في الخارج أقرأ كتاباً. والضرر الوحيد الذي لم أتمكن من ردعهِ هو منع الطيور المشوية من اليبوس»

«مع ذلك سآكلهُ، وإن تحول إلى حجر» قالت إدنا وهي تدخل معه إلى الكوخ»، لكن صدقًا، ماذا حل بالسيد فريڤال والآخرين؟»

«رحلوا منذ ساعات. عندما وجدوا أنكِ نائمة ظنوا أنه من الأفضل ألا يوقظوكِ. على أية حال، لم أكن لأسمح لهم بإيقاظكِ! لماذا أنا هنا إذن؟»

«أتساءل إن كان ليونس قلقًا» تكهنت وهي تجلس على الطاولة

«طبعا لا؛ يعرف أنك معي»، أجاب روبرت، أثناء انشغاله بالعديد من المقالي وغطى الأطباق التي تُرِكت على الموقد.

«أين السيدة أنطوان وابنها؟» سألت إدنا.

«ذهبا لأداء الصلوات المسائية، ولزيارة بعض الأصدقاء على ما أعتقد. سأعيدكِ في قارب طوني عندما تكونين مستعدةً للمغادرة.»

وراح يحرّكُ الرمادَ المحترق حتى بدأ صوت طشيش شواء الطيورُ المشويةُ يعود من جديد. قدم لها وجبة لا يُستهان بها، وهو يقطّر القهوة مرّة أخرى ويشاركها معها. لم تطبخ السيدة أنطوان شيئًا سوى القليل من أسماك البوري. لكن وبينما نامت إدنا، جابَ روبرت الجزيرة بحثًا عن الطعام. وبشكلٍ طفولي،

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كان من دواعي سرورهِ أن يكتشف مدى شهيتها للطعام، وأن يرى مدى متعتها وهي تأكل الطعام الذي كان قد حصل عليهِ لأجلها.

«هل يجدر بنا المغادرة على الفور؟» سألت، بعد أن أفرغت كأسها ونظفا سويةً، فتات الرغيف المقرمش.

«الشمس ليست غاربةً كما ستكون بعد ساعتين.»

«حسنا، انسَ الأمر؛ فمن يبالي!»

فانتظرا فترة طويلة تحت أشجار البرتقال حتى عادت السيدة أنطوان، وهي تلهث وتتهادى، وعلى لسانها ألف اعتذار يُفسّر غيابها. لم يجرؤ طوني على العودة. كان خجولاً، ولم يكن يرغب في مواجهة أي امرأة غير والدته.

كان أمرًا مثلجًا للصدر البقاء هناك تحت أشجار البرتقال، في حين كانت الشمس تغرب شيئًا فشيئًا وهي تُصيِّر غرب السماء للونٍ ذهبي نحاسي متوهجين. لقد طالت الظلال وتسللت مثل وحوش خفية غريبة عبر الحشائش.

جلس كلٌّ من إدنا وروبرت على الأرض، أي أنه استلقى على الأرض بجانبها، وكان يلتقط من حين لآخر، طرف ثوبها المصنوع من الموسلين.

جلست السيدة أنطوان بجسدها الضخم والمربوع على مقعد بجانب الباب. كانت تتحدث طوال فترة ما بعد الظهر، حتى ينتهي بها المطاف لذروة الحكايات.

ويا لها من قصص أخبرتهم بها! سوى أنها غادرت شينير كاميناد مرتين في حياتها، ولأقصر فترة بعد ذلك. إذ قضت جُلَّ سنواتها مقيمةً هناك، تتهادى

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

عبر الجزيرة، تجمع أساطير سكان جزيرة باراتاريا(13) والبحر. وأرخى الليل سدوله، يصحبهُ القمر لينير عتمهِ. حتى صار بوسعِ إدنا سماع الأصوات الهامسة للموتى، وطقطقة الذهب الخافت. وحين صعدتْ هي وروبرت إلى قارب طوني الذي يعلوه شراعًا مثلث الرأس أحمر اللون، أخذت أشكالًا شبحية غير جلية، تتشكلُ خلسةً خلال الظلال وبين الحشائش. فوق المياه، ثمة سفنٌ وهمية تسرع في الاختباء.

---

(14)الأكاديون: من نسل كندي-فرنسي الذين غادروا أكاديا عام 1755 وهي مستعمرة فرنسية سابقة (1713-1604) على الساحل الشمالي الشرقي لأمريكا الشمالية

(13)السكان الأصليون للباراتاريين من الجزر الباراتارية التي تقع قبالة ساحل لويزيانا شرق خليج كاميندا وجزيرة غراند.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت السيدة راتينيول أنّ الصبي الأصغر، إتيان، كان شقيًا جدًا وهي تُعطيهِ لوالدتهِ. كان غير راغب في الخلود إلى النوم وقد أثار جلبة. لكنها تولت زمام أمره، وهدأت من روعه قدر استطاعتها. فيما آوى راؤول لفراشهِ ونام لساعتين.

كان الصغير يرتدي ثوب نومٍ أبيض طويلًا جعلهُ يتعثر بينما تقودهُ السيدة راتينيول من يدهِ. بقبضة يدهِ المكتنزة الأخرى، أخذ يفرك عينيه اللتين كانتا مثقلتين بالنوم والشكاسة. حملته إدنا بين ذراعيها، وجلست على الكرسي الهزاز، وبدأت تحتضنه وتداعبهُ واصفةً إياه بكل أنواع الأسماء الرقيقة، مما خفف عنه وجعله ينام. لم يتجاوز الوقت الساعة التاسعة، ولم يَخلُد أحد للنوم سوى الأطفال.

قالت السيدة راتينيول أن ليونس كان قلقًا للغاية في البداية، وأراد أن

ينطلق في رحلةٍ على الفور إلى شينير. لكن السيد فريقال أكد له أنّ زوجته لا تشعر إلا بالنعاس والتعب، وأنّ طوني سيعيدها سالمةً في وقت لاحق من اليوم، وهكذا أقنعهُ بالعدول عن عبور الخليج. وكان قد ذهب إلى كلاين بحثًا عن سمسار قطن كان يرغب في مقابلته فيما يتعلق بالأوراق المالية أو البورصات أو الأسهم أو السندات أو شيء من هذا القبيل-لم تتذكر السيدة راتينيول ما قالهُ بالضبط وقال أنه لن يغيب لوقت متأخر. وقالت السيدة راتينيول أنها عانت شخصيًا، من ارتفاع الحرارة وضيقة الصدر. وكانت تحمل معها زجاجةً من الملح ومروحة كبيرة. ولم ترضَ البقاء مع إدنا لأن السيد راتينيول في البيت بمفردهِ، وأنّه يبغض أن يكون بمفرده أكثر من أي شيءٍ آخر.

عندما استغرق إتيان في النوم، حملته إدنا إلى الحُجرة الخلفية. رافقها روبرت لرفع ستارة السرير كي تضع الطفل في سريرِهِ دون عناء. أما المربية الخلاسية فقد اختفت. حين خرجا من الكوخ، تمنى روبرت لإدنا ليلةً سعيدة، وهَمّ بالمغادرة. فقالت له إدنا عند الوداع:

«أتعي أننا كنا معاً طوال اليوم يا روبرت؟ منذ الصباح الباكر؟»

«طوال اليوم، ما عدا المائة عام، تلك التي كُنتِ نائمةً فيها. طابتْ ليلتكِ»

ضغط على يدها، ومضى في طريقِهِ باتجاه الشاطئ. لم ينضم إلى أيٍّ من الآخرين، وإنما سار وحيدًا صوب الخليج.

بقيت إدنا خارج المنزل بانتظار عودة زوجها. لم يكن لديها أي رغبةً في النوم أو الإيواء لفراشها، كما أنها لم تشعر بالرغبة في الذهاب للجلوس مع آل راتينيول، أو الانضمام إلى السيدة ليبرون ومجموعة من الذين تناهت إليها أصواتهم وهم يخوضون الأحاديث جلوسًا قُبالة المنزل. فتركت عقلها يسرح مرةً أخرى في إقامتها في جزيرة غراند، وحاولت أن تكتشف مكمن اختلاف هذا الصيف عن أي صيف مرَّ في حياتها. فلم تستطع إلا أن تدرك أنها هي ذاتها -أي ذاتها الحالية- كانت مختلفةً بطريقةٍ ما عن ذواتها الأخرى. ذلك أنّها بدأت ترى الأمور بنظرةٍ مختلفة، وأنها كانت تحظى بمعرفة لظروف جديدة تُولَد في نفسها، لوّنت محيطها، وغيّرته. فلم تشك في الأمر بعد ذلك.

تساءلت عن سبب رحيل روبرت وتركها. لم يخطر ببالها أنه لربما سئم من التواجد معها طوال اليوم. لم تكن متعبة وشعرت أنه ليس متعبًا كذلك. لقد أسفت لرحيله. كان أمرًا أكثر من طبيعي أن تطلب منه البقاء عندما لا يستوجب عليهِ تركها تمامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبينما ظلت إدنا تنتظر زوجها، راحت تغني بصوتٍ خافث أغنيةً صغيرة غناها روبرت أثناء عبورهما الخليج يقول فيها: «آه! ليتكِ تعلمين» وكان كل مقطعٍ ينتهي بـ «ليتكِ تعلمين!»

لم يكن صوت غناء روبرت مزيفًا. بل كان صوتًا حقيقيًا رخيمًا. لدرجة أنَّ الصوت، النبرة، وهذا المقطع المتكرر في الأغنية، كلُّ ذلك استحوذ على ذاكرتها.

عندما دخلت إدنا صالة الطعام في إحدى الأمسيات متأخرةً بعض الشيء كعادتها، لاحظت أن حديثًا شيقًا على نحوٍ غير معتاد، يدور في الأنحاء. إذ راح يتحدث عدة أشخاص في وقت واحد، وكان صوت فيكتور يهيمن على أصوات البقية، حتى على صوت والدته. كانت إدنا قد عادت متأخرة من السباحة، فارتدت ملابسها بشيءٍ من العجالة، محمرّة الخدين. رأسها الذي يُزين فستانها الأبيض الجميل، كأنهُ زهرة عبقة نادرة الوجود. جلست إدنا في مقعدها على الطاولة بين السيد فريڤال العجوز والسيدة راتينيول. وما أن جلست وكانت على وشك أن تبدأ بتناول حسائها الذي قُدِّم لها عندما دخلت الغرفة، حتى أخبرها عدة أشخاص في الوقت ذاته، أن روبرت سيرحل إلى المكسيك. وضعت ملعقتها جانبًا ونظرت حولها في حيرةٍ من أمرها.

فقد كان معها، يقرأ لها طوال الصباح، ولم يذكر قط مكانًا مثل المكسيك. لم تره بعد الظهر، سمعت أحدهم يقول إنه كان في النُزُل، في الطابق العلوي مع والدته. فلم ينشغل بالها، رغم أنها فوجئت عندما لم ينضم إليها في وقت لاحق من عصرِ ذلك اليوم، وقت نزولها إلى الشاطئ.

فصوّبت نظرةً إليه، حيث جلس بجانب السيدة ليبرون، التي أشرفت على الأمسية. بدا وجه إدنا لوحة خالية من التعبير بسبب الحيرة التي لم تفكر أبدًا في إخفائها. رفع روبرت حاجبيهِ بذريعة الابتسامة وهو يردُّ لها النظرة. وبدا محرجًا ومضطربًا.

«متى سيذهب؟» وجهت سؤالها لكل الحاضرين بصفةٍ عامة، كما لو أن روبرت ليس موجودا ليرد بنفسه.

«هذهِ الليلة» أجاب أحدهم

«ما أن يحلُّ هذا المساء» قال آخر

« ألم...»

«ما الذي يدفعه لذلك؟!»

كانت هذهِ بعض الردود المنطوقة في آنٍ واحد، بالفرنسية والإنكليزية، التي التقطتها إدنا.

«مُحال!، كيف يمكن لشخص أن ينطلق برحلةٍ من جزيرة غراند إلى المكسيك دون سابق إنذار، كما لو كان ذاهبًا إلى نُزُل كلاين أو إلى رصيف الميناء أو متوجهًا إلى الشاطئ؟» هتفت إدنا.

«ذكرتُ ذلك من قبل. قلتُ إنني راحلٌ إلى المكسيك. كنتُ أردد ذلكَ منذ سنوات» صاح روبرت بنبرة يشوبها الانفعال والغضب، بمظهرِ رجُل يدافع عن نفسه أمام سربٍ من الحشرات اللاسعة. طرقت السيدة ليبرون على الطاولة بمقبض سكينها.

«من فضلكم! دعوا روبرت يفسر سبب رحيلهِ ولماذا سيرحل هذهِ الليلة» صاحت السيدة ليبرون وأضافت: «يا إلهي! تغدو هذه الطاولة مثل مصحةِ مجانين يومًا بعد يوم كلما تحدث الجميع في آنٍ واحد. أحيانًا أتمنى، حقيقةً- وليغفر الله لي ذلك- أتمنى أن يفقد فيكتور القدرة على الكلام في بعض الأحيان»

ضحك فيكتور ساخرًا وهو يشكر والدته على أمنيتها المباركة، التي فشل في رؤية أي نفعٍ منها لأحد، ماعدا منحها فرصة كافيةً ومُسوغًا للتحدث

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

بنفسها.

رأى السيد فريڤال أنه كان ينبغي أخذ فيكتور إلى منتصف المحيط فى أوائل شبابِهِ، وإغراقِهِ هناك. ورأى فيكتور أنه سيكون الأمر منطقيًا أكثر عند التخلص من كبار السن ممن يطلبون مطالب معينة تجعل منهم أناسًا بغيضين بشكلٍ عام. انفعلت السيدة ليبرون إلى حدٍ ما، فأطلق روبرت على شقيقه بعض الألقاب البذيئة ثم قال:

«ليس هناك ما أفسره يا أمي» تكلم روبرت مع أنه أخذ يفسر وهو ينظر في المقام الأول إلى إدنا، أنه لا يمكنه مقابلة السيد الذي ينوي الالتحاق بِهِ – من أجل العمل- في فيرا كروز إلا عن طريق الإبحار بباخرة كذا وكذا، التي تغادر نيو أورليانز في مثل هذا اليوم. وأن بوديليت كان سيغادر بقاربِهِ اللوغر المُحمَّل بالخضار في تلك الليلة، مما يتيح له الفرصة للوصول إلى المدينة والالتحاق بباخرتِهِ في الوقتِ المناسب.

«لكن متى قررت لفعل كل هذا؟» حاجَّهُ السيد فريڤال

«عصر هذا اليوم» أجاب روبرت بقليلٍ من الانزعاج

«في أي ساعة من العصر؟» أصر الرجل العجوز بعزيمة مُلّحة كما لو كان يستجوب مجرمًا ماثلًا في محكمة العدل.

«في الساعة الرابعة عصر هذا اليوم سيد فريڤال» أجاب روبرت بصوتٍ مسموع وبهيئةٍ متعالية مما ذكَّرَ إدنا بثُلّةٍ من السادة المتواجدين. لقد أرغمت نفسها على تناول معظم حسائها، ثم راحت تلتقط القطع الصغيرة من الحساء بالشوكة. فيما انتفع العاشقان من الأحاديث العامة التي دارت حول المكسيك ليتحدثا همسًا عن أمور لم يعتبرانها مثيرة للاهتمام لأحدٍ سواهما. أما السيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذات الرداء الأسود، فقد تلقت ذات مرة زوجًا من مسبحات الصلاة بصناعةٍ مكسيكية عجيبة، مرفق بها صك غفران مميز للغاية (16)، لكنها لم تكن قادرة على التأكد مما إذا كانت صكوك الغفران قد امتدت خارج الحدود المكسيكية.

إذ حاول الأب فوشيل من الكاتدرائية أن يفهم الأمر، لكنه لم يفعل ذلك تلبيةً لرغبتها. فتوسلت روبرت، فيما لو عناهُ الأمر أن يتحرى -عند الإمكان- ما إذا كانت مشفوعة بصك الغفران هذا المرافق لمسبحة الصلوات المكسيكية الرائعة.

وأملَتْ السيدة راتينيول أن روبرت سيتوخى الحذر الشديد في مسألة التعامل مع المكسيكيين، الذين عدتهم أناسًا ماكرين، بلا ضمير وحقودين. وكانت على ثقة بأنها لم تظلمهم في إدانتهم كعرق. كانت تعرف رجلًا مكسيكيًا معرفة شخصية، يصنع ويبيع التامال(15) بنكهةٍ شهية، وقد وثقت بهِ ثقةً عمياء، إذ كان رجلًا معسول الكلام. وفي أحد الأيام، ألقي القبض عليه لطعنهِ زوجته. ولم تعرف أبداً ما إذا كان قد شُنق أم لا. بدا فيكتور مثيرًا للضحك، إذ كان يحاول أن يروي حكايةً عن فتاة مكسيكية قدمتْ الشوكولاتة في أحد فصول الشتاء في مطعم في شارع دوفين. ولم يصغِ إليه سوى السيد فريڤال العجوز الذي تعرض لنوبةٍ من التشنجات بسبب القصة الطريفة.

فتساءلت إذنا ما إذا كان قد جُنَّ جنون الجميع، ليتحدثوا ويثيروا ضجة بهذهِ الدرجة. هي نفسها لم تكن قادرة على التفكير بقول شيء عن المكسيك أو المكسيكيين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«متى ستغادر؟» سألث روبرت

«عند العاشرة، يرغب بودليت الانتظار حتى طلوع القمر» أجابها.

«أنتَ مستعدٌ للرحيل؟»

«مستعدٌ تمامًا. سآخذ حقيبة يد فقط وأحزم حقيبتي في المدينة»

والتفتَ ليجيب على بعض الأسئلة التي طرحتها عليه والدته، فغادرت إدنا الطاولة بعد أن أنهت قهوتها السادة. وتوجهتْ إلى غرفتها مباشرةً. كان المنزل الصغير قريبًا وخانقًا بعد مغادرة الهواء الطلق في الخارج. بَيدَ أنها لم تكترث. إذ يبدو أن هناك مائة شيءٍ مختلف يتطلب اهتمامها في الداخل. فدخلت وأعادت مسند المرحاض إلى مكانه، متذمرة من إهمال المربية الخلاسية الموجودة في الغرفة المجاورة لوضع الطفلين في السرير. جمعت الملابس المتناثرة التي كانت معلقة على مساند الكراسي، ووضعت كل شيء حيث ينتمي في خزانة أو درج الدولاب. غيرت فستانها وارتدت ثيابًا واسعةً مريحة. أعادتْ ترتيب شعرها وتمشيطه وتصفيفهِ بطاقةٍ غريبة. ثم دخلت وساعدت المربية الخلاسية في جعل الولدين يخلدان إلى النوم. فقد كانا شقيين للغاية. يرغبان في الثرثرة وبالقيام بأي شيء سوى الجلوس بهدوء والخلود للنوم. أرسلت إدنا المربية لتناول عشائها وأخبرتها أنها لا تحتاج لأن تعود. ثم جلست وحكتْ للطفلين قصة أثارت نشاطهما بدلًا من تهدئتهما، وزادت من تنبههما، وتركتهما في نقاش محمومٍ وتكهناتٍ حول نهاية القصة التي وعدتْ والدتهما بإنهائها في الليلة التالية.

جاءت الخادمة السمراء الصغيرة لتقول إن السيدة ليبرون تود من السيدة بونتيلييه المجيء والانضمام إليهم في الصالة حتى يرحل السيد روبرت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأجابت إدنا بأنها كانت قد استبدلت ثيابها توًا، وأنها تشعر بأنها ليست على ما يرام، لكنها قد تنضم إليهم في وقت لاحق. فبدأت ترتدي ثيابها من جديد، ووصلت إلى حد خلع ثوبها الفضفاض. إلا أنها غيّرت رأيها مرة أخرى. أعادت ثوبها، وخرجت وجلست أمام بابها. كانت محمومةً، منفعلةً، وانخرطت تُهوّي لنفسها بكل قوة. فجاءت السيدة راتينيول لتكتشف ما الأمر.

«لا بد أن تلك الضوضاء والجلَبة على الطاولة ضايقتني. كما أنّي أبغضُ الصدمات والمفاجآت. فكرة سفر روبرت بهذه الطريقة المفاجئة والدرامية تبعث على السخرية! كما لو أنها مسألة حياة أو موت! لم يحكِ أي كلمة واحدة عن الأمر طوال الصباح عندما كان معي.»

«بلى» أكدتْ السيدة راتينيول وتابعتْ: «أظنهُ لم يكن لطيفًا معنا جميعًا، لا سيما أنتِ. لم يكن الأمر ليفاجئني لو صدر من أيّ فردٍ آخر منهم، فكل آل ليبرون ميّالون للسلوكيات المتكلفة المفاجئة. لكن لا بد لي من القول إنني لم أكن أتوقع شيئًا كهذا من روبرت. ألن تأتي؟ هيا يا عزيزتي، لن يبدو الأمر لطيفًا»

«كلا. لا أستطيع تحمل عناء ارتداء الثياب مرة أخرى. لا أشعر برغبة في ذلك» أجابت إدنا بشيءٍ من الحزن.

«لستِ بحاجة لأن ترتدي ثيابًا أخرى. تبدين رائعة، اربطي حزامًا حول خصركِ. فقط انظري إليّ!»

«لا، امضِ أنتِ. قد تشعر السيدة ليبرون بالإهانة إن لم نذهب كلينا»

قبلّت السيدة راتينيول إدنا قُبلة ما قبل النوم ومضت، كونها في الحقيقة، بدتْ تواقةً إلى حدٍ ما، للعودة إلى ذلك الحديث المفعم بالحماس الذي ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يزال جاريًا بشأن المكسيك والمكسيكيين. في وقتٍ لاحق، جاء روبرت، حاملًا حقيبته.

«ألستِ على مايرام؟» سأل روبرت

«أوه بخيرٍ كما يجب! هل ستذهب فوزًا؟»

أشعل روبرت عود ثقاب ونظر إلى ساعته وقال: «بعد عشرين دقيقة»

طوى الوهج المفاجئ القصير لعود الثقاب، الظلام لفترة من الوقت. جلس روبرت على كرسي بلا مسند أو ذراعين، تركه الولدان عند الشرفة.

«أحضِر كرسيًا» قالت إدنا

«سيفي هذا بالغرض» أجاب روبرت. وارتدى قبعته اللطيفة، ثم خلعها من جديد بتوتر. مسح وجهه بمنديلهِ، واشتكى من ارتفاع درجة الحرارة.

«تفضل المروحة» قالت إدنا وهي تعرض عليهِ المروحة.

«أوه، لا! شكراً. إنها لا تجدي نفعًا. عليكِ التوقف عن التهوية لبعض الوقت، وأن يزداد شعوركِ بعدم الارتياح بعد ذلك.»

«هذا أحد الأقوال السخيفة التي يقولها الرجال دائمًا. لم أعرف أحدا يتحدث بطريقةٍ أخرى عن التهوية. كم ستغيب؟»

«ربما إلى الأبد. لا أعرف. يعتمد الأمر على العديد من الأشياء»

«حسناً، في حال لم يكن الغياب أبديًا، كم سيطول الأمر؟»

«أجهل ذلك»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«يبدو لي هذا منافياً للعقل تمامًا، ولا مبرر له. لا يروقني كل ذلك. لا أفهم دوافعك وراء هذا الصمت وهذهِ السرّية. لم تقل لي كلمةً واحدة عن الأمر هذا الصباح»

ظل روبرت صامتًا، لا يملك للدفاع عن نفسه شيئًا. إلا أنه قال بعد لحظة: «لا تودعيني وأنتِ في حالةِ مزاجية نكدة. لم أعهدكِ نافدة الصبر مني بهذا الشكل»

«لا أريد توديعك بهذا الشكل ولكن، ألا تفهم؟ لقد اعتدتُ رؤيتك ووجودك معي طوال الوقت. تبدو تصرفاتك مجافية، حتى أنها قاسية. حتى إنك لا تقدم تبريرًا لهذا الرحيل! عجبًا! وأنا التي كنتُ أخطط لأن نكون سويًا. وأفكر كم ستكون رؤيتك مبهجةً، في المدينة في الشتاء القادم!»

«وأنا كذلك...» أفصح روبرت «لربما هكذا ا...» ثم وبشكلٍ مباغت، وقف ومدَّ يدهُ قائلًا: «وداعًا عزيزتي السيدة بونتيلييه. وداعًا. أرجو... آمل ألّا تنسيني تمامًا»، فتشبثت إدنا بيده وهي تسعى جاهدةً لإيقافه. وقالت متوسلةً:

«ستكتبُ لي عندما تصل، أليس كذلك يا روبرت؟»

«سأكتبُ لكِ. شكرًا. وداعًا»

يا لغرابة روبرت! ليس من شيمهِ كل ما يفعله. كان من الممكن أن يرُد أبعد المعارف، بكلام أكثر تأكيدًا وحرارة من مجرد «سأكتب لك، شكرًا لكِ وداعًا» لمثل هذا الطلب.

كان من الواضح أنه حيا الناس في المنزل وغادرهم بالفعل، لأنه نزل الدرجات وذهب للانضمام إلى بودليت، الذي كان واقفًا بانتظارهِ حاملًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجداف على كتفه. واكتنف الظلام الرجلين. بحيث لم تسمع إدنا سوى صوت بودليت، وعلى ما يبدو أن روبرت لم يُلقِ أي تحيةٍ على رفيقه.

عضت إدنا على منديلها بتوترٍ بالغ، وهي تسعى جاهدةً لمغالبة دموعها والاختباء حتى عن نفسها كما كانت لتختبئ عن الآخرين، وعن المشاعر التي كانت مدعاة لقلقها وحزنها. وهنا، فاضت عيناها بالدموع.

ولأول مرة أدركت علامات الهيام التي شعرت بها عندما كانت طفلة، كفتاة في أوائل مراهقتها، وبعد ذلك كامرأة شابة. لم يخفف الإدراك من الواقع، ومن حدة ما كشف عنه من تلميحٍ بتقلبات المزاج أو الوعد به. لم يكن الماضي شيئًا بالنسبة لها، لم يُلقِّنها الدرس الذي كانت مستعدةً للأخذ به. كان المستقبل بمثابةِ لغزٍ لم تحاول الولوج إليهِ أبداً. وحدهُ الحاضر كان ذا شأن بالنسبة لها؛ كان ملك يديها، ليُعذبها مثلما فعل في ذلك الوقت حين أقنعها قناعةً مريرة بأنها خسرت ما كانت متشبثةً به. وأنها انتُزِعَ منها، ما كانت تطالب به، من عاطفة مشبوبة، استيقظت فيها منذ عهدٍ قريب.

---

(16) صك الغفران هو وثيقة كانت تمنح من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مقابل مبلغ مادي يدفعه الشخص للكنيسة وتختلف قيمته باختلاف ذنوبه، بغرض الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب على الخطايا. يتم ضمان صكوك الغفران من الكنيسة بعد أن يعترف الشخص الآثم وبعد أن يتلقى الإبراء. وثمة رواية تؤكد أن البابا أوربانوس الثانى الذي توفى فى عام 1099. والمسئول عن إشعال الحرب بين الغرب والشرق تحت لواء المسيح وحماية الدين، الذي اخترع صكوك الغفران من أجل بث الحماس فى القلوب ودفع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الناس خاصة الفقراء للذهاب إلى الحروب.

(15)أكلة تتكون من لحم مفروم يعود أصلها لشعوب المكسيك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«هل تشتاقين لرفيقكِ كتيزا؟» سألت الآنسة رايس ذات صباح وهي تسير ببطء خلف إدنا، التي كانت قد غادرت منزلها توًا في طريقها إلى الشاطئ. أمضت إدنا معظم وقتها في المياه منذ أن اكتسبت أخيرا فن السباحة. وعندما اقتربت إقامتهم في جزيرة غراند من نهايتها، شعرت أنها لم تستطع إعطاء الكثير من الوقت للتسلية التي أتاحت لها اللحظات الوحيدة -المُبهجة والحقيقية- التي عرفتها. وحين صادفت الآنسة رايس التي سارت معها كتفًا بكتف، وانخرطت معها في حديث، بدا أن المرأة تردد صدى الفكر الذي كان يدور في ذهن إدنا. أو بالأحرى، الشعور الذي لطالما استحوذ عليها. إذ إن رحيل روبرت بطريقة ما، سلب البهجةَ والألوانَ والمعنى من كل شيء.

لم تتغير ظروف حياتها بأيّة طريقة، بَيدَ أن جُلّ حياتها كانت باهتة، مثل رداءٍ بالٍ لم يعد يستحق أن يُلبَس. لقد بحثت عنه في كل مكان، في وجوه الآخرين، ممن دفعتهم لإتيان ذكره. كانت تصعد في الصباح إلى غرفة السيدة ليبرون، متحدية صوت جلبة ماكينة الخياطة العتيقة. تجلس هناك، تتجاذب أطراف الحديث على فترات كما فعل روبرت. كانت تجول بنظرها في جميع أنحاء الغرفة، إلى الصور الفوتوغرافية واللوحات المعلقة على الجدار. اكتشفت في أحد الزوايا ألبومًا عائليًا قديمًا أخذت تنظر إليهِ باهتمامٍ كبير، وهي تدعو السيدة ليبرون لتعرفها بالعديد من الشخصيات والوجوه التي اكتشفتهم بين صفحات الألبوم.

كانت ثمة صورة للسيدة ليبرون مع روبرت وهو طفل رضيع، يجلس في حضنها. رضيعٌ مُدوَّر الوجه بقبضة يضعها في فمه. عينا الطفل وحدهما، توحي بعيني رجل. وتبدّى لها ذلك في صورة أخرى أيضًا، حين ظهر روبرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في سن الخامسة وهو يرتدي الكِلتية(17)، بشعرٍ متموّج طويل. يحمل سوطًا في يده، مما حمل إدنا على الضحك. وضحكث أيضًا على صورة يظهر فيها وهو يرتدي بنطاله الطويل الأول. فيما استحوذت على انتباهها صورةٌ أخرى، التقطها عندما غادر إلى الجامعة، يبدو فيها نحيفا، بوجهٍ تغلب عليهِ علامات الحزن، وعينين تقدحان بالشغف والطموح والاهداف العظيمة. لكن، ما من صورة حديثة لروبرت، لا شيء يشير لروبرت الذي رحل منذ خمسة أيام، تاركاً وراءه فراغاً وتيهًا.

«توقف روبرت عن التقاط صوره عندما اضطر لدفع ثمنها بنفسه. إذ اكتشف استخدامًا أكثر حكمة لأمواله كما يقول»

أوضحث السيدة ليبرون. وقالت بأنها تلّقث رسالةً منه، كتبها قبل أن يغادر نيو أورليانز. رغبث إدنا برؤية الرسالة، فطلبت منها السيدة ليبرون أن تبحث عنها إما على الطاولة أو في الخزانة، أو ربما على رف الموقد.

وجدث الرسالة موضوعةً على رف الكتب، وقد حظيت باهتمام إدنا البالغ. الظرف، حجمه وشكله، العلامة البريدية وخط يدهِ. تفحصت كل تفصيلٍ من تفاصيل الرسالة من الخارج قبل فتحها ولم يكن محتواها سوى سطورٍ معدودة توضح أنه سيغادر المدينة بعد ظهر ذلك اليوم، وأنه قد حزم حقائبه كما يجب وأنه بخير، وأرسل لها حبه وطلب منها -راجيًا- أن يذكره الجميع بمودة.

لم تكن ثمة رسالة خاصة موجهة إلى إدنا سوى ملاحظةً في ذيل الرسالة تقول أنه إذا رغبت السيدة بونتيلييه في إنهاء الكتاب الذي كان يقرأه لها، فستجده والدته في غرفته، بالإضافة إلى كتب أخرى على الطاولة. خامر إدنا

شعور بغيرةٍ عارمة لأن روبرت كتبَ لوالدتهِ، وليس لها.

وعلى مايبدو، أن الجميع قد سلّم جَدَلًا بأنها تشتاق إليهِ، حتى زوجها، عندما وصل نهار السبت بعد رحيل روبرت، وقد أعرب عن أسفهِ لرحيله.

«كيف تبلين بدونه يا إدنا؟»سأل السيد بونتيلييه.

«أشعر بالضجر من دونهِ» اعترفتْ إدنا.

التقى السيد بونتيلييه روبرت في المدينة. فسألته إدنا عشرات الأسئلة أو أكثر من قبيل أين التقيا؟ وكان الجواب في شارع «كاروندليت» صباحًا وقد جلسا معًا وتناولا الشراب ودخنا السيجار. وسألته عما تحدثا عنه؟ وأجاب حول مستقبلهِ وطموحاتهِ في المكسيك بشكلٍ خاص، والذي رآه السيد بونتيلييه مستقبلًا واعدًا. ثم سألت كيف كان مظهرهُ؟ كيف كان يبدو؟ عابسًا أم مبتهجًا؟ أم كيف؟ فكان جوابه أنه كان مبتهجًا للغاية، ومأخوذًا كليًا بفكرة رحلته. وقد وجدهُ السيد بونتيلييه أمرًا طبيعيًا تمامًا بالنسبة لرجلٍ شاب على وشك البحث عن ثروة والسعي وراء المغامرة في بلدٍ عجيب وغريب الأطوار.

فأخذث إدنا تحرك قدمها بصبرٍ نافد، وتساءلت عن سبب استمرار الطفلين في اللعب تحت أشعة الشمس في حين بإمكانهما اللعب تحت ظلال الأشجار. فنزلث إليهما وأبعدتهما عن الشمس، ووبّخت المربية الخلاسية لعدم إيلائها انتباهًا كافيًا لهما.

لم يصدمها الأمر -كما هو الحال في الأمور الأقل غرابة- أن عليها أن تجعل من روبرت موضوع الحديث وأن تدفع زوجها إلى التحدث عنه. فالمشاعر التي تكنُّها لروبرت تختلف عن المشاعر التي تكنُّها لزوجها، أو التي شعرت بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من قبل، أو توقعت أن تشعر بها. اعتادت طوال حياتها على إخفاء الأفكار والمشاعر، اللذين لم يفصحا عن شكليهما أبدًا ولم يسبق لهما أن اتخذا شكلًا من أشكال الصراع، لأنهما يخصانها وحدها، مُلكها هي. وقد كانت مقتنعة بأن لها حقًا فيهما وأنهما لا يعنيان أحدًا سواها. قالت إدنا ذات مرة للسيدة راتينيول أنها لن تضحي بنفسها من أجل أطفالها، أو من أجل أيٍّ كان. فتبع ذلك مشادة كلامية حامية نوعاً ما. إذ يبدو أن المرأتين لا تفهمان بعضهما بعضًا، ولا تتحدثان نفس اللغة ولا تفكران بنفس الطريقة فحاولت إدنا استرضاء صديقتها، لتُفسّر:

«سأتخلى عن كل ماهو غير جوهري. سأتخلى عن ممتلكاتي، عن حياتي من أجل أولادي، لكنني لن أتخلى عن ذاتي. لا يسعني أن أوضح الأمر أكثر من ذلك. إنه شيء بدأت استيعابة فحسب، وأخذت حقيقته تتبذى أمامي»

«أني أجهل الأمور التي يمكن أن تطلقي عليها تسمية الأمور الجوهرية، أو ما تقصدينه بغير الجوهري.» قالت السيدة راتينيول بلهجة مرحة واستطردت: «لكن المرأة التي ستضحي بحياتها من أجل أطفالها، فليس ثمة شيء أقدس من ذلك لتفعله – وهذا ما يقوله كتابكِ المقدس- أنا على يقين من أنني لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك»

«أوه بلى تستطيعين» قالت إدنا ضاحكةً. لم تستغرب سؤال الآنسة رايس في الصباح الذي تبعتها فيه تلك المرأة إلى الشاطئ، وهي تربت على كتفها وتسألها عما إذا كانت لا تفتقد رفيقها الشاب بدرجةٍ كبيرة.

«صباح الخير آنستي! أهذهِ أنت؟ بالطبع أفتقد روبرت! هل أنتِ متجهة للسباحة؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ولِمَ عساي أن أتجه للسباحة في نهاية الموسم وأنا لم أنضم قط، لركوب الأمواج طوال الصيف؟!» أجابت المرأة بأسلوبٍ غير مقبول

«أستميحكِ عذرًا» ردت إدنا، شبه محرجة. كان عليها أن تتذكرَ أن تَجنُّب الآنسة رايس للمياه، يمهد الموضوع، لقدرٍ كبيرٍ من السخريات. فقد ظن بعضهم أن ذلك بسبب شعرها المستعار، أو رعبها من بلل أزهار البنفسج الاصطناعي المثبتة إلى جانب شعرها، بينما أرجع آخرون ذلك إلى النفور الطبيعي من الماء الذي يُعتقد أحيانًا أنه يصاحب أمزجة ذوي المواهب الفنية. عرضت الآنسة على إدنا بعض الشوكولاتة في كيس ورقي أخرجتهُ من جيبها، لتظهر أنها لا تحمل أي شعور بالضغينة. فقد اعتادت على تناول الشوكولاتة لجودتها المستدامة؛ وقالت إنها تحتوي على الكثير من العناصر الغذائية في نطاق صغير، إذ أنقذوها من الجوع، لأن مائدة السيدة ليبرون كانت لا تُطاق أبدًا، ولا أحد باستثناء امرأة وقحة مثل السيدة ليبرون يمكن أن تفكر في تقديم مثل هذا الطعام للناس وتطالبهم بدفع ثمنه.

«لابد أنها تشعر بالوحدة بدون ابنها» قالت إدنا، رغبةً منها في تغيير الموضوع. «ابنها المفضل أيضًا، لا بد أنه كان صعباً عليها تركهِ يسافر».

ضحكتْ الآنسة ضحكةً خبيثة وعلقت قائلةً:

«ابنها المفضل! يا للهول! من هذا الذي خدعكِ مثل هذه الحكاية؟ إنَّ ألين ليبرون تعيش من أجل فيكتور، ولأجلِ فيكتور وحده. لقد أفسدته بالدلال للحد الذي جعل منه مخلوقًا تافهًا لا قيمة له. إنها تعبده، تُقبّل الأرض التي يمشي عليها. أما روبرت فهو شاب طيب جدًا، يمنح كل الأموال التي يمكنه كسبها للعائلة، ولا يحتفظ سوى بمبلغ زهيد لنفسه. الابن المفضل! حقًا! إني شخصيًا أفتقدُ هذا الفتى المسكين يا عزيزتي. لقد أحببتُ رؤيتهِ وسماع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صوتهِ يعلو في الأرجاء. فهو الوحيد من آل ليبرون الجدير بأن يحتفظ المرء بصحبتهِ. يأتي ليراني كثيرا في المدينة. أحب أن أعزف له. أما فيكتور هذا، فالشنق سيكون أفضل لهُ! إنه لأعجب أن روبرت لم يوسعهُ ضربًا منذ زمن بعيد!»

«أظنهُ ذا صبرٍ كبير على أخيهِ» قالت إدنا مسرورة بالحديث عن روبرت مهما قيل عنه.

«أوه! لقد ضربه ضربًا مبرحًا قبل عام أو عامين. وكان الأمر يتعلق بفتاة إسبانية، اعتبرها فيكتور أنها نوعًا من أملاكهِ. التقى روبرت ذات يوم وهو يتحدث إلى الفتاة، أو يرافقها للسير أو للسباحة أو يحمل سلتها - لا أذكر السبب بالضبط- وأخذ يشتمه ويقول له كلامًا جارحًا للغاية دفع روبرت لضربه على الفور وردهِ لرشدهِ بعض الشيء لفترةٍ لا بأس بها. وقد حان الوقت للحصول على ضربةٍ أخرى»

«أكان اسم الفتاة ماريكيتا؟»

«ماريگيتا. نعم، هذا هو اسمها. لقد غاب اسمها عن بالي. إنها فتاة سيئة وخبيثة»

نظرت إدنا إلى الآنسة رايس، واستغربث كيف تمكنث من الإصغاء لأحقادها كل هذا الوقت. ولسببٍ ما، داهمها شعورٌ بالاكتئاب، وشيءٌ من الغم. ما كانت تنوي النزول إلى المياه، لكنها ارتدث ثياب السباحة وتركت الآنسة لوحدها تجلس تحت ظل خيمة الأطفال. كانت المياه تزداد برودة مع قرب انتهاء موسم الصيف. غاصث إدنا وراحث تسبح مطلقة لنفسها العنان، مغمورة بإحساس الإثارة والحياة. بقيت تحت المياه لوقتٍ طويل، يحدوها

أملٌ بألّا تنتظرها الآنسة رايس. لكن الآنسة انتظرت. كانت ودودةً جدًا في طريق العودة، وراحت تُطري على مظهر إدنا في ثوب سباحتها. تحدثت عن الموسيقا، وتمنت أن تأتي إدنا لزيارتها في المدينة. فكتبت عنوانها بقطعةٍ صغيرة من قلم الرصاص على بطاقة وجدتها في جيبها.

«متى تغادرين؟» سألت إدنا.

«الاثنين المقبل، وأنتِ؟»

فأجابت إدنا: «الأسبوع الذي يليهِ، لقد كان صيفًا لطيفًا، أليس كذلك يا آنسة؟»

«حسنًا» وافقتها الرأي الآنسة رايس وهزت كتفيها وأكملت: «لطيفًا إلى حدٍ ما، لولا البعوض والتوأم فريفال»

---

(17). تنورة رجالية أسكتلندية من الزي الشعبي لاسكتلندا في المملكة المتحدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمتلك آل بونتيلييه منزلاً ساحراً في شارع إسبيلاند في نيو أورليانز. منزلًا منفصلًا كبيرًا، لهُ شرفةٌ أماميةٌ واسعة، تدعم أعمدتها المخدّدة المدورة، السقف المائل. كان المنزل مطليًا باللون الأبيض المبهر، المصاريع الخارجية والنوافذ، مزودة بأباجور أخضر اللون. أما الحديقة التي حافظوا على ترتيبها بكل دقة، فتحوي زهورًا ونباتات من شتى الأنواع والأصناف التي تزدهر في جنوب لويزيانا. فيما كان أثاث المنزل فاخرًا للغاية مقارنة بالأثاث التقليدي. فالأرضيات مفروشة بأجود أنواع البسط والسجاد، والستائر المعلقة على النوافذ والأبواب أنيقة للغاية. كان ثمة لوحات منتقاة بحكمةٍ وامتياز معلقةً على الجدران. فيما كان الزجاج الدمشقي الثقيل، المصقول ذو اللون الفضي، الذي يشغل مائدة الطعام، محط الأنظار وموضع حسد الكثير من النساء اللواتي كان أزواجهن أقل سخاءً من السيد بونتيلييه. فقد كان مولعًا للغاية بالتجول في أنحاء منزلِهِ، يدقق النظر في آثاثه وتفاصيله المختلفة، ليتأكد أن ما من نقص فيهِ. إذ كان يُقدِّر ممتلكاته تقديرًا كبيرًا، وذلك أساساً لأنها ممتلكاته. وكان يستمد سعادةً حقيقية من التأمل في لوحة، أو في تمثالٍ مُصغّر، أو ستارة مطرزةً تطريزًا استثنائيا -مهما كان- بعدما اشتراها ووضعها بين لوازم بيتهِ.

بعد ظهر يوم الثلاثاء، يوم حفل استقبال السيدة بونتيلييه، كان ثمة توافد مستمر للزوار، من النساء اللاتي يأتين على متن العربات أو من خلال الترام، أو ممن يأتين مشيًا عندما يكون الجو لطيفًا والمسافة معقولة.

عند الباب، ثمة صبي خلاسي ذو بشرةٍ فاتحة، يرتدي معطفًا ويحمل صينية فضية صغيرة لاستلام بطاقاتهم التعريفية، ويسمح لهم بالدخول.

وهناك خادمة ترتدي قبعة بيضاء مزخرفة، تقدم للزائرين، المشروبات الكحولية، القهوة، أو الشوكولاتة، كما يحلو لهم. أما السيدة بونتيلييه، فقد ارتدت فستاناً بغاية الأناقة خاصًا لحفلات الاستقبال، ولزمت مكانها في قاعة الاستقبال طوال فترة العصر وهي تستقبل زوارها. كان الرجال يصلون أحيانًا في المساء وينضمون لزوجاتهم.

كان هذا هو المنهاج الذي اتبعته السيدة بونتيلييه وواظبت عليهِ منذ زواجها، قبل ست سنوات. كانت تحضر هي وزوجها الأوبرا في بعض الأمسيات خلال الأسبوع. وفي أوقاتٍ أخرى، يحضران مسرحية.

يغادر السيد بونتيلييه منزله في الصباح بين الساعة التاسعة والعاشرة، ونادرًا ما يعود قبل السادسة أو السابعة والنصف في المساء، حيث يقدمون العشاء في تمام السابعة والنصف.

في مساء يوم الثلاثاء، جلس السيد بونتيلييه وزوجته الى المائدة بعد أسابيع قليلة من عودتهما من جزيرة غراند. كانا لوحدهما معًا. آوى الولدان إلى الفراش، لكن أحيانًا، كان من الممكن سماع دبيب أقدامهما العارية الهاربة، بالإضافة إلى صوت المربية الخلاسية، الذي يعلو بين معارضة واستعطاف معتدلين. لم ترتدِ السيدة بونتيلييه فستان مأدبة يوم الثلاثاء المعتاد، بل كانت ترتدي لباسًا منزليًا عاديًا. وقد لاحظها السيد بونتيلييه، إذ كان شديد الانتباه لمثل هذه الأمور، وهو يسكب الحساء ويسلمه إلى الصبي الذي ينتظره.

«أمُتعبة يا إدنا؟ من كان عندكِ؟ زائرون عديدون؟» سأل ليونس. ثم تذوق حسائه وبدأ يتبله بالفلفل والملح والخل والخردل وبأي شيءٍ في متناول يدهِ.

«عدد كبير منهم» أجابت إدنا، التي بدأت تأكل الحساء برضى واضح. «رأيت بطاقاتهم حينما وصلتُ. كنتُ خارج المنزل»

«خارج المنزل؟» نادى زوجها بصوت مدهوش، وهو يضع الخل وينظر إليها من خلال نظارته. «عجبًا، ما الذي يحملكِ على الخروج يوم الثلاثاء؟ ماذا كان عليكِ فعله؟»

«لا شيء. ببساطة شعرتُ برغبةٍ في الخروج، فخرجت»

«طيب، أتمنى لو تركتِ مسوغًا مقبولًا» قال زوجها، وقد هدأ إلى حدٍ ما، إذ أخذ يضيف القليل من مسحوق الفلفل الأحمر إلى الحساء.

«لا. لم افعل. أخبرتُ جو أن يقول بأني خرجتُ وهذا كل مافي الأمر»

«عجبًا يا عزيزتي، اعتقدتُ أنك تعرفين أن في مثل هذهِ الأيام، لا يفعل الناس مثل هذه الأشياء. علينا أن نراقب أبسط السلوكيات فيما لو أردنا المواصلة ومجاراة المجتمع. إن شعرتِ أنه يجب عليك مغادرة المنزل في نهارٍ ما، فيجدر بكِ أن تتركي تفسيرًا مناسبًا لغيابكِ»

«هذا الحساء لا يطاق حقاً! من الغريب أن تلك المرأة لم تتعلم بعد إعداد حساء لائق! أيَ كشك يُعد غداءً مجانيًا في البلدة، سيقدم طبقًا أفضل من هذا. هل كانت السيدة بيلثروب هنا؟»

«أحضر الصينية مع البطاقات يا جو. لا أتذكر من كان هنا»

انسحب الصبي وعاد بعد لحظة، حاملًا الصينية الفضية الصغيرة، التي كانت مغطاة ببطاقاتِ زيارة السيدات. ثم قدمها للسيدة بونتيلييه.

«أعطها للسيد بونتيلييه» قالت إدنا

سلّم جو الصينية للسيد بونتيلييه، وحمل الحساء. تفحّص السيد بونتيلييه أسماء الأشخاص الذين زاروا زوجته، وقرأ أسماء بعضهم بصوتٍ عالٍ متبوعًا بتعليقات وهو يقرأ: «الآنسات ديلاسيداس: لقد عقدتُ صفقة مستقبلية كبيرة لوالدهما هذا الصباح؛ فتيات لطيفات، حان الوقت لأن يتزوجن. السيدة بيلثروب: فلأخبركِ أمرًا يا إدنا، لا يسعكِ تجاهل شخصٍ مثل السيدة بيلثروب، عجبًا، بإمكان السيد بيلثروب شرائنا وبيعنا عشر مرات. إنه يجني من عملهُ أموالًا طائلة مقارنةً بي. حريٌ بكِ أن تكتبي خطابًا لها. السيدة جيمس هايكام! كلّما قلّت علاقتك بالسيدة هايكام كلّما كان أفضل. مدام لافورس: قطعت الطريق من كارلتون برمتهِ؟! يا للعجوز المسكينة! آنسة ويغز سيدة إلينور بولتون...» ثم دفع البطاقات جانبًا.

«الرحمة!» صرخث إدنا التي بدأت تستشيط غضبًا: «لماذا تأخذ الأمور على محمل الجد وتثير كل هذه الضجة حوله؟»

«إني لا أثير ضجةً حول لا شيء. أنه مجرد أمر أشبه بالمزاح الذي يجب أن نأخذه على محمل الجد. فمثل هذه الأشياء تؤخذ بالحسبان»

كان السمك محروقًا، لذلك، لن يلمسهُ السيد بونتيلييه. فيما قالت إدنا أنها لا تمانع تناول طعام محروق قليلًا. لم يكن اللحم المشوي، مشويًا كما يحبهُ، ولم تعجبه طريقة تقديم الخُضار.

«يبدو لي، أننا ننفق أموالًا كافية في هذا المنزل دون الحصول على وجبة يومية واحدةٍ على الأقل، يمكن للرجل أن يتناولها ويحتفظ باحترامه لذاته»

«اعتدتُ الاعتقاد بأن هذهِ الطاهية كنزًا» أجابت إدنا بلا مبالاة.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«لربما كانت كنزًا عندما جاءت إلينا في البداية. لكن الطهاة ليسوا سوى بشرًا. يحتاجون لمن يعتني بهم، كغيرهم ممن نقوم بتوظيفهم. لنفترض أنني لا أولي اهتمامًا بالعاملين في مكتبي، وتركتهم يديرون الأمور على هواهم فقط، سيسببون فوضى جسيمة لي ولعملي»

«أين ذاهب؟» قالت إدنا وهي ترى زوجها يترك المائدة دون أن يأكل لقمة واحدة ماعدا مقدار ضئيل من الحساء المُتبَل.

«سأخرج لتناول عشائي في النادي. طابت ليلتك» ثم دلف إلى الغرفة، أخذ قبعته وعصاه من على المشجب، وغادر البيت.

اعتادت إدنا إلى حدٍ ما، مع مثل هذه المواقف. وفي كثير من الأحيان كان ذلك سببٌ تعاستها. كانت تفقد شهيتها تمامًا لإنهاء عشائها في حالات سابقة. في أحايين أخرى، كانت تذهب إلى المطبخ لتوبيخ الطاهية توبيخًا متأخرًا.

لكنها بمجرد أن دخلت إلى غرفتها، قضت الليل بأكملِهِ وهي تتفحص كتاب الطبخ. ثم كتبت أخيرًا قائمة طعام للأسبوع القادم. مما جعلها منهكةً من الشعور بأنها-وبعد كل شيء- لم تحقق شيئًا يستحق الذكر.

ولكن في ذلك المساء أنهت إدنا عشاءها لوحدها، بتروٍّ اضطراري. كان وجهها محمرًا وعيناها تلتمعان بما يشبه البريق المنبعث من أعماقها، منيرًا إياهما. وما أن أنهت عشاءها، حتى ذهبت إلى غرفتها، بعد أن أوعزت إلى الصبي بأن يخبر أي زائرٍ آخر بأنها تمر بوعكةٍ صحية. كانت غرفتها كبيرة ورائعة، فخمة وبديعة تحت تأثير الضوء الخافت اللطيف الذي حوّلته الخادمة إلى مستوى منخفض. توجهت إدنا إلى نافذة مفتوحة وتوقفت هناك وأخذت ترنو إلى الحديقة المتشابكة عميقًا في الأسفل. وبدا كما لو

أنّ غموض الليل وسحرهِ كلهِ، قد اجتمعا هناك وسط عبير الأزهار والعتمة والمعالم المتعرجة للأزهار وأوراق الشجر.

كانت تبحث عن ذاتها وتجدها في مثل هذا الظلام الجزئي اللطيف الذي يلبي مزاجها. لكن أصواتًا لم تكن مطمئنة، تناهت إليها من الظلمة والسماء المرصعة بالنجوم فوقها. إذ لاقوها بصيحات سخرية وتحدثوا إليها بنبرةٍ محزونةٍ لا تشي بالأمل، ولا بالتوقعات. استدارت وعادت إلى الغرفة وبدأت تمشي ذهابا وإيابا على طول الغرفة دون توقف ودون أخذِ قسط من الراحة. حملت في يديها منديلًا رقيقًا، مزقته إلى شرائط، ولفته على شكل كرة، ورمتهُ بعيدًا عنها.

وسرعان ما توقفت، وخلعت خاتم زواجها، رمته على السجادة. وعندما رأته ملقى هناك، داست عليهِ بعقبها، ساعيةً إلى سحقه. لكن كعب حذائها الصغير لم يُحدث أدنى ثلمة على الخاتم، ولا حتى علامة على الحلقة الصغيرة المتألقة. وفي خضم انفعالٍ عارم، أخذت زهرية زجاجية من على الطاولة وألقتها على بلاط الموقد. أرادت أن تدمر شيئًا ما. أصوات الحطام والجلبة كانا كل ما أرادت سماعه. فدخلت الغرفة خادمةً مذعورة من جلبة الزجاج المكسور لترى ما هي الخطب.

«سقطت زهرية على الموقد، لا عليكِ، اتركي الحطام حتى الصباح»

«أووه، ولكن قد تدخل شظايا الزجاج في قدمكِ يا سيدتي»

أصرت الخادمة الشابة، فالتقطت قطعًا من الزهرية المكسورة التي تناثرت على السجادة. «وها هو خاتمكِ، سيدتي، تحت الكرسي»

مدّت إدنا يدها، أخذت الخاتم، ووضعته في إصبعها.

١٨

قُبيل مغادر السيد بونتيلييه إلى مكتبه في صباح اليوم التالي، سأل إدنا ما إذا كانت توَد زيارتهِ في المدينة لرؤية بعض الأثاث الجديد للمكتب.

«لا أعتقد أننا بحاجة إلى أثاث جديد يا ليونس. دعنا لا نشتري أي شيء جديد. أنك رجلٌ مبذر جدًا. أخالك لم تفكر أبدًا بالتوفير أو الادخار»

«الطريق نحو الثراء هي في جنيِ المال يا عزيزتي إدنا، لا أن تقومي بادخاره» قال ليونس. وأعرب عن أسفه لأنها لم تشعر برغبةٍ في الذهاب معه واختيار الأثاث الجديد. فقبلها قبلة الوداع، وأخبرها أنها لا تبدو بخير، وأنّ عليها الاعتناء بنفسها. كانت شاحبةً على غير العادة، وهادئة جدًا.

وقفت على الشرفة الأمامية أثناء مغادرته المنزل. قطعت باقةً صغيرة من أزهار الياسمين التي نمت على تعريشة بالقرب منها. وأخذت تستنشق عبير الزهرات، ثم وضعتهم في جيب ثوبها الصباحي الأبيض. كان الأولاد يجرّون عربة شحنٍ سريعة صغيرة ملأوها بقوالب البناء والعصي، على طول الرصيف. تلحقُ بهما المربية الخلاسية بخطواتٍ سريعةٍ قليلًا بعد أن اكتسبت همة زائفة وخفّة في الحركة لمثل تلك المواقف. ثمة بائع فواكه عند الشارع يصيح بصوتٍ عالٍ إعلانًا عن بضاعتهِ.

نظرت إدنا أمامها مباشرةً، يعلو وجهها تعابير امرأة نرجسيةٍ، مهووسة بنفسها. لم تكترث لأي شيء حولها. الشارع، الأطفال، بائع الفاكهة، الأزهار التي تنمو هناك أمام عينيها، كلُّ ذلك صار جزءًا لا يتجزأ من عالم غريب غدا عدائيًا على نحوٍ مفاجئ.

عادت ودخلت إلى المنزل. كانت قد فكرت في التحدث مع الطاهية بشأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخطائها في الليلة السابقة. لكن السيد بونتيلييه، وفّر على نفسها تلك المهمة البغيضة، إذ لم تكن أهلًا لها. فجدال السيد بونتيلييه مع من يعملون لحسابه، عادة ما يكون مفحمًا بالأدلة، ومقنعًا. فغادر المنزل وهو متأكد تمامًا من أنه هو وإدنا سيجلسان في ذلك المساء، وربما بضعة أمسيات لاحقة، لتناول عشاءٍ يستحق الذكر.

أمضت إدنا ساعةً أو اثنتين في تفحص بعض رسوماتها القديمة. كانت قادرة على رؤية نقائصهم وعيوبهم التي بدت جليةً لعينيها. حاولت أن ترسم قليلًا، لكنها أدركت أنها ليست في حالةٍ مزاجية تسمح بذلك. وفي النهاية، جمعت بعض الرسومات، تلك التي اعتبرتها أقلّها عيوبًا؛ وحملتهم معها بعد أن استبدلت ثيابها وغادرت المنزل. كانت تبدو مذهلة ذات مظهر مميز في ثوبها المخصص للخروج. لقد زايلت سُمرة الساحل وجهها. جبهتها بيضاء ناعمة، تلتمع تحت شعرها القمحي الغزير. كان ثمة القليل من النمش على وجهها، وشامة صغيرة داكنة بالقرب من شفتها السفلى، وشامة أخرى على صدغها، شبه محجوبةٍ بشعرها.

وبينما كانت تمشي بمحاذاة الشارع، خطر ببالها روبرت. كانت ما تزال تحت تأثير افتتانها به. حاولت أن تنساه، مدركةً أنّ لا فائدة من تذكرهِ. لكن التفكير به صار مثل الهوس، يستحوذ عليها دائمًا. ولم يكن السبب هو أنها شغلت تفكيرها بتفاصيل معرفتهما، أو أنها تذكرت شخصيته بأي طريقة خاصة أو غريبة. وإنما كان السبب الذي يهيمن على عقلها هو كيانهُ، وجودهُ، الذي يتلاشى أحيانًا كما لو أنه يتبدد في سُدُم المنسيين. ثم يحيا من جديد بقوة تغمرها بشوق غير معقول.

كانت إدنا في طريقها إلى منزل السيدة راتينيول. فعلاقتهما الوطيدة،

التي بدأت في جزيرة غراند، لم تنحسر. كانتا تزوران بعضهما بعضًا بشكلٍ متكرر منذ عودتهما الى المدينة. عاش آل راتينيول على مسافة غير بعيدة عن منزل إدنا، عند تقاطع شارع جانبي، حيث كان السيد راتينيول يمتلك ويدير متجرًا للأدوية، ويتمتع بمهنةٍ مستقرةٍ ومزدهرة. إذ انخرط والده في الأعمال التجارية قبله. لذلك وقف السيد راتينيول بثبات في المجتمع، حاملًا سمعةً يُحسَدُ عليها، لأمانتهِ وفطنتهِ. عاشت عائلته في شقق مريحة فوق المتجر، لها مدخل جانبي يقع ضمن المدخل الرئيسي التابع للمبنى. وخُيّل لإدنا أن ثمة شيء يغلب عليهِ العادات الفرنسية بشكلٍ مفرط جدًا، تقاليد بغاية الغرابة حول طريقة عيشهم بأكملها. ففي قاعة الاستقبال الواسعة الرائعة الممتدة عبر عرض المنزل، يستضيف آل راتينيول أصدقاءهم مرة كل أسبوعين لإحياء أمسية موسيقية، وأحيانًا يتحولون إلى اللعب بالورق. كانوا يعرفون صديقًا يعزف التشيلو، وثمة آخر يجلب الناي معهُ، وآخر الكمان، فيما كان بعضهم الآخر يغنون وآخرين يعزفون على البيانو بدرجاتٍ متفاوتة من الذوق وخفة الأداء. كانت الأمسيات الموسيقية لآل راتينيول معروفةً للجميع، وكان يُعتبر من دواعي سرور المرء أن يكون مدعوًا للانضمام إليهم.

وجدت إدنا صديقتها منخرطة في تنظيم الملابس التي عادت من المكوى في ذلك الصباح. عافت السيدة راتينيول عملها في الحال، ما إن رأت إدنا التي تم ارشادها إلى مكان تواجدها دون تكلف.

«بإمكان سايت أن تؤدي العمل كما أفعلهُ أنا، فهذهِ مهمتها أصلًا»

فسرت السيدة راتينيول الموقف لإدنا التي أخذت تعتذر لتعطيلها عن عملها. ثم استدعت امرأة شابة سمراء البشرة، وطلبت منها باللغة الفرنسية، أن تتوخى الحذر الشديد في التحقق من القائمة التي سلمتها لها. وطلبت

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

منها أن تتفحص -على وجه الخصوص- ما إذا كان قد أعيد منديلٌ من الكتان يعود للسيد راتينيول، كان مفقودا الأسبوع الماضي. والتأكد من وضع القطع المطلوبة للترتيق والخياطة على جنب. ثم لفّت ذراعًا حول خصر إدنا، وقادتها إلى واجهة المنزل، إلى قاعة استقبال الضيوف، حيث الجو لطيفٌ ويعبق برائحة الأزهار الفوّاحة الموضوعة على الموقد في زهريات.

بدت السيدة راتينيول باهرة الجمال أكثر من أي وقت مضى في المنزل. إذ كانت ترتدي ثوبًا فضفاضًا، تاركًا ذراعيها عاريةً بالكامل تقريبًا، وكاشفًا المنحنيات الرقيقة البهية لعُنقِها ناصع البياض.

«لعلّي أتمكن من رسمِ صورتكِ يومًا ما» قالت إدنا إبان جلوسهما. وأبرزت لفافة رسوماتها وبدأت تكشف عنهم. «أظن، أنه يجدر بي العمل عليها مرة أخرى. أشعر كما لو أنني أريد أن أعمل شيئًا. ما رأيكِ بهم؟ هل تظنين أن هذهِ الرسومات تستحق عناء المحاولة مرّةً أخرى والدراسة من جديد؟ قد أدرس لبعض الوقت مع ليبورا»

كانت تعلم أن رأي السيدة راتينول في مثل هذه المسألة سيكون عديم القيمة تقريبًا. ذلك أنها هي نفسها لم تقرر الأمر فحسب، بل عقدت العزم عليه. غير أنها جاءت التماسًا لكلمات الثناء والتشجيع التي من شأنها أن تساعدها على تأدية عملها بكل تفانٍ وإخلاص في هذا المشروع.

«موهبتكِ عظيمةٌ يا عزيزتي»

«هراء» اعترضت إدنا، مسرورةً.

«موهبتكِ عظيمة، أجزم لك» أصرّتْ السيدة راتينيول، وهي تعاين من مسافةٍ قريبة، الرسومات واحدة تلو الأخرى، ثم حملتها على مسافةِ ذراع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضيّقت عينيها، وأبعدتْ رأسها على جانب واحد وتابعت الحديث: «يقينًا. هذا الفلاح الباڤاري جديرٌ بالتأطير. وهذه السلة من التفاح! لم أرَ شيئًا كهذا من قبل! لرُبما، تنتاب المرء رغبةٌ لأن يمدّ يدهُ ويمسك بتفاحة!»

لم تستطع إدنا إلا أن يغمرها شعور بالرضا الذاتي لمديح صديقتها، حتى أنها أدركت قيمة أعمالها الحقيقية. فاحتفظت ببعض الرسومات، وأعطت كل ما تبقى للسيدة راتينيول، التي قدرتْ الهدية تقديرًا لا يُقدّرُ بثمن. وعرضت الرسومات بفخرٍ على زوجها عندما عاد من المتجر في وقت متأخرٍ قليلًا لتناول الغداء.

كان السيد راتينول أحد أولئك الذين نقول عنهم بأنهم ألطف الناس على وجه الأرض. كان مرحهُ لا يحدّهُ حدود، وكان ذلك نابعًا من طيبة قلبه، ومن إحسانه الممتد، وفطرتِهِ السليمة. كان هو وزوجته يتحدثان الإنكليزية بلكنةٍ لا يمكن تبيّنها إلا من خلال التركيز الشديد على غير الإنكليزية، ببعض الحذر والتأني. فيما كان زوج إدنا يتحدث الإنكليزية دون تقليد أي لكنةٍ مهما كانت. يفهم الزوجان راتينول بعضهما بعضًا حق الفهم. ففي هذا العالم لو حدثَ وتحقق اندماج شخصين في كائنٍ بشريٍّ واحد، فسيكون ذلك يقينًا بفضل الانسجام في حياتهما الزوجية.

عندما جلست إدنا إلى المائدة معهما، راحت تردد لنفسها حديثًا من الكتاب المقدس: «**وعاء خضار مع شخصٍ تُحبه خيرٌ من شريحة لحم مع شخص تبغضه**».

مع أنها لم تستغرق وقتًا طويلًا لتكتشف أنها لم تكن وجبةً نباتية، بل طعامًا شهيًا، ممتازًا، بسيطًا، ومُرضيًا بكل الطرق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سُر السيد راتينيول لرؤيتها، مع أنه لاحظ بأنها ليست بصحةٍ جيدة كما كانت في جزيرة غراند. فنصحها بأخذ مقوّيات. تحدث كثيرًا عن مواضيع مختلفة، عن السياسة قليلًا، بعض أخبار المدينة، وعن الشائعات التي تدور في الحي. كان يتحدث بهقةٍ وجدية، مما أولى أهمية بالغة لكل كلمة يتفوه بها. وكانت زوجته مهتمة جدا بكل ما يقوله، فوضعت شوكتها جانبًا كي تُصغي على نحو أفضل، لتُبدي ملاحظات، وكي تسبقهُ لقول ما أراد قولهِ.

اعترى إدنا شعور بالاكتئاب عوضًا عن الراحة بعد مغادرة الزوجين راتينيول. لمحات الانسجام الداخلي بين الزوجين التي كانت شاهدًا عليها، لم يمنحها أي شعورٍ بالحسرة أو الحنين. لم تكن تلك الحياة التي تناسبها، ولم يكن بإمكانها أن ترى فيها سوى ضجرًا مُريعًا لا يُطاق.

وتأثرت - كضربٍ من ضروب المواساة- لأجل السيدة راتينيول، مشفقةً على هذا الكيان الرتيب الذي لم يسمُ يومًا بشأن صاحبهِ إلى ما هو أبعد من حدود القناعة العمياء، حيث لم تزُر روحها أبدًا، لحظةً من الأسى. حيث لم تذُق أبدًا، طعم الهذيان في الحياة.

وعلى نحوٍ ملتبس، تساءلت إدنا عما قصدتهُ بـ «هذيان الحياة». لقد خطرتْ في بالها مثل فكرةٍ دخيلةٍ، جاءت من العدم.

١٩

لم يسع إدنا إلا أن تُدرك بأن سحق خاتم زواجها وتحطيم الزهرية البلورية على البلاط لم يكن سوى تصرفًا صبيانيًا بغاية الحماقة. لم تُراودها بعد ذلك أي نوبات غضب تدفعها لمثل هذه التصرفات التي لا جدوى من ورائها. فبدأت تفعل ما يحلو لها وتشعر كما تحبّ. تخلّت تمامًا عن زيارات أيام الثلاثاء في منزلها. لم تزدْ زيارات أولئك الذين زاروها. لم تبذل أي جهدٍ بالغ للاهتمام ببيتها كربّةِ منزلٍ جيدة. تذهب وتأتي كما يروق لها. تكرس نفسها لأي نزوة عابرة على قدر ما تستطيع.

كان السيد بونتيلييه زوجًا لطيفًا طالما كان يلاقي طاعةً صَفْوَتة من زوجته. بَيدَ أن سلوكها الجديد وغير المتوقع حيّره تماما. لقد صدمته. لقد أغضبهُ تجاهلها التام لواجباتها كزوجة. عندما أصبح السيد بونتيلييه وقحًا، أصبحت إدنا وقحةً. وعقدت العزم بألّا تتراجع خطوة أخرى إلى الوراء.

«يبدو لي أنه من أقصى درجات الحماقة أن تقضي امرأة، على عاتقها أسرة، وأمًا لولدين، أيامها في مرسم، بدلًا من العمل على راحة عائلتها»

«أشعر برغبة في الرسم، ربما لن أشعر بذلك دائمًا» أجابت إدنا.

«ارسمي لكن حُبًا بالرب، لا تدعي العائلة تتجه إلى الهاوية. انظري إلى السيدة راتينول، إنها تواصل اهتمامها بموسيقاها، لكنها لم تترك الفوضى تعيث في حياتها. وهي عازفة موهوبة أكثر من موهبتكِ كرسامة»

«إنها ليستْ عازفة وأنا لستُ رسامة. وليس بسبب الرسم تخليتُ عن الكثير من الأمور»

«بسبب من إذن؟»

«أوه! لا أعرف. دعني وشأني. أنك تضايقني»

في بعض الأحيان، كان يخطر ببال السيد بونتيلييه تساؤلًا فيما إذا كانت زوجته تُعاني شيئًا من الاضطرابات العقلية. كان يرى بوضوح أنها لم تكن إدنا ذاتها. أي أنه لم يتمكن من رؤية أنها تتحول إلى -هي- ذاتها، وتتجاهل كل يوم تلك الذات الخيالية التي نفترض أنها ثوبٌ نظهر به أمام العالم. فتركها زوجها وشأنها كما طلبث، واتجه إلى مكتبهِ وصعدت هي إلى مرسمها. حُجرة برّاقة في أعلى جُزءٍ من البيت.

وأخذث تعمل بنشاط واهتمام كبيرين، ولكن دون رسم شيء يُرضيها ولو قليلًا. ولفترةٍ من الوقت، جعلث كل أفراد الأسرة ينخرطون في خدمة الفن. وقف الولدان من أجلها كي تقوم برسمهما، فقد اعتقدا في البداية أنها لعبةٌ مسلّية، ولكن سرعان ما تبدد نشاطهما عندما اكتشفا أنها ليست لعبة مصممة خصيصًا لتسليتهما. فيما جلست المربية الخلاسية لساعات قُبالة لوحة إدنا،

صَبُورة كبشريٍّ بدائي. فيما أخذت الخادمة تتولى أمر الأطفال. لم يتم تنظيف غرفة الرسم، لكون الخادمة خدمت فترة عملها كعارضةٍ عندما أدركت إدنا أن ظهر وأكتاف الشابة قد قُوّلبا على الطراز الكلاسيكي. وأن خُصُلاتٍ من شعرها، هاربةً من قلنسوتها الضيّقة، أصبحث مصدر إلهام بالنسبةِ لها. وما دامث إدنا تعمل، كانت أحيانا تغني بصوت منخفض أغنية روبرت:

«آه... ليتكِ تدرين!»

واستحوذت عليها الذكريات. إذ تمكنت من سماع اضطراب الأمواج على صفحة المياه، وصوت رفرفة الأشرعة. كانت ترى نور القمر على مُطل على

الخليج، وكانت تشعر بهبّات الرياح الجنوبية الحارة الناعمة. تيارٌ خفي من الرغبة مر عِبر جسدها، أرخى قبضتها من على فراشي الرسم، وجعل عينيها تفيضان بدموعٍ حارّة.

مرّت بها أيام، شعرتْ فيها بسعادةٍ غامرة دون أن تعرف السبب. كانت سعيدة لكونها حيةً تتنفس، عندما يبدو أن كيانها برّمتهِ يصبح جزءًا واحدًا مع ضياء الشمس، الألوان، الروائح، الدفء المترف لبعض النهارات الجنوبية المثالية. كانت تحب أن تتجول وحدها في أماكن غريبةٍ وغير مألوفة. اكتشفت الكثير من الزوايا المشمسة الهادئة، صُممت لتحلم بها. ووجدت أنه من الجيد أن تحلُم وأن تكون وحيدة دون مضايقة أحد.

وكانت تمرّ عليها أيام، يداهمها حزنٌ شديد دون أن تعرف السبب. عندما لا يبدو أن الأمر يستحق أن تكون سعيدًا أو مغتمًا، أن تكون حيًا أو ميتًا. عندما تتكشفُ لها الحياة وكأنها صراخٌ مُفزع. والبشرية مثل الديدان، تكافح كالعميان صوب فناءٍ لا مناصَ منه. ولا يمكنها العمل في مثل هذا اليوم. ولا أن ترسم صورًا ذهبية تُؤجج نبضاتها وتبث الدفء في قلبها.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

في مثل هذه الحالة المزاجية، بدأت إدنا بالبحث عن الآنسة رايس. لم يغِبْ عن بالها الانطباع السيء الذي خلّفهُ لقائهما الأخير في داخلها. لكنها مع ذلك شعرت برغبةٍ في رؤيتها، ولاسيما للاستماع إليها أثناء العزف على البيانو. لذلك بدأت في رحلة البحث عن عازفة البيانو في وقت مبكر جدًا من عصر ذلك اليوم. لسوء الحظ، أضاعتْ إدنا بطاقة الآنسة رايس، أو فقدتها. فبحثت عن عنوانها في دليل المدينة، واكتشفت أن المرأة تعيش في مقاطعة بينڤيل، على بعد مسافة معينة. كان الدليل الذي وقع في يديها انقضى عليه عامٌ أو أكثر، إلا أنها، وعند الوصول إلى العنوان المشار إليه، اكتشفتْ إدنا أن المنزل كان مأهولًا من قِبل عائلةٍ محترمةٍ من الخلاسيين ممن يملكون صفوة الغرف الجميلة برسم الإيجار. وقد سكنوا هناك منذ ستة أشهر، ولم يعرفوا شيئًا عن الآنسة رايس بالمرّة. وهم في الواقع، لا يعرفون شيئًا عن أيٍّ من جيرانهم. وأكدوا لإدنا أن نزلاءهم كانوا جميعًا من أرقى طبقات المجتمع. لم تُطل إدنا البقاء لمناقشة الفوارق الطبقية مع السيدة بوبون، بل سارعت إلى متجر بقالةٍ مجاور، إذ شعرت بأن الآنسة رايس ستترك عنوانها مع المالك.

أبلغ المالك إدنا، بأنه كان يعرف الآنسة رايس أكثر بكثير مما أراد أن يعرفها. وفي الحقيقة، لم يكن راغبًا بمعرفتها على الإطلاق، ولم يرد أن يعرف أي شيء يتعلق بها. كانت أكثر امرأة ذات طباعٍ سيئة، وأكثر امرأة مكروهة عاشت في كل شارع بنيفيل من أي وقتٍ مضى. وشكر الرب أنها غادرت الحي، وكان ممتنًا بنفس القدر لأنه لم يعرف إلى أين ذهبت.

تضاعفت رغبة إدنا في رؤية الآنسة رايس أكثر منذ أن ظهرت تلك العقبات غير المتوقعة في طريقها. كانت تتساءل عمن يمكنه إعطائها المعلومات التي

تريدها، عندما خطر لها فجأة أن السيدة ليبرون هي الأكثر احتمالًا للقيام بذلك. كانت تعرف أنه لا جدوى من سؤال السيدة راتينيول، التي لم تكن على علاقةٍ وثيقة بعازفة البيانو، وفضلت ألا تعرف عنها شيئًا. لقد كانت ذات مرة على نفس القدر تقريبًا من الحزم في التعبير عما يدور بنفسها عند ذكر الآنسة رايس كما فعل بقّال الحي.

تعرف إدنا أن مدام ليبرون عادت الى المدينة لأنهم كانوا في منتصف نوفمبر. وكانت تعرف أيضاً أين يسكن آل ليبرون في شارع چارتيس. بدا منزل آل ليبرون من الخارج وكأنه سجن، بقضبان حديدية أمام الباب ونوافذ منخفضة. كانت القضبان الحديدية من مخلفات العهد القديم- حين سيطر الإسبان على أراضي نيو أورليانز- وما من أحدٍ أبدًا، فكر في استبدالها. على الجانب كان هناك سياجٌ عالٍ يحيط بالحديقة. وثمّة بوابة أو باب تُفتَح وتُغلَق من جهة الشارع. قرعت إدنا الجرس عند بوابة الحديقة الجانبية هذهِ، ووقفت على الدكّة في انتظار دخولها.

كان فيكتور من فتح البوابة لها، وكان ثمّة امرأة سمراء البشرة، تمسح يديها بمئزرها، تقف بالقُرب منه. وقبل أن تراهما إدنا، تمكنت من سماع مشادة كلامية بينهما. إذ طالبت المرأة السمراء -في مفارقةٍ واضحة- بحقها في السماح لها بأداء واجباتها، وكان أحدها هو الرد على جرس الباب.

فوجئ فيكتور وسُرّ لرؤية السيدة بونتيلييه، ولم يحاول إخفاء دهشته أو بهجته. كان شاباً حَسِنَ المظهر ذا وجهٍ يغلب عليهِ تعابير كئيبة، لهُ من العمر تسعة عشر عاماً، يشبه والدته إلى حد كبير، ولكن بعشرة أضعافِ تهورها. أمر فيكتور المرأة السمراء بالذهاب في الحال وإبلاغ السيدة ليبرون أن السيدة بونتيلييه ترغب في رؤيتها. فأخذت المرأة تتبرم لتمنُع فيكتور من قيامها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجزء من واجبها عندما لم يسمح لها بالقيام بكل شيء وحدها، وبدأت في العودة إلى مهمتها المتوقفة، المتمثلة في إزالة الأعشاب من الحديقة. وعلى إثر ذلك قام فيكتور بتوبيخها في شكل وابل من الإساءات لم تكن مفهومة بسبب سرعتها وعدم ترابطها. مما تعذر على إدنا فهمها. كان التوبيخ منطقيًا، لأن المرأة ألقت معزقتها أرضا ومضت لداخل البيت وهي تغمغم.

لم تُرد إدنا الدخول. كان المكان من جهة الرواق الجانبي يشرحُ الصدر. حيث توجدُ كراسٍ، أريكةٌ مصنوعةٌ من الخوص، وطاولةٌ صغيرة. فاتخذت إدنا لنفسها مكانًا لأنها كانت متعبة من رحلة بحثها الطويلة. أخذت تتأرجح برفق وتُسوّي طيّات مظلتها الحريرية. وضع فيكتور كرسيه بجانبها. وراح يفسر -على الفور- أن السلوك العدواني للمرأة السمراء ناجمٌ عن تدريبٍ غير متكامل، لأنه لم يكن موجودًا هنا ليتولى زمام أمرها. كان قد وصل من الجزيرة في الصباح السابق، ويتوقع عودتهِ في اليوم التالي. فهو يمكث طوال الشتاء في الجزيرة. كان يعيش في المنتجع، ليحافظ على نظام المكان ويجهزهُ لزوّار الصيف.

لكن المرء بحاجة إلى الراحة في بعض الأحيان، كما أخبر السيدة بونتيلييه. فأصبح يبحث عن الذرائع للمجيء إلى المدينة بين الحين والآخر. غير أنه قضى وقتًا في المساء السابق! لم يكن راغبًا أن تعرف والدته، فأخذ يتحدث همسًا. كانت ملامحهُ تفيض بالذكريات. لم يخطر في بالهِ إخبار السيدة بونتيلييه بكل شيء كما هو متوقع، فهي امرأة ولن تستوعب مثل هذه الأشياء.

لكن كل شيء بدأ مع فتاة كانت تسترق النظر إليهِ وتبتسم له من بين دُرفات النوافذ أثناء مرورهِ، أوه! كانت رائعة الجمال. وبطبيعة الحال، ابتسم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها في المقابل، ومضى وتحدث معها. لم تكن السيدة بونتيلييه لتعرفه في حال ظنها بأنه شخص لا ينتهزُ فرصًا كهذهِ.

وبالرغم عنها، سلّاها الشاب. لا بد أن نظرتها كشفت عن شيءٍ من الاهتمام أو المتعة. ازدادت جرأة الصبي أكثر. ولربما وجدت السيدة بونتيلييه نفسها، تستمع إلى قصة مبالغ فيها لبعض الوقت لولا ظهور السيدة ليبرون في الوقت المناسب.

كانت تلك السيدة ما تزال ترتدي اللون الأبيض، وفقاً لعاداتها في الصيف. كانت عيناها تشعُ بترحيبٍ غامر. ألن تدخل السيدة بونتيلييه؟ هل ستتناول بعض المرطبات؟ لماذا لم تأتِ إليها من قبل؟ كيف حال السيد بونتيلييه العزيز وكيف حال الطفلين الرائعين؟ هل شعرت السيدة بونتيلييه بدفءِ شهر نوفمبر كهذا الدفء من قبل؟

ذهب فيكتور وتمدد على الأريكة المصنوعة من الخوص خلف كرسي والدته، حيث يحظى برؤية واضحة لوجه إدنا بعد أن أخذ المظلة من يديها حين كان يتحدث إليها، ثم رفعها وبرمها فوقه وهو مستلقٍ على ظهره. عندها، أخذت السيدة ليبرون تشكو من عودتها إلى المدينة كونه بدا أمرًا مملاً جداً لدرجة أنها رأت القليل من الناس حتى هذه اللحظة! وأنه حتى فيكتور، عندما عاد من الجزيرة لمدة يوم أو يومين، لم ترَه كما يجب لكثرة انشغالاته. فأخذ الشاب يتحرك متوترًا في الأريكة، ثم غمز لإدنا على نحوٍ بغيض، جعلها تشعر وكأنها متحالفة معهُ في الجريمة بطريقةٍ ما. حاولت إدنا أن تبدو صارمة وغير راضية.

أخبروها أن روبرت لم يبعث سوى رسالتين، مختصرتين. وعندما طلبت السيدة ليبرون من فيكتور الذهاب لداخل المنزل والبحث عن الرسالتين قال

أنه ليس بالأمر الذي يستحق وهو يتوجه إلى الداخل. ثم تذكر مضمونها وأخذ يردده عفويًا عندما وُضع على المحك.

كتبَ روبرت رسالة واحدة من فيرا كروز والأخرى من المكسيك. كان قد التقى مونتيل، الذي يقوم بكل ما في وسعه من أجل ترقيتهِ في العمل. وحتى الآن لم يتحسن الوضع المالي مقارنة بالوضع الذي تركه في نيو أورليانز، ولكن التوقعات كانت بطبيعة الحال أفضل إلى حد كبير. كتب عن مدينة المكسيك، المباني، الناس وعاداتهم، ظروف الحياة التي وجدها هناك. نقلَ حبه للعائلة. وصرف شيكاً لوالدته، وأعرب عن أمله في أن يتذكرهُ جميع أصدقائه بكل مودة. كان ذلك كل شيءٍ عن مضمون الرسالتين. أيقنت إدنا أنهُ لو كتبَ لها خطابًا، لكانت قد تلقتهُ. فغادرتْ منزل آل ليبرون بحالةٍ مزاجية بائسةٍ بدأت تستبد بها من جديد.

وتذكرت أنها ترغب في العثور على الآنسة رايس.

عرفت السيدة ليبرون أين تعيش الآنسة رايس. وأعطت إدنا العنوان، معربة عن أسفها لأنها لم توافق على البقاء وقضاء ما تبقى من فترة المساء معهم وزيارة الآنسة رايس في يوم آخر. إلا أن المساء كان يزحف بشكلٍ ملحوظ.

رافقها فيكتور إلى الخارج عند الدكة، ورفع مظلتها، وأمسكها وهو يتجه معها إلى العربة. وناشدها أن تضع في اعتبارها أن المعلومات التي أفشاها لها بعد الظهر كانت سرية للغاية. فضحكتْ وأخذتْ تمازحهُ قليلًا، متذكرةً بعد فوات الأوان أنه كان يجدر بها أن تظل محترمة ومتحفظة.

«كم بدت السيدة بونتيلييه جميلة!» قالت السيدة ليبرون لولدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«فاتنة، لقد لاءمها جو المدينة. بطريقة ما، لا تبدو وكأنها نفس المرأة التي عرفناها في جزيرة غراند» أقرّ فيكتور.

أدّعى مجموعة من الناس أن السبب وراء اختيار الآنسة رايس لشقق في أعلى طابق من البناية تحت السقف مباشرة، هو لثني المتسولين والباعة المتجولين والزائرين عن الاقتراب من بابها. كان هناك نوافذ عديدة في صالة استقبال الضيوف الصغيرة. وكانت معظمها مغبرة، ولكن لأنها كانت مفتوحةً على الدوام تقريبًا، لم يُحدث ذلك فرقٌ كبير. فكثيرا ما ينفذ إلى الغرفة، قدر كبير من الدخان والسناج من خلالها. ولكن في الوقت نفسهِ، يعبر من خلالها الضوء والهواء بشكلٍ كافٍ، ويمكن رؤية الهلال المُطلّ على النهر، وسواري السفن والمداخن الكبيرة من بواخر المسيسيبي. كان في الشقة بيانو فخم. وكانت الآنسة رايس تنام في الغرفة المجاورة، فيما كانت تملك في الغرفة الثالثة والأخيرة، موقد بنزين تطهو عليه وجباتها عندما لا ترغب في النزول إلى المطعم المجاور. وهناك أيضًا تأكل، وتحتفظ بأغراضها في خزنةٍ عتيقة خاصةٍ وبالية من سنوات الاستخدام الطويلة.

حين قرعت إدنا باب الغرفة الأمامي للآنسة رايس ودخلت، وجدت المرأة الشابة تقف بجانب النافذة، منخرطةً في إصلاح أو ترقيع جرموق برونيلا قديم (19). فملأت الابتسامة وجه العازفة الشابة عندما رأت إدنا بحيث تسببت بالتواء قَسَمَات وجهها وكل عضلات جسدها. بدت طبيعيةً على نحوٍ لافت للنظر، واقفة هناك في ضياء النهار. كانت ما تزال ترتدي فستانها المنسوج بالدانتيل الرثّ ذاته، وتضع باقة البنفسج الاصطناعي على جانب رأسها.

«إذن، وأخيرًا تذكرتِني. قلتُ لنفسي أنكِ لن تأتي أبدًا»

«هل أردتِني أن آتي؟» سألت إدنا بابتسامة.

«لم أفكّر بالموضوع كثيرًا»

وجلست المرأتان على أريكةٍ غير مستويةٍ تستند إلى جدار «على أيّة حال، سعيدةٌ بقدومكِ. إنّ الماء يغلي، إذ كنتُ على وشك صنع القهوة. ستشربين فنجانًا معي. كيف حال السيدة الجميلة؟ إنكِ فاتنة دائمًا! تتمتعين بمظهرٍ مشرق دائمًا! ودائمًا ما تبدين مرتاحة»

وتلقفتْ يد إدنا بين أصابعها النحيفة القوية، ممسكة بها بقبضةٍ متراخية، وكأنها تعزف ما يشبهُ فكرةً موسيقية مزدوجة على ظهر اليد وراحتها. ثم تابعت قائلة:

«نعم. كنتُ أفكر أحيانا: **‹لن تأتي إدنا أبدًا. لقد وعدتِ بالمجيء كما يفعلن تلك النسوة في هذا المجتمع على الدوام، دون أن تفي إحداهن بوعدها. لذلك لن تأتي السيدة بونتيلييه›**. لأنّي حقًا لا أخالكِ تحبينني سيدة بونتيلييه» قالت الآنسة.

«لا أدري ما إذا كنتُ أحبكِ أم لا» أجابتْ إدنا، وهي تنظر للآنسة بنظرةٍ مثيرة للاستفهام.

شرت الآنسة رايس باعتراف السيدة بونتيلييه الصريح أيّما سرور. ثم أعربتْ عن ارتياحها بتصليح موقد البنزين فورًا ومكافأة ضيفتها بفنجان القهوة الذي وعدتها بهِ. نالت القهوة والبسكويت معًا رضا إدنا، التي رفضت تناول المرطبات في منزل السيدة ليبرون وبدأ الجوع يداهمها في تلك اللحظة. وضعت الآنسة الصينية التي أحضرتها على طاولة صغيرة قريبة المنال، وجلستْ على الأريكة المتعرجة من جديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«تلقيتُ رسالةً من صديقكِ» علقت الآنسة رايس وهي تصب القليل من الحليب السائل على فنجان إدنا وتُعطيهِ لها.

«صديقي؟!»

«بلى، صديقكِ روبرت. لقد كتب لي من مدينة مكسيكو»

«كتبَ لكِ؟!» ردّت إدنا وهي تحرك الملعقة في فنجانها بذهنٍ شارد، وقد أخذت الدهشة منها مأخذًا.

«نعم كتبَ لي، لِمَ العجب؟! لا تستمري بتحريك قهوتكِ. ستبرد. اشربيها. كما أن الرسالة موجهةٌ لكِ ولم يكتب فيها شيئًا سوى عنكِ أنتِ يا سيدة بونتيلييه، من أولها إلى آخرها»

«دعيني أراها» طلبت إدنا بنبرةٍ مشوبة بالتوسل

«كلا، لا تتعلق الرسالة إلا بالشخص الذي كتبها والشخص الذي كُتِبتْ له»

«ألم تقولي توًا، بأن الرسالة تتعلق بي من أولها إلى آخرها؟»

«لقد كتبَ الرسالة عنكِ، وليس لكِ. وكان يسأل فيها ‹**هل رأيتِ السيدة بونتيلييه؟ كيف تبدو؟**› و ‹**كما قالت السيدة بونتيلييه**› أو ‹**كما قالت السيدة بونتيلييه ذات مرة، إن جاءتْ لزيارتكِ، فاعزفي لها المقطوعة الحالمة لشوبان، المفضلة لديّ. سمعتها هنا منذ يوم أو يومين على ما أظن، لكن ليس كما تعزفيها أنتِ. أودّ أن أعرف كيف يؤثر ذلك عليها**› وهلم جرا، كما لو أنه يعتقد أننا برفقةِ بعض باستمرار»

«دعيني اقرأ الرسالة»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أوه كلا»

«هل أجبتهِ؟»

«كلا»

«دعيني أراها»

« كلا ثم كلا وكلا»

« إذن اعزفِي لي المقطوعة»

«لقد أخذ الوقت يتأخر، متى عليكِ العودة إلى المنزل؟»

«لا يهمني الوقت. يبدو سؤالك فظًا قليلًا، هيا اعزفِي لي»

«لكنكِ لم تُخبريني شيئًا عنكِ. ماذا تعملين؟»

«أرسُم، سأصير رسامة. تخيلي ذلك!» قالت إدنا ضاحكةً

«أها، رسامة! أنك تدّعين ذلك يا سيدة»

«ولِمَ الإدعاءات؟ أتظنين أنه لا يمكنني أن أصبح رسامة؟»

«لا أعرفكِ جيداً لأجيبكِ على ذلك. لا أعرف مدى موهبتكِ ولا طبيعتكِ. ينطوي الأمر على الكثير لكي تصبحي رسامة. على المرء أن يمتلك مواهب جمّة، مواهب فطرية جوهرية لم يكتسبها بمجهودهِ الخاص. بجانب ذلك، لكي ينجح الرسّام، عليهِ أن يمتلك قلبًا شُجاعًا»

«ماذا تعنين بقلبٍ شجاع؟»

«شجاع! حسنًا! القلب الشجاع هو قلبٌ يملك الجرأة، قلبٌ يتحدى»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أرني الرسالة واعزفي لي المقطوعة. وستفهمين إصراري. ألا تعوّلين شيئًا على هذهِ الصفة في الفن؟»

«هذه الصفة تعني امرأةً عجوزًا حمقاء قد تلبستكِ» وفرّت منها ضحكةً طويلة.

كانت الرسالة موجودةً هناك في درج الطاولة الصغيرة التي وضعت عليها إدنا فنجان قهوتها للتو. فتحت الآنسة الدرج وسحبت الرسالة-أول رسالةٍ- ووضعتها بين يدي إدنا. ثم نهضت وتوجهت إلى البيانو دون أي تعليقٍ آخر.

بدأت الآنسة بعزف فاصل موسيقيٍ ارتجالي. ثم حنت جسدها على الآلة. فتحولت خطوط جسدها إلى منحنيات وزوايا غير رشيقة مما جعلها تبدو قبيحة. وشيئًا فشيئًا، ذاب الفاصل الموسيقيّ في افتتاحية التوليف الصغير الرقيقة من مقطوعة شوبان.

لم تدرِ إدنا متى بدأت المقطوعة ومتى انتهت. كانت تجلس في زاوية الأريكة تقرأ رسالة روبرت على نورٍ باهت. فيما تحولت الآنسة رايس من «مقطوعة شوبان» إلى «**رسائل حبٍ واجفة**» الواردة في **أوبرا تريستان و إيزولده الخالدة** لريتشارد فاغنر (18)، ثم عادت مرّة أخرى إلى شوبان بعزفها الحنون المؤثر. استشرت الظِلال في الغرفة الصغيرة. وغدت الموسيقا عجيبةً، حالمة، وعاصفة. تفيض إصرارًا وحزنًا ورِقة، مصحوبةً بالتأمل والاسترحام. وازدادت الظِلال عمقًا، وغمرت الموسيقا أنحاء الغرفة وطافت في الليل، فوق أسطح المنازل، وصوب هلال النهر، إلى أن ضاعت في صمت السماوات.

كانت إدنا تنشج بالبكاء، تمامًا كما بكت ذات منتصف الليل في جزيرة غراند

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما استيقظت في أعماقها أصوات غريبة وغير مألوفة. فنهضت -على قدرٍ من الاضطراب- كي تغادر.

«هل لي أن آتي مرة أخرى، يا آنسة؟» سألت عند عتبة الباب.

«تعالي وقتما يحلو لكِ، واحذري كي لا تتعثري، فالسلالم وبسطتها معتمة»

ودخلت الآنسة مجددًا وأشعلت شمعة. كانت رسالة روبرت على الأرض. فانحنت والتقطتها. كانت مجعدة ومبللةً بالدموع. فأخذت الآنسة تُسوّي الرسالة وأعادتها الى الظرف واستبدلت مكانها إلى دُرَج المائدة.

---

(19)برونيلا: نسيج صوفي ثقيل يستخدم للأجزاء العلوية من الأحذية.

(18)من الجدير بالذكر أن هذه الأوبرا تحكي قصة حب آثمة بين تريستان وإيزولده تنتهي نهاية مأساوية وهذهِ إشارة ضمنية ذكية وجهّتها الآنسة رايس للسيدة بونتيلييه في إطار حبها غير المشروع لروبرت وما يمكن أن تؤول إليه العلاقة. المترجمة.

ذات صباح، وفي طريقه إلى المدينة، توقف السيد بونتيلييه عند منزل صديقه القديم وطبيب الأسرة، الدكتور ماندليت. كان الدكتور طبيباً شبه متقاعد، يكتفي بما حققهُ من نجاحاتٍ كما يقول المثل. كان معروفًا بحكمتهِ أكثر من مهاراتهِ، تاركًا الممارسات الفعلية للطب لمساعديهِ وأقرانهِ الأصغر سنًا. كان مطلوبًا كثيرًا في مسائل المشورة. ثمة قلّة من العوائل الذين تربطهُ معهم روابط صداقة، ما يزال يَعُودهم عندما يحتاجون إلى خبراتهِ كطبيب. وكانت عائلة بونتيلييه من بين تلك العوائل. وجد السيد بونتيلييه الطبيب يقرأ عند نافذةٍ مفتوحة من مكتبهِ. كان منزله بعيدًا جدًا عن الشارع، يقبع وسط حديقة مُبهجة. لذلك بدا المكان معزولًا وهادئًا عند نافذة مكتب الرجل العجوز. كان الطبيب قارئًا من الطراز الرفيع. وعندما دخل السيد بونتيلييه، نظر من فوق نظارتهِ نظرةً تنمُّ عن استنكار، متسائلًا من يجرؤ على إزعاجهِ في تلك الساعة من الصباح.

«آه، بونتيلييه! أتمنى ألا تكون مريضًا! تعال وتفضل بالجلوس. ما الأخبار التي تحملها في هذا الصباح؟»

كان رجلاً بدينًا للغاية، شعرهُ الأشيب غزير، وعيناهُ صغيرة زرقاء، سرق العمر الكثير من إشراقهما، لكن ليس بصيرتهما.

«أوه! أنا لا أمرض أبدًا يا دكتور، أنت تعرف أنني سليلُ عِرقٍ صُلب، ذلك العرق الكريولي القديم من آل بونتيلييه الذي ما إن يذوي حتى تُنفَخُ فيه الحياة من جديد. جئتُ للاستشارة لا غير. ليس للاستشارة بالضبط، بل للتحدث معك عن إدنا. لا أعرف ما الذي تعاني منه»

«السيدة بونتيلييه ليست بخير!» دُهش الدكتور «لقد رأيتها قبل أسبوع على ما أعتقد، تتمشى على شارع القناة. كانت مثالًا للصحة الجيدة على ما يبدو لي».

«نعم، نعم. تبدو على ما يرام»، هكذا قال السيد بونتيلييه، وهو يميل إلى الأمام ويُدور عصاهُ بين يديه قائلًا: «لكنها لاتُجِيد التصرف. إنها غريبة الأطوار، ليست على طبيعتها، ولا يمكنني فهمها. ظننتُ أنك ستساعدني، لرُبما»

«كيف تتصرف؟» استفسر الدكتور.

«ليس من السهل ان أفسّر ذلك. إنها تترك المنزل يتجه نحو الهاوية!»

«حسنًا، حسنًا. النساء لسنَ متشابهات يا عزيزي بونتيلييه يجب أن نضع في اعتبارنا...»

«أعرفُ ذلك. أخبرتك ليس بمقدوري تفسير الوضع. لقد تغيرتْ تصرفاتها كلها، تجاهي وتجاه الجميع وكل شيء. أنت تعرف أنّي ذو مزاج حاد، لكني. أنا لا أرغب بالشجار أو أن أسلك سلوكًا وقحًا مع امرأة، وخاصةً زوجتي. مع إنها تدفعني لفعل ذلك، ينتابني شعور وكأن بداخلي عفاريت كُثر وأنا أستخف بنفسي. إنها تجعل الأمور مربكةً بالنسبةِ لي لأبعد حد» وواصل الحديث بتوترٍ بالغ: «يجولُ في ذهنها نوعًا من الأفكار المتعلقةِ بحقوق المرأة اللامتناهية. و... أنت تفهم ما أعني... إننا لا نلتقي إلا في الصباح على مائدة الإفطار»

رفع الرجل العجوز حاجبيهِ الفشعثين، وأبرز شفته السفلى السميكة، وضرب ذراعي كرسيه بأطراف أصابعه الحادة.

«ما الذي فعلتهُ لها يا بونتيلييه؟»

«ماذا فعلتْ لها؟! يا إلهي!»

«هل كانت على صِلَة مؤخراً، بمجموعة من النساء مدّعيات الثقافة، أو أخريات يعتبرن أنفسهن كائنات ذات قدرات خارقة؟ فزوجتي تحكي لي عنهم»

«هذه هي المشكلة» ارتفع صوت السيد بونتيلييه «لم تكن على صِلَة بأي بشر. تخلت عن زيارات أيام الثلاثاء في منزلها، تركت كل معارفها. أنها تهيم بمفردها في عربات الشوارع مكتئبةً. وتعود بعد حلول الظلام. أقول لك انَّها تتصرفِ بغرابة ولا يروقني ذلك. أشعر ببعض القلق حيال أمرها»

كان هذا جانبٌ جديد بالنسبةِ للطبيب.

«ما من اضطراباتٍ وراثية؟ ما من أمورٍ غريبة لافتة للنظر في أسلاف عائلتها، أليس كذلك؟»سأل الطبيب، بجدية.

«أوه، كلا بالطبع! إنها تنحدر من أصول كنتاكي المشيخية القديمة. لقد سمعتُ أن والدها - وهو عجوزٌ نبيلٌ المحتد- كان يُكفّر عن خطاياه أيام عملهِ، خلال صلوات يوم الأحد. وأعلمُ يقينًا، أنهُ يملكُ ويروّض خيوله في أجمل قطعة أرضٍ زراعيةٍ وقعت عيناي عليها في كنتاكي بكل معنى الكلمة. ومرغاريتا، تعرف مرغاريتا، لم يضعف معتقدها بالمشيخيانية. أما أصغرهنّ فهي امرأة شرسة إلى حدٍ ما، بالمناسبة، ستتزوج في غضون أسبوعين من الآن»

«ارسل زوجتك إلى حفل الزفاف، دعها تبقى بين أهلها لفترة من الوقت. سينفعها ذلك» هتف الدكتور، متوقعًا حلًا سارًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أوه! لا أستطيع! لا داعي لذلك» اعترض السيد بونتيلييه.

«إذن سأذهب لزيارتها. سآتي لتناول العشاء في مساءٍ ما بصفتي صديقًا قديمًا للعائلة»

«تعال! بكل سرور» أخذ السيد بونتيلييه يحثّه: «في أي مساء ستأتي؟ فلنقُل مساء الخميس. هل ستأتي مساء يوم الخميس؟» سأل السيد بونتيلييه وهو ينهض لينصرف.

«جيد جدًا. الخميس. لكن ربما تُخبئ لنا زوجتي بعض الارتباطات ليوم الخميس، في حال فعلتْ ذلك سأعلِمك، وإلا عليك أن تتوقع مجيئي»

وقبل أن ينصرف السيد بونتيلييه، التفتَ ليقول:

«سأذهب إلى نيويورك في رحلةِ عمل قريبا جدا. عندي خطةُ عمل كبيرة في متناول يدي، وأريد أن أكون في الميدان المناسب لأكون مُلمًا بكل الأمور. ستُدخِلك معنا إن أردتَ ذلك يا دكتور»

«كلا، أشكرك يا سيدي العزيز. أترك مثل هذه المغامرات لكم أيها الشباب الواقعون بحبٍ بالغ للحياة، يسري في دمائكم»

انبرى السيد بونتيلييه ويده على المقبض قائلًا: «ما أردتُ قوله هو أنّي لربما اضطرُ للغياب لوقت طويل. هل تنصحني باصطحاب إدنا معي؟»

«بكل تأكيد، إذا كانت ترغب في الذهاب. وإن لم تكن راغبةً، اتركها هنا. لا تعارضها. حالتها النفسية السيئة هذهِ ستنقضي، أجزم لك ذلك. قد يستغرق الأمر شهراً أو شهرين أو ثلاثة أشهر، وربما أكثر من ذلك، ولكنه سيمُر. تحلَّ بالصبر»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسنًا. إلى اللقاء. أراكَ الخميس» قال السيد بونتيلييه وهو يخرج.

أما الطبيب، فكان بوّدهِ أن يسأل السيد بونتيلييه خلال الحديث: «هل ثمةَ رجلٌ ما في هذهِ القضية؟» بَيدَ أنهُ يعرف طِباع الكريول حق المعرفة للإقدام على مثل هذهِ الحماقة. لم يستأنف قراءة كتابه في الحال، بل جلس لفترةٍ من الوقت متأملًا في الحديقة.

حلّ والد إدنا ضيفًا عليهم وبقي برفقتهم في المدينة لعدة أيام. لم تكن إدنا متعلقة به من كل قلبها ولم تكن علاقتها بهِ عميقة، مع أنهُ تجمعهما ميولٌ مشتركة. وعندما يكونان معًا، يتحدثان بودّية. كان مجيئه يُشكل اضطرابًا مُرحبًا بهِ. ويبدو أنه يمهّد الطريق لاتجاهات إضافيةٍ في مشاعرها. فقد أتى ليشتري هدية زفافٍ لابنته جانيت، وثيابًا له. قد تُمكنهُ من الظهور بمظهر مشرّف في حفل زفافها. كان السيد بونتيلييه من اختار هدية الزفاف، فما إن يكون المرء ذا صلةٍ بهِ، حتى ينزل عند إرداتهِ في هذه المسائل دائمًا. كما أن اقتراحاتهِ حول مسألة الثياب -التي غالبا ما تحمل طبعًا مزاجيًا-كانت ذات قيمة لا تُقدّر بثمن في نظر والد زوجتهِ.

لكن، على مدى الأيام السابقة، كان الرجل العجوز بين يدي إدنا، وفي صُحبتهِ، صارت مُلّمةً بمجموعة أخرى من الأحاسيس. فقد سبق لهُ العمل كعقيد في الجيش الكونفدرالي، وما يزال يحتفظ باللقب العسكري ويرافقه دائمًا. كان الشيب قد غزا شعره وشاربهِ الناعمين، وأبرزا السُمرة الشديدة لوجههِ. كان طويلاً ونحيلًا، يرتدي معاطفَ مبطنة، مما أعطى عرضًا وقوةً وهميان لكتفيهِ وصدرهِ. كان مظهر إدنا ووالدها معًا، مميزٌ للغايةِ، وقد أثارا قدرًا كبيرًا من الانتباه أثناء تجولهما.

عند وصوله بدأت بتعريفهِ على مرسمها وقررت رسمهِ. فأخذ الأمر كله على محمل الجد. ولو كانت موهبتها أعظم مما هي عليهِ بعشرة أضعاف، ما كان ذلك ليفاجئه، فهو مقتنع بأنه أورث بناته الثلاث بذور الإمكانيات البارعة، التي لا تعتمد إلا على مجهودهن الخاص في توجيههِ صوب إنجاز ناجح.

فجلس أمام فُرشاتها جلسةً ثابتةً إلى أبعد حد، كما واجه فم المدفع في الأيام الخوالي. وقد امتعض من مقاطعة الطفلين اللذَين راحا يحدقان إليهِ فاغرين فاهيهما بأعين منبهرة، إذ لزما مكانيهما مشدودين هناك في مرسم والدتهما الزاهي. وعندما اقتربا منه، أشار لهما بالابتعاد بحركةٍ تعبيريةٍ من قدمهِ، غير راغبٍ في تبديد الخطوط الثابتة لملامحهِ، أو ذراعيهِ وكتفيه الثابتين.

وقامت إدنا-تواقةً إلى تسليته- بدعوة الآنسة رايس لمقابلتهِ بعد أن وعدته بالعزف على البيانو. لكن الآنسة رفضت تلبية الدعوة. لذا حضرا معاً أمسيةً موسيقية في منزل آل راتينيول. وقد أولى السيد والسيدة راتينيول اهتمامًا كبيرًا بالعقيد، وجعلا منهُ ضيفٍ شرفٍ وقاما بدعوتهِ لتناول العشاء معهم الأحد المقبل، أو في أي يوم قد يختارهُ هو. وراحت السيدة تتغنج أمامه بطريقةٍ آسرة وساذجة، بالنظراتِ والإيماءات والكثير من المجاملات، حتى شعر رأس العقيد العجوز الذي كتفيه الكبيرين، بأنه أصغر بثلاثين عامًا. تعجبتْ إدنا. ولم تستوعب. كانت هي نفسها تكاد لا تجرؤ على فعل ذلك.

كان ثمة رجل أو اثنين ممن لفتا انتباه إدنا في الأمسية الموسيقية؛ لكنها لم يخامرها شعور أبدًا، بأنها ستقوم بأي حركةٍ لعوبة لجذب انتباههما، ولا أي حيلةٍ أنثويةٍ ماكرة لتعبّر عن مشاعرها تجاههما. لقد لفتْ انتباهها شخصيتهما بطريقةٍ لطيفة. فقد اختارهما خيالها. وسَعِدتْ حين أتاح لهما فترة هدوءٍ موسيقي، فرصة لقائها والتحدث اليها. غالبًا ما كانت نظرات أعين الغرباء في الشارع، تعلقُ في ذاكرتها، تقضُّ مضجعها في كثيرٍ من الأحيان.

لم يحضر السيد بونتيلييه هذه الأمسيات الموسيقية. كان يراها برجوازية، ووجد تسليةً أكثر في النادي. وقال للسيدة راتينيول أن الموسيقا التي تُقدمها

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

في أمسياتها كانت «ثقيلةً للغاية»، تتجاوز استيعابِهِ الغِرّ إلى حدٍ بعيد. شعرتْ بالإطراء لتبريرهِ. لكنها شجبتْ وجود السيد بونتيلييه في النادي، وكانت صريحةً بما يكفي لإخبار إدنا بذلك.

«من المؤسف أن السيد بونتيلييه لا يمكث في المنزل أكثر في المساء. أعتقد أنكما ستكونا أكثر...حسنًا، إذا لم تمانعي قولي- أكثر انسجامًا، إذا فعل ذلك»

«أوه! لا يا عزيزتي، ماذا عساي أن أفعل إذا بقي في المنزل؟ لن يكون لدينا شيء لنقوله لبعضنا»

لم يكن لديها الكثير لتقوله لوالدها في هذا الشأن. لكنه لم يستفِزها. واكتشفت أنه اهتم بها، مع أنها كانت مدركةً أن ذلك لن يدوم طويلًا. ولأولِ مرةٍ في حياتها شعرتْ كما لو كانت على معرفةٍ تامةٍ به. إذ أبقاها مشغولة بخدمتهِ والاهتمام بحاجاتهِ. وكان القيام بهذهِ الأمور يُسلّيها. لم تسمح للخادمة أو لأحد طفليها بفعلٍ أي شيء لأجلهِ، يمكنها فعلهُ بنفسها. ولاحظ زوجها ذلك، واعتقد أنه كان تعبيرًا عن علاقةٍ بنَوية متجذِرّة، لم يشك بها أبدًا.

احتسى العقيد أنواعًا متعددة من الخمور طوال اليوم. أبقته رابط الجأش رغم ذلك. لقد كان خبيراً في تحضير المشروبات القوية حتى أنه ابتكر بعضًا منها، ومنحها أسماءً رائعة. كان يحتاج لتصنيعها إلى مكونات متنوعة، والتي أولى لإدنا مهمةَ شرائها له.

عندما تناول الدكتور ماندليت العشاء مع عائلة بونتيلييه يوم الخميس لم يستطع أن يتبين في السيدة بونتيلييه أي أثرٍ للحالة المرضية التي أبلغهُ بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زوجها. بل بدت مفعمةً بالنشاط، ومشرقة.

ثم انخرطت هي ووالدها في مضمار سباق الخيول، وكانت أفكارهما عندما جلسا إلى الطاولة، ما تزال مشغولة بأحداث مابعد الظهيرة، وحديثهما ما يزال خارج الحلبة. لم يواكب الدكتور مانديليت أحداث السباق. وإنما راح يسترجع بعض الذكريات من السباقات في زمنٍ ما أسماهُ «الأيام الخوالي الطيبة» وقتَ ازدهرت إسطبلات ليكومبت. وقال إنه يركنُ إلى هذا الصندوق من الذكريات كي لا يُستبعَد ويبدو فقيرًا تمامًا من روح الحداثة. ولكنهُ لم يفرض نفسهُ على العقيد، بل كان عفويًا ولم ينوِ إثارة إعجابه بهذه المعرفة المُختلَقة بالزمن الجميل.

راهنت إدنا والدها في مغامرتِهِ الأخيرة، وكانت النتائج بالنسبةِ لكليهما، مثلجةً للصدر. بالإضافة إلى أنهما قابلا أناسًا لُطفاء للغاية طِبقًا لانطباعات العقيد. فانضم إليهما كلٌ من السيدة مورتيمر ميريمان والسيدة جيمس هايكام، اللتين حضرتا برفقة ألسي أروبين. وقد بعث وجودهن الحياة في الزمن بطريقةٍ دفعته للاستغراق بالتفكير.

لم يملك السيد بونتيلييه ميولًا خاصة لركوب الخيل، بل كان يميل إلى حدٍ ما، لإقناع الآخرين بالعدول عن هذهِ الهواية كتسلية، خاصةً عندما يفكر في مصير مزرعة بلوغراس في كنتاكي. فقد سعى للتعبير عن رفض استثنائي على نحوٍ عام، ولم ينجح إلا في إثارة غضبٍ ومعارضةِ والد زوجته. وتبع ذلك خلاف كبير، إذ أيّدت إدنا حُجج والدها من كل قلبها، فيما بقي الدكتور محايدًا، الذي كان يراقب مضيفتهُ عن كثبٍ، من تحت حاجبيه المشعثين. ولاحظ تغييرًا طفيفًا بها، من امرأة فاترة الهمّة التي يعرفها، إلى مخلوقةٍ تبدو-في تلك اللحظة- تنبض بقوة الحياة. كان حديثها لطيفًا مفعمًا بالحيوية.

لم يكن ثمّة إشارة على الوهن في نظراتها أو إيماءتها. وقد ذكّرته بحيوان جميلٍ أنيق، يستيقظ مع الفجر.

كان العشاء ممتازاً. للكلاريت مذاق لطيف، وللشمبانيا تأثير منعش بارد. فذابت تحت تأثيرهما المدهش، الخلافات وتلاشت مع أبخرة النبيذ. أصبح السيد بونتيلييه أكثر مودّةً، واستغرق في الذكريات. فأخذ يروي بعض التجارب المضحكة في مجال الزراعة، وذكرياته عن إيبفيل القديمة وشبابه، عندما كان يصطاد حيوان الأبسوم بصحبة مجموعة من الأصدقاء الودودين من ذوي البشرة السمراء، وهم يشقّون طريقهم بين أشجار البقان، ويصطادون الطائر غليظ المنقار، ويجوبون الغابات والحقول في تسيبٍ مؤذٍ.

وروى العقيد، الذي لا يتحلى بقدر كافٍ من روح الفكاهة بما تقتضيهِ منطق الأشياء، قصةً كئيبة عن الأيام المظلمة والمريرة، إذ لعبَ دورًا بارزًا وشكّل شخصية محورية على الدوام. ولم تكن قصة الدكتور أكثر بهجةً، حين روى قصة قديمةً عجيبة -تصلُح أن تكون حكمة في كل زمن- عن زوالِ حُبّ امرأةٍ، تسعى جاهدةً للبحث عن سُبلٍ غريبةٍ جديدة، فقط للعودة إلى موطنها الأصلي بعد أيام من الاضطرابات العاطفية الشرسة. كانت قصة من بين العديد من الأمثلة البشرية الصغيرة التي كُشِفَ له عنها خلال حياتهِ المهنية الطويلة كطبيب.

لم يبدُ أن القصة أثارت إعجاب إدنا خاصةً. كان في جعبتها قصة عن امرأة جذّفت بعيدًا ذات ليلة في زورق بيروغ برفقة عشيقها ولم يعودا أبدًا. ضاعا وسطَ الجُزُر البرتارية، ولم يسمع بهما أحدٌ قط ولم يعثر أحدٌ على أثرٍ لهما منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا. كانت محض قصةٍ مُبتكَرة، قالت أن السيدة أنطوان، حكتها لها وهذهِ أيضًا كانت قد اخترعتها. ولربما كانت حلماً راودها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن كل كلمةٍ نطقتْ بها كانت مشبوبةٍ بالعاطفة، بدت حقيقية لأولئك الذين يصغون إليها. حتى صار بإمكانهم الشعور بأنفاس الليل الجنوبي الدافئ، وسماع الحركة المائلة الممتدة، لقارب بيروغ وهو يمخر المياه المتلالئة بنور القمر، وخفقِ أجنحة الطيور، والشروق المذهل فيما بين القصب المنتصب في برك المياه المالحة. كان بإمكانهم تخيّل وجوه العاشِقَين، شاحبةً، قريبة من بعضها، مستغرقين في عالم آخر من الوهم واللاشعور، ينجرفان صوب المجهول.

كانت الشمبانيا باردة. تمادى تأثيرها الخفي بتكوين قصصٍ خيالية في ذهن إدنا تلك الليلة. في الخارج، بعيدا عن وهج النار وضوء المصباح الخافت، وحين أغبش الليل باردًا. وضع الدكتور رداءً عتيق الطراز إضافيًا على صدره فيما أخذ يشق طريقه بخطوات واسعة إلى المنزل عبر الظلام. كان خير الناسِ معرفةً بالبشر. يعرفُ الحياة الباطنية القصيّة، التي نادرًا ما تتكشف للأعين التي لم يمسح عليها الربُّ القدوس بعد! ثم انتابه شعور بالندم لقبولهِ دعوة السيد بونتيلييه. كان يتقدم في العمر، وبدأ يحتاج للراحة ولروحٍ منيعة. ولم يكن راغبًا أن تُناط بهِ أسرار الحيوات الأخرى.

«أتمنى ألّا يكون آروبين»، همس لنفسه وهو يمشي. «أرجو الرب ألّا يكون ألسي أروبين»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نشأ بين إدنا ووالدها، جدالٌ كبير، كاد أن يكون حادًا، لأجل رفضها حضور زفاف أختها جانيت. تمنّع السيد بونتيلييه من التدخل، ولا أن يتوسط في الأمر بحكم تأثيرهِ أو خبرتهِ. كان يتّبع نصيحة الدكتور ماندليت، يدع إدنا تفعل ما يحلو لها. وبخ العقيد ابنته على افتقارها إلى اللطف والاحترام البَنويين، وعلى عدم رغبتها في المودّة الأخوية والأخذ بعين الاعتبار مشاعر أختها. كانت حُججهُ ضعيفة وغير مُقنعة. فقد شك في قبول جانيت أي عذر، ناسيًا أن إدنا لم تقدم أي عذر. لقد شكَ إن كانت جانيت ستتحدّث إليها مُجدداً، وكان مُتأكّداً أنّ مارغريت لن تتحدث إليها.

فرحت إدنا بالتخلص من أبيها عندما غادر أخيرًا مع ثياب حفل الزفاف وهدايا جانيت، بمنكبيهِ العريضين، والكتاب المقدس، وخمورهِ وعهودهِ الرتيبة. رافقهُ السيد بونتيلييه مباشرةً. كان ينوي أن يعرّج على حفل الزفاف في طريقهِ إلى نيويورك، ويسعى بكل الوسائل التي يمكن للمال والحب إيجادها، للتكفير إلى حدٍ ما، عن تصرف إدنا الغامض.

«إنك متسامحٌ جدًا، متسامحٌ لأبعد حد يا ليونس. السيطرة والعنف هما ما نحتاج إليه. اضرب بيدٍ من حديد، هذهِ هي الطريقة الوحيدة للتعامل مع الزوجة. ثق بكلامي» قال العقيد.

ولعل العقيد، لم يكن مدركًا أنه أرغم زوجته -من خلال تعاملهِ معها- على حفر قبرها بيدها. وقد ساور السيد بونتيلييه شك غامضٌ حول ذلك، غير أنه اعتقدَ، أن لا داعي لتذكيره في مثل ذلك الوقت المتأخر.

لم تكن إدنا مغتبطة شعوريًا بمغادرة زوجها المنزل كما اغتبطت برحيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدها. ومع اقتراب اليوم الذي سيغادرها فيهِ لإقامةٍ طويلةٍ بعض الشيء، تعاظمتْ محبتها وبدأت تتألم. وتذكرتْ أفعالهُ التي يعبر بها عن اهتمامهِ، واعترافاته المتكررة عن تعلقه الشديد بها. كانت تهتم بصحتهِ ومصالحهِ جدًا. تتحركُ بهمّة من أجلهِ، تعتني بملبسهِ، وتفكر في ملابسهِ الداخلية السميكة، تماما كما كانت تفعل السيدة راتينيول في ظل أوضاع مماثلة. لقد بكت عندما رحل، وهي تدعوهُ بـ «حبيبها» و«رفيقها العزيز»، وكانت على يقينٍ تام من أنها ستشعر بالوحدة قبل مُضي وقتٍ طويل على انضمامها إليه في نيويورك.

لكن بعد كل شيء، حلّ على روحها هدوءٌ لا يوصف، عندما وجدت نفسها بمفردها في نهاية المطاف. حتى الطفلان رحلا. إذ جاءت الجدة بونتيلييه العجوز بنفسها وأخذتهما معها إلى إيبرفيل بمعيّة المربية الخلاسية. لم تجرؤ السيدة العجوز على القول أنها خائفة من أن يظل الطفلان مُهمَلَين أثناء غياب ليونس، وبالكاد جازفت بالتفكير بذلك. فقد كانت تواقةً للصغيرين، حتى أنها كانت شديدة التعلُّق بهما إلى حدٍ ما. وقالت إنها لا تريد لهم أن يصيروا «أطفال شارع» يومًا، كما كانت تقول دائمًا عندما تطلب الإذن كي تأخذهما في فُسحة. ووَدّتْ الجدة أن يتعرفا على الريف، بجداوله، وحقوله، وغاباتهِ، وحريتهِ الممتعة جدًا للصغار. ورغبتْ أن يتذوقا شيئًا من الحياة التي عاشها والدهما، الحياة التي عرفها وأحبها عندما كان هو أيضاً طفلًا صغيرًا.

عندما أصبحتْ إدنا بمفردها أخيرًا، تنفستْ الصعداء. داهمها شعورٌ غير مألوف، لكنه لطيف للغاية. سارت في أرجاء المنزل من غرفة إلى أخرى، وكأنها تتفقده للمرة الأولى. جربت الجلوس على مختلف الأرائك والكراسي وكأنها لم تجلس وتتكئ عليها من قبل أبدًا. تجولت حول المنزل من الخارج، تتحرى لترى ما إذا كانت النوافذ والمصاريع آمنة ومرتبة. حتى أزهار الحديقة

بدث وكأنها أصدقاء جدد. اقتربت منهم بروحٍ مألوفة، واعتبرت نفسها كأنها في المنزل فيما بينهم. كانت طرقات الحديقة مُبتلّة، فنادث إدنا على الخادمة لتجلب لها صندلها المطاطي. وبقيت هناك. منحنيةً. تحفر فيما حول النباتات، تشذبها، وتلتقط الأوراق الجافة الميتة. خرج جرو الأطفال الصغير وأخذ يعبث معها ويعترض طريقها. فوبخته، سخرت منه، ولعبت معه. كانت الحديقة تعبق برائحةٍ زكية وتبدو جميلة للغاية تحت أشعة شمس ما بعد الظهيرة. التقطت إدنا الأزهار الزاهية التي عثرت عليها كلها، واصطحبتهم إلى المنزل معها هي والجرو الصغير.

حتى المطبخ أصبح مكانًا مثيرًا للاهتمام بشكلٍ مفاجئ لم تُدركهُ من قبل. فدخلث لإعطاء توجيهات للطاهية، لتُخبر الجزار بوجوب شراءِ لحم أقل بكثير من المعتاد، وأنهم يحتاجون فقط نصف الكمية المعتادة من الخبز، والحليب والخُضار. وأخبرت الطاهية أنها ستكون هي نفسها مشغولة للغاية أثناء غياب السيد بونتيلييه، وطلبث منها بأن تأخذ على عاتقها مسؤولية حجرة المؤن.

تناولت إدنا العشاء لوحدها تلك الليلة. منحها الشمعدان، وبضعة شموعٍ وسط الطاولة كل الضوء الذي احتاجته. وخارج دائرة الضوء التي جلست فيها، بدت غرفة الطعام الكبيرة، مُهيبةً وغامضة. أثبتت الطاهية مهاراتها، وقدمث لها وجبةَ طعامٍ لذيذة: قطعة لحمِ طريةٍ مشويةً بطريقة فاخرة. كان مذاق النبيذ رائعًا. ويبدو أن طبق مارون غلاسيه(21) كما تمنتهُ بالضبط. وكان في منتهى المتعةِ أيضًا، تناول العشاء بثوبٍ فضفاضٍ مريح.

ثم أخذث تفكر في ليونس والأطفال بشيءٍ من العاطفة. تساءلت عما كانوا يفعلونه في تلك اللحظة وهي تعطي فُتات الطعام إلى الجرو الصغير. ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدثتهُ بنبرةٍ وديّة عن إتيان وراؤول. حتى صار الكلب في حالةِ انفعالٍ شديد بكثير من الدهشة والبهجة لهذهِ التطورات الاجتماعية الرقيقة. فأظهر تقديره من خلال نباحه السريع الصغير ومشاغباتهِ المفعمة بالمرح.

ثم جلست إدنا في المكتبة بعد العشاء. وراحت تقرأ لرالف والدو إيمرسون(20) حتى شعرت بالنعاس. لقد أدركتِ أنها أهملت قراءاتها، وعزمت على البدء من جديد في منحى تعزيز قراءاتها بما أن وقتها الآن أصبح ملكاً لها بالكامل، لتفعل بهِ ما يحلو لها. بعد حمام منعش، خلدت إدنا للنوم. وفيما استكنت في فراشها وهي تضم أطرافها إلى صدرها تحت لحافٍ -محشوٍ بزغب بط العيدر- غزاها شعورٌ بالراحة، كما لم تشعر بهِ من قبل.

---

(21) مارون غلاسيه: حلوى تتألف من الكستناء المغطاة بشراب السكر (القطر أو الشيرة).

(20) إمرسون رالف والدو إمرسون 1882-1803 كاتب مقالات وفيلسوف، وشاعر أمريكي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

لم تستطع إذنا الرسم عندما تكون الأجواء غائمةً ومعتمة. احتاجت أشعة الشمس لتلين، وتبعث الدفء في نفسها. لقد وصلت إلى مرحلةٍ بدث وكأنها لم تعد تعرف وجهتها. ترسُم بكل دقةٍ ويُسر عندما تكون في مزاجٍ جيد. ولأنها مخلوقةٌ يعوزها الطموح، ولا تسعى إلى الإنجاز، فقد كفَرتْ عن ذلك بالرسم في حد ذاته. في الأيام الماطرة أو الكئيبة، كانت تخرج للبحث عن رفقة الأصدقاء الذين عرفتهم في جزيرة غراند. أو تبقى في المنزل، تلبيةً لمزاجها ولراحتها وسكينتها مع نفسها والتي أصبحت معروفةً هذا في الآونة الأخيرة. لم يكن يأسًا؛ وإنما بدا لها كما لو أن الحياة تمرُ من خلالها، تاركةً الوعود التي نكثتْ بها، حبرًا على ورق. لكن ثمةَ أيامًا أُخر، كانت تُنصِتُ فيها للحياة، تسير صوبها، ثم تضللها بوعودٍ أخرى، تقطعها لشبابها.

ذهبت مرة أخرى إلى سباق الخيول، ومرة أخرى. وجّه ألسي أروبين والسيدة هايكام دعوة لها بعد ظهر يوم مشرق في منزل أروبين. كانت السيدة هايكام امرأة شقراء خبيرةً بشؤون الحياة والناس، غير متصنعة، ذكية، رشيقة، فارعة الطول، وفي الأربعينيات من عمرها. لا تكترث بالسلوكيات والقواعد. ولها عينان زرقاوان واسعتان. كان لديها ابنة تستغلها كذريعةٍ لعقدِ صداقاتٍ مع جماعة شباب الموضة الذي كان ألسي أروبين واحدًا منهم. كان شخصية كثيرة التردد على مضمار السباق، الأوبرا، والنوادي العصرية. في عينيهِ ابتسامة أبديّة نادرًا ما أخفقتْ في إيقاظ بهجةٍ مماثلة في عيون كل من ينظر إليهما ويستمع إلى صوته الحسنْ. كان يمتلك أسلوبًا هادئًا، متغطرس إلى حدِ ما في بعض الأحيان. وكان لهُ مظهرٌ جميل، بملامحِ وجهٍ جذابةٍ غير مثقلة بعمق التفكير ولا بالمشاعر الجياشة. وكان ملبسهُ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملبس رجل يرتدي على الموضة التقليدية.

كان معجبًا بإدنا بشكل مبالغ فيه، بعد لقائها في السباقات مع والدها. وقد سبق أن التقى بها في مناسبات أخرى، لكنها بدت بعيدة المنال حتى ذلك اليوم. وبتحريض منه اتصلت السيدة هايكام لتطلب منها الذهاب معهم إلى نادي الفروسية لتشهد حدث حلبة سباق الموسم.

لربما حضر عدد قليل من رجال المضمار، ممن يملكون خبرة عن خيول السباق بالإضافة إلى إدنا، ولكن بالتأكيد لم يكن هناك من يعرفه بصورة أفضل. جلست إدنا بين رفيقيها كواحدة تمتلك سلطة الكلام. ضحكت على ادعاءات أروبين، شجبت جهل السيدة هايكام. فخيل السباق كان رفيق طفولتها الدائم. أثار جو الإسطبلات ورائحة العشب الأخضر لحقل ترويض الخيول، ذاكرتها وبقي عالقًا في أنفها. لم تتصور أنها كانت تتحدث مثل والدها فيما راحت الخيول المخصية الممشوقة تُهملِج في الاستعراض أمامهم. لقد لعبت على رهانات عالية جدًا، وكان الحظ إلى جانبها. اشتعلت حمّى اللعبة في وجنتيها وعينيها، ووصلت إلى دمها ودماغها كما لو أنها تعاطت مادة مخدرة. فأدار الناس رؤوسهم لينظروا إليها، وأصغى أكثر من شخص إلى كلامها بانتباه، آملين بذلك أن يحصلوا ‹البقشيش› صعب المنال وكل مايرغبون بهِ دائمًا. التقط أروبين عدوى الإثارة التي جذبته إلى إدنا كالمغناطيس. بقيت السيدة هاكام كعادتها، غير متأثرة، بنظراتها اللامبالية وحاجبيها المرفوعين.

بعد ذلك، مكثت إدنا لتناول العشاء مع السيدة هايكام التي دعتها بالحاح. وبقي أروبين أيضًا، بعد أن صرف عربة الخيول خاصته.

كان العشاء هادئًا يبعث على الملل، باستثناء الجهود المبهجة التي بذلها

أروبين لإضفاء البهجة على الوقت. وأعربت السيدة هايكام عن أسفها لغياب ابنتها من السباقات، وحاولت أن تنقل لها ما فاتها، بالانصراف إلى قراءةِ للشاعر الايطالي دانتي، عوضًا عن الانضمام إليهم. أمسكت الفتاة بورقة نبات أبرة الرّاعي فوق أنفها ولم تقل شيئا، لكنها بدت نبيهةً ومبهمة.

كان السيد هايكام رجلًا بسيطًا أصلع الرأس، لا يتحدث إلا للضرورة. ويتسم بشخصية كسولة. غير أن السيدة هايكام تكنُّ له بالغ اللطف والاهتمام. وقد وجهت لهُ معظم أحاديثها على المائدة. بعد العشاء، جلس الجميع في المكتبة يقرأون صحف المساء معًا تحت نور قنديل مدلى؛ بينما ذهب الشباب إلى غرفة الرسم المجاورة وتجاذبوا أطراف الحديث. عزفت الآنسة هايكام بعض المختارات للمُلّحن النرويجي هاغيروبْ غريغ على البيانو. ويبدو أنها لم تضبط شيئًا من شاعرية المُلحّن سوى فتورهِ. وبينما كانت إدنا تُصغي، لم يكن بوسعها إلا أن تتساءل عما إذا كانت ستفقد حبها للموسيقا أم لا.

عندما حان وقت عودة إدنا إلى منزلها، عرض السيّد هايكام مرافقتها بطريقةٍ باردة، ناظراً إلى خُفّي قدميهِ بطريقةٍ تعوزها اللباقة. فرافقها أروبين للمنزل. كانت جولة العربة طويلة، وكان الوقت متأخرًا عندما وصلا إلى شارع إسبيلاند. طلب أروبين الإذن بالدخول لثانية لإشعال سيجارته، فعلبة الكبريت خاصتهِ كانت فارغة. ملأ العلبة، لكنه لم يشعل سيجارته حتى غادرها، بعد أن أبدتْ استعدادها لمرافقتهِ إلى سباقات الخيول مرة أخرى.

لم تكن إدنا متعبة ولا نعسة. بل شعرتْ بالجوع من جديد، لأن عشاء آل هايكام -على الرغم من جودته الممتازة- لم يكن وفيرًا. بحثتْ في مخزن المؤن وجلبت قطعة من جبنة غروييِر وبعض البسكويت. وفتحت زجاجة البيرة التي وجدتها في البراد. شعرت إدنا باضطرابٍ بالغٍ وهياج. وأخذت

تدندن لحنًا غريبًا غير مفهوم وهي تنكش جمرات الحطب في الموقد وتمضغ البسكويت.

أرادت أن يحدث شيء. شيءٌ ما. أي شيء. ولا تدري ما السبب. لقد ندمت لأنها لم تجبر أروبين على البقاء نصف ساعة لتخوض حديثًا معهُ عن الخيول. أحصت المال الذي ربحته، لكن لم يكن هناك شيء آخر لفعلهِ، لذلك آوت إلى الفراش، وأخذت تتقلبُ هناك لساعات، باهتياج.

وفي منتصف الليل، تذكرت أنها نسيت أن تكتب رسالتها المعتادة إلى زوجها. فقررت أن تفعل ذلك في اليوم التالي وتخبرهُ عن أمسيتها في نادي الفروسية. ورقدت وهي يقظة تمامًا تؤلف رسالةً لا تشبه الرسالة التي كتبتها في اليوم التالي. عندما أيقظتها الخادمة في الصباح، كانت قد حلمت بالسيد هايكام وهو يعزف البيانو عند مدخل متجرٍ للموسيقا في شارع القناة، فيما كانت زوجته تقول لألسي أروبين وهما يستقلان عربةً في شارع إسبيلاند:

«من المؤسف أن تُهمَل مواهب كثيرة! ولكن عليَّ الذهاب»

وبعد بضعة أيام، دعى ألسي أروبين إدنا لاصطحابها معهُ في عربتهِ من جديد. لم تكن السيدة هايكام معه. قال أن هناك من سيقوم باصطحابها. وبما أن هذه السيدة لم تكن على علمٍ بنيّتهِ لاصطحابها، لم تبقَ في البيت. وكانت ابنتها تهُم بمغادرة المنزل لحضور اجتماع جمعية التراث الشعبي التابع للفرع، وندمت لأنها لم يكن بوسعها مرافقتهما. لم يبدُ أروبين مرتبكًا. وسأل إدنا فيما إذا كان ثمة شخص آخر تهتم بطلب مرافقته.

لم ترَ أنه من المجدي البحث عن أيٍّ من معارفها الدارجين الذين ابعدت نفسها عنهم. فكرت بالسيدة راتينول، لكنها متيقنةً أن صديقتها الجميلة لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تغادر المنزل، باستثناء القيام بجولة كسولة حول المبنى مع زوجها بعد حلول الظلام. فيما كانت الآنسة رايس ستضحك على مثل هذا الخطب من إدنا. تريد أن ترغب السيدة ليبرون بمثل هذه النزهة وتستمتع بها. لكن لسبب ما، لم ترغب إدنا بوجودها. لذلك ذهبا بمفردهما، هي وأروبين.

كانت فترة الظهيرة ممتعة للغاية بالنسبة لها. عادت الحماسة إنها مثل حمى تفتر شدتها كل يوم وتعود. أصبح حديثها وديًا وبوحي بالثقة. لم يكن من الصعب أن تستأنس لأروبين. كانت سلوكياته تدعو للاعتقاد بأنه مأمون الجانب. وكانت المرحلة الأولى من اللقاء هي تلك التي سعى دائمًا إلى التغاضي عن تفاصيلها، عندما يتعلق الأمر بامرأة جميلة وجذابة.

بقي أروبين وتناول العشاء مع إدنا جالسًا بجانب نار الحطب. تجاذبا أطراف الحديث، ضحكا، وقبل أن تحين ساعة المغادرة، أخبرها كم كانت ستغدو الحياة مختلفةً لو أنه عرفها قبل سنوات. وبصراحةٍ واضحة، تحدث عن مدى مكرِه وسوء انضباطه عندما كان صبيًا. ثم رفع طرف كُمِّهِ سريعًا ليكشف عن ندبةٍ على معصمه من جرحٍ سيف تلقاه في مبارزة خارج باريس وقتَ كان في التاسعة عشر من عمره. لمست إدنا يده بينما راحت تتفحص الندبة الحمراء على معصمه الأبيض. ثم، وتحت تأثير دافعٍ عفويٍ خاطف، وغريب نوعاً ما، دفعت قبضتها للإطباق عليها كما لو كانت تقبض على يده. فشعر بضغط أظافرها المدببة في لحم راحة يده. نهضت إدنا بسرعة بعد ذلك، ومشت نحو رف الموقد.

«يضايقني منظر الجروح والندوب. إنه يصيبني بالغثيان دائمًا. ما كان يجب أن أنظر إليه»

«أستميحكِ عذرًا» قال أروبين متوسلًا، ولحق بها «لم يخطر ببالي أبدًا أنه

قد يكون مثيرًا للاشمئزاز»

وقف على مقرُبةٍ منها، وفي عينيهِ جُرأة قاومت الذات القديمة المتوارية فيها، مع ذلك استقطبت كل شعورٍ باللذة، أوقِظ بداخلها. لقد رأى في وجهها ما يكفي لحثه على أخذ يدها والإمساك بها وهو يتمنى لها ليلةً سعيدة.

«هل ستنضمين لسباقات خيول أخرى؟»

«لا. لقد اكتفيتُ من الرهانات على الخيول. لا أريد أن أخسر كل المال الذي ربحتهُ، وعليّ أن أرسم عندما يكون الطقس مشرقًا، بدلاً من...»

«نعم، الرسم، لا شك من ذلك. لقد وعدتني أن تريني أعمالكِ. في أي صباح يمكنني المجيء لزيارة مرسمكِ؟ غداً؟»

«لا!»

«بعد غد؟»

«لا، لا»

«أوووه أرجوكِ، اسمحِي لي بالمجيء! أنني على درايةٍ بشيءٍ من مشاغل الرسم. ولربما أساعدكِ ببعض الاقتراحات»

« لا. طابت ليلتك. لِمَ لَمْ تغادر بعد أن تمنيتَ لي ليلة سعيدة؟ أنني لا أستلطفك»

قالت بنبرةٍ عالية تشوبها الحماسة في محاولة لاسترجاع يدها. فقد شعرت أن كلماتها تعوزها الاحترام والوضوح، وعرفتْ أنه شعر بها.

«يؤسفني أنكِ لا تستلطفيني، وأنا آسف لأنّي ضايقتكِ. كيف ضايقتكِ؟ ماذا

فعلت؟ ألا يمكنكِ مسامحتي؟» وانحنى ووضع شفتيه على يدها، كما لو أنه لم يعد يرغب في سحبهما.

«سيد أروبين. إنّي مستاءةٌ للغاية من سلوكي الحماسي الذي رأيتهُ بعد ظهيرة هذا اليوم. إنّي لستُ على طبيعتي، لا بد أن سلوكي قد خدعك بطريقةٍ أو بأخرى. أرجو منك المغادرة، من فضلك» قالت إدنا، وهي تتحدثُ بنبرةٍ رتيبة نافرة.

فأخذ أروبين قبعته من على الطاولة، ووقف بأعين مُشاحة عنها، يحملق في نيران الموقِد الخابية. وللحظات، التزم صمتٌ مؤثر. وقال في النهاية:

«لم يخدعني سلوككِ يا سيدة بونتيلييه. مشاعري هي التي فعلت ذلك. لم أستطع تمالك نفسي. كيف عساي أن أتمالك نفسي عندما أكون بقربكِ؟ لا تقولي شيئًا. لا تُضايقي نفسكِ رجاءً. كما ترين، أنني طوع أمركِ. سأذهب عندما تريدين. إن أردتِ مني البقاء بعيدًا عنكِ سأبقى بعيدًا. وإن سمحتِ لي بالعودة، سأعود، أوه! سوف تدعيني أعود؟»

وألقى عليها نظرةً ملؤها التوسل، لم تُبدِ استجابة معها. كان موقف ألسي أروبين بغاية الصدق، حتى أنه كثيرًا ما أوهم نفسه. إلا أن إدنا لم تكترث لموقفهِ ولم تفكر في مدى صدقهِ. وعندما أمست بمفردها، نظرت تلقائيًا لظهر يدها التي قبلّها فيها أروبين بحرارة. ثم وضعت رأسها على رف الموقد، وشعرت إلى حدٍ ما، كأنها امرأة غُرِّرَ بها -في لحظة عاطفة- ووقعتْ في أفعال الخيانة الزوجية. وأدركت فداحة فعل الخيانة، دون أن تصحو من سحرهِ بالكامل.

وأخذتْ الفكرة تخطر في ذهنها بصورةٍ مُبهَمة:

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«ما الذي سيعتقده؟»

لم تقصد زوجها في ذلك. بل كانت تفكر في روبرت ليبرون. إذ بدا لها زوجها في تلك اللحظة، كشخص تزوجت به من غير حب، كذريعة.

أشعلت شمعة وذهبت إلى غرفتها. لم يعنِ ألسي أروبين شيئاً بالنسبة لها، غير أن حضورهِ، تصرفاتهِ، دفء نظراته، وقبل كل شيء لمسةَ شفتيهِ على يدها، كان يسري في جسدها كفعل مادةٍ مخدرةٍ. فنامت نومًا يبعثُ على الوهن، نومًا ممزوجًا بأحلامٍ مستترة.

كتبَ ألسي أروبين لإدنا رسالةَ اعتذار صادقة. لقد أحرجها ذلك لأنه، في لحظاتها الهادئة تلك، شعرت بالسخف من أخذ تصرفاته على محمل الجد بتلك اللهجة الدرامية. وأيقنتْ أنّ حساسية الأمر برّمته، تكمن في نظرتها إليهِ. فلو تجاهلت رسالتهِ، فإن ذلك سيعطي أهميةً لا داعي لها لعلاقةٍ تافهة. وإن ردتْ عليها بنبرةٍ جديّة، فإن ذلك سيترك في ذهنه الانطباع الذي خلّفته في لحظة حسّاسة حينما غضبتْ. فبعد كل شيء، لم يكن تقبيل يد المرء مسألةً كبيرة. لقد أثارها كتابتهُ لرسالة اعتذار. فأجابت على رسالته بلهجة مرحة ومزاجٍ رائق، كما خُيّل لها أنهُ يستحق، وقالت أنها ستُسرُ بأن يلقي نظرة على لوحاتها متى ما شعر برغبةٍ في ذلك، ومتى ما سنحت له الفرصة.

فأجابها على الفور بالحضور شخصيًا في منزلها بكل ما يملك من طيبةٍ ساحرة. بعد ذلك الموقف، نادرًا ما حلَّ يوم لم تَرَهُ فيه أو تذكرهُ بهِ. كان كثير التحجج. وأصبح موقفه يتسم بطاعةٍ ودّية وحُبٌ مُضمَر. كان مستعدًا في جميع الأوقات للإذعان لمزاجها، الذي كان في كثير من الأحيان لطيفًا بقدرِ برودهما. واعتادت إدنا عليهِ. فقد أصبحا رفيقين وودودين تجاه بعضهما بطريقةٍ لاشعورية. كان يتحدث أحيانًا بطريقةٍ تُدهشها في البداية، وتجعل وجهها يحمّر خجلاً، ويُشعرها باللذة في النهاية، موجّهًا النداء لشهواتها التي تتحرك في أعماقها، بصبرٍ يكادُ ينفد.

ما من أحدٍ يبعث الطمأنينة في مشاعر إدنا المحتدمة كزيارةٍ للآنسة رايس في ذلك الوقت. ففي وجود تلك الشخصية التي كانت جارحةً بالنسبة لها، بدث المرأة -بمهاراتها المدهشة- وكأنها قادرة على الوصول إلى روح إدنا وإطلاق سراحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي فترة ما بعد الظهر، إذ كان الضباب يعمُّ الأجواء، وكانت السماء ملبّدةً بالغيوم، حين صعدت إدنا الدرج إلى شقة عازفة البيانو في الدور العلوي من المبنى. كانت ثيابها تقطر من البلل. فداهمها شعورٌ بالبرد والقشعريرة عندما دخلت الغرفة. كانت الآنسة تنكِش في موقد صدئ، يصّاعد منه القليل من الدخان وينشر الدفء في الغرفة كلها على حدٍ سواء. كانت تسعى جاهدةً لتسخين وعاء من الشوكولاتة على الموقد. بدت الغرفة بمنظرٍ كئيب وقذر عند دخول إدنا. هناك تمثالٌ نصفي لبيتهوفن، مغطى بطبقةٍ من الغبار، عبسَ في وجهها من رف الموقد.

«آه، من هنا تدخل أشعة الشمس» صاحت الآنسة رايس وهي تنهض من ركوعها من على الموقد. «سيصير الجو دافئًا ومُبهجًا. سأترك نيران الموقد مشتعلة»

وأغلقت باب الموقد بصفقةٍ واحدة. ثم اقتربت، وساعدت إدنا في خلع معطفها المطري المبلول.

«أنكِ تشعرين بالبرد، وتبدين في حالةٍ يُرثى لها. ستكون الشوكولاتة ساخنةً عمّا قريب. لكن هل تُفضلين تذوق البراندي؟ أنني بالكاد لمستُ الزجاجة التي أحضرتها لي لأجل الرشح الذي أصابني»

ثمة قطعة من الفانيلا الحمراء ملفوفةً حول حنجرة الآنسة. أجبرها تصلُّب الرقبة على وضع رأسها على أحد الجانبين.

«سوف أحتسي القليل من البراندي» قالت إدنا وهي ترتجف من البرد بينما تخلع حذاءها الفوقي وقفازاتها. شربت الخمر من القدح كما يفعل الرجال ثم رمت بجسدها على الأريكة غير المريحة وقالت: «يا آنسة، سأنتقلُ بعيدًا عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منزلي في شارع إسبيلاند».

«آها!» صاحث العازفة، دون أن يبدو عليها الاندهاش ولا الاهتمام بالذات. إذ بدا وكأنه لا شيء يبعث على الدهشة فيها بالفعل. كانت تسعى جاهدةً لتعديل باقة البنفسج التي ارتخث من مكان ربطها في شعرها. سحبتها إدنا إلى الأريكة، أخذث دبوسًا من شعرها، شدّث الزهور الاصطناعية الرثة وثبتتها في مكانها المعتاد بإحكام.

«ألستِ مندهشة؟»

«ممكن. لأين ستذهبين؟ إلى نيويورك؟ إلى إيبرڤيل؟ إلى والدكِ في ميسيسيبي؟ لأين؟»

«على بعد خطوتين...» قالت إدنا ضاحكةً واستطردت: «في منزل صغير يتكون من أربع غرف في الشارع التالي. كلما مررتُ بهِ، يبدو لي جذابًا ومريحًا وذا طابع دافئ للغاية. وهو معروض للإيجار. لقد سئمتُ من العناية بهذا المنزل الكبير الذي لم يبدُ يومًا كمنزلي، لم أشعر فيهِ وكأنني في منزلي على الأقل وذلك يزعجني كثيرًا. أني مضطرة للإبقاء على الكثير من الخدم. لقد تعبت من تحمُّل عنائهم»

«هذا ليس السبب الحقيقي الذي يدفعكِ لذلك يا عزيزتي. لا فائدة من الكذب عليّ. أني أجهل دوافعكِ. ولكنكِ لم تقولي الحقيقةَ لي.»

لم تعترض إدنا على تعليق الآنسة رايس، ولم تحاول التبرير لنفسها.

«المنزل، المال الذي يكفلُ احتياجاتهِ، ليسا ملكي. أليس هذا سببًا كافيًا؟»

«إنه لزوجك»، أجابث الآنسة، وهي تهز كتفيها باستخفاف وترفع حاجبيها

بطريقةٍ ماكرة.

«أوه! أرى أنه لا سبيل لخداعكِ. إذن، سأخبركِ: إنها نزوة. أملكُ مبلغًا صغيرًا من المال من تركة أمي. يرسلهُ والدي لي على دفعاتٍ صغيرة. وربحث مبلغًا لا بأس به هذا الشتاء من الرهانات على سباقات الخيول. وبدأت أبيع لوحاتي. إذ أنّ ليپور مسرورٌ بعملي أيّما سرور. وهو يقول أنه يتطور تطوّرًا ملحوظًا وكبيرًا. لا أستطيع أن أحكم على ذلك بنفسي، لكنني أشعر أنني ازدتُ ثقةً وطمأنينة. ولكن كما قلت، فقد بعث عددًا كبيرًا من خلال ليپور. أستطيع العيش في منزل صغير مقابل القليل أو اللاشيء. مع خادمة واحدة -سيلستين العجوز- التي تعمل لدي من حين لآخر، تقول بأنها ستمكث معي وتقوم بعملي. أجزم أنّ ذلك سيروقُ لي، مثلما يروق لي الشعور بالحرية والاستقلال»

«ما رأي زوجكِ؟»

«لم أخبرهُ بعد. لم أفكر بالأمر سوى هذا الصباح. سيظنني مجنونة، بلا شك ولعلكِ تظنين ذلك لا محالة»

فهزّت الآنسة رأسها ببطء وقالت: «لم تتضح لي أسبابكِ بعد»

ولم تكن الأسباب واضحةً تمامًا لإدنا نفسها؛ لكنها كشفت نفسها وهي تجلس لفترةٍ من الوقت في سكونٍ تام. دفعتها غريزتها إلى التخلي عن معونةِ زوجها من خلال التخلي عن إخلاصها له. إنها تجهلُ كيف سيكون الأمر عندما يعود. سيحتاج الأمر إلى التفسير، وفهم الموقف. وشعرت أن الظروف ستعتدل ذاتيا بطريقةٍ ما، ولكن أيّاً كان ما سيحدث، فقد قررت ألّا تكون ملك شخصٍ آخر غير نفسها.

«سأقيم عشاءً ضخمًا قبل أن أغادر المنزل القديم» هتفت إدنا. «وعليكِ الحضور يا آنسة. سأحرص على تحضير كل ما ترغبين بهِ من طعام وشراب، سنغني ونضحك ونمرح ولو لمرة واحدة». وزفرتْ تنهيدةً عميقة، صدرتْ من أعمق أعماق كيانها.

فلو كان قد حدث أن تلقتْ الآنسةُ رسالةً من روبرت خلال فترات زيارات إدنا، فإنها كانت ستعطيها الرسالة من غير طلب. وكانت لتجلس إلى البيانو وتعزفُ بقدر ما يسمح لها مزاجها العزف، فيما تقرأ الشابة الرسالة. أخذ الموقد الصغير يزمجر من الحرارة، كان ساخنًا لدرجة الاحمرار، وكانت الشوكولاتة في القصدير تئز وتُبقبق.

مضتْ إدنا قُدُمًا وفتحتْ باب الموقد. أما الآنسة، فقد نهضتْ، أخرجتْ رسالةً من تحت تمثال بيتهوفن، وسلّمتها إلى إدنا.

«رسالةٌ أخرى؟! بهذهِ السرعة؟!» نادتْ إدنا، وعيناها مليئتان بالفرح. «أخبريني يا آنستي، هل يعرف أنني اقرأ رسائله؟»

«إطلاقًا! سيغضب ولن يعود للكتابة لي مجددًا إن عرفَ ذلك. هل يكتب لكِ؟ ولا سطرا! أيُرسل الرسالة لكِ؟ ولا كلمة! وذلك لأنهُ مغرمٌ بكِ. ذلك الأحمق المسكين! وهو يسعى جاهدًا لأن ينساكِ بما أنكِ متزوجة أو أن تكوني مُلكًا له»

«لماذا تريني رسائله إذن؟»

«ألم تتوسلي من أجل رؤيتهم؟ هل يمكنني أن أرفض طلبًا لكِ؟ أوه! لا يمكنكِ خداعي!»

واقتربت الآنسة من آلتها العزيزة وبدأت بالعزف. لم تقرأ إدنا الرسالة على

الفور، بل جلستْ ممسكة الرسالة بيدها. في حين أخذتْ الموسيقا تتغلغل في كيانها برمتهِ، كما لو أنها ضوء النهار، تبعثُ الدفء والضياء في أروقة روحها المظلمة. لقد أعدّتها للسرور والابتهاج.

«آه!» صاحت إدنا مندهشة، وسقطتْ الرسالة على الأرض من يدها وأردفتْ: «لماذا لم تخبريني؟» وتوجهت إلى الآنسة رايس، أمسكت بيدها وأبعدتها من على مفاتيح البيانو: «يا لكِ من قاسية! يا لكِ من ظالمة! كيف لم تخبريني؟»

«بعودتهِ؟ لم أرَه أمرًا مهمًا، يا للهول! أستغرب عدم عودتهِ منذ وقتٍ طويل»

«لكن متى؟ متى؟ لم يذكر ذلك» صرختْ إدنا بصبرٍ نافد.

«إنهُ يقول: ‹عمّا قريب›. وأنت تعرفينه بقدر ما أعرفهُ. كل شيء مكتوب في الرسالة»

«ولكن لماذا؟ لماذا هو عائد؟» سألت إدنا التي التقطت الرسالة من على الأرض وأخذتْ تُقلّب الصفحات يمينًا ويسارًا باحثةً عن سببٍ لم يُحك.

«لو كنتُ امرأةً في ريعان شبابي وواقعةً في حُبِ رجُل...» أجابتْ الآنسة رايس، والتفت بكرسيها وهي تدُس يديها النحيلتين بين حجرها وتنظر إلى إدنا التي تجلس على الأرض مُمسكةً بالرسالة، وتابعت: «لو أُغرِمتُ برجل، فيبدو لي أنه ينبغي أن يكون رجلًا متقد الذكاء، ذا عقلٍ نيّرٍ، وأهدافٍ سامية، وقدرة على الوصول إليها. رجلًا ذا مكانةٍ مرموقةٍ بما يكفي لجذبِ انتباه أقرانهِ من الرجال. من الواضح لي أنه لو كنت شابةً، على وشك الوقوع في الحب، فينبغي ألّا أفكر برجلٍ عاديّ لا يستحق حبي»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أنتِ من تتفوه بالأكاذيب الآن وتسعى لخداعي يا آنستي. وإلا، فأنكِ لم يسبق لكِ الوقوع في الحب، ولا تعرفين شيئاً عنهُ! عجبًا!» وواصلت إدنا، وهي تشبك ركبتيها وتنظر لوجه الآنسة الملتفت: «هل تعتقدين بأن المرأة تعرف لماذا تُغرم؟ وهل بيدها الاختيار؟ هل تقول لنفسها: ‹تحرّكي! ها هنا رجلُ دولةٍ كفءٌ يتمتع بإمكانيات رئاسية، عليكِ الوقوع في حبه› أم ‹أحبي هذا الموسيقار، الذي شهرته على كل لسان!› أو، ‹أحبّي هذا الممول الذي يتحكم في أسواق المال العالمية!›»

«أنكِ تسيئين فهمي عمدًا يا سيدتي! أأنتِ مغرمةٌ بروبرت؟»

«بلى...» قالت إدنا، وكانت هذهِ هي المرة الأولى التي تعترف بذلك. عمَّ وجهها بإشراقة بهيّة تخللتها حمرة شديدة.

«ما السبب؟ لماذا تُحبينهُ بينما لا يجدر بكِ أن تُحبيه؟!»

شدّت إدنا ركبتيها إلى حِجرها، بحركةٍ واحدة أو اثنتين قُبالة الآنسة رايس، التي أمسكت بدورها وجه إدنا المشرق بين يديها.

«لماذا؟ لأن شعرهُ بُنيّ اللون يسترسل على صدغهِ. لأنه يفتح عينيهِ ويغلقها. لأن علاقتهُ بالرسم شبه معدومة. لكونهِ يملك شفتين رائعتين، وذقنٌ جذّاب وأصابع محنيةٍ لا يمكنهُ تسويتها من لعبِ البيسبول في صِباه بكل حماسةٍ وقوة. ولأنه...»

«لأنكِ مغرمةٌ بهِ... خُلاصة القول!» ضحِكت الآنسة. «ماذا ستفعلين عندما يعود؟»

«ماذا أفعل؟! لا شيء. باستثناء الشعور بالامتنان والبهجة لكوني على قيد الحياة!»

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وكانت تشعرُ فعلًا أنها مُمتنة وسعيدة لأنها على قيد الحياة لمجرد فكرة عودتهِ. فالسماء المكفهرة، التي جعلتها تغتم قبل بضع ساعات، بدث وكأنها تمدها بالأمل والحياة وهي تشق الطُرقات في طريقها إلى المنزل.

ثم توقفث عند متجرٍ للحلويات وطلبت علبةً كبيرة من الحلوى للأطفال في إيبرڤيل. ووضعت ورقة في الصندوق كتبث فيها رسالةً حنونةً، تحمل الكثير من القبلات.

مساءً، وقبل تناول العشاء، كتبث إدنا رسالة ساحرةً لزوجها تخبره فيها عن نيتها في الانتقال لفترة من الوقت إلى المنزل الصغير في الشارع المجاور، وإقامة عشاءٍ وداعيَ قبل المغادرة، آسفة لعدم وجودهِ معها لمشاركتهِ إياها، وكي يساعدها في إعداد قائمة الطعام ويشاركها في تسلية الضيوف. كانت رسالتها رائعة، مفعمةً بالبهجة.

«ما خطبكِ؟ «سألها أروبين في ذلك المساء «لم أزكِ أبدًا بمثل هذا المزاج المرح»

كانت إدنا متعبة في ذلك الوقت، وكانت مستلقية على أريكة أمام الموقد.

«ألم تعلم أن الطقس أخبرنا أننا سنرى الشمس عمّا قريب؟»

«سأعدّهُ سببًا كافيًا، لأنكِ لن تعطيني سببًا آخر وإن جلستُ هنا طوال الليل أتوسلُ إليكِ.» وافقها أروبين القول ثم جلس بقربها على كرسيّ واطئ بلا مسندٍ أو ذراعين. وفيما كان يتحدث، لامستْ أصابعهُ برِفقٍ شعرها الذي تناثر على جبهتها قليلًا. أحبتْ إدنا ملمس أصابعه يتخلل شعرها، فأغلقت عينيها بكل ما تملك من رّقة في الشعور.

«في يومٍ من الأيام، سوف ألملم شتات نفسي لفترةٍ من الوقت، وأفكر، في محاولةٍ لتحديد شخصية المرأة التي أنا عليها. لأنني وبكل صراحة، أجهل أي شخصيةٍ من النساء أنا. وبكل الأعراف والتقاليد التي أعرفها، أعتبرُ مثالًا سيئًا جدًا لبناتِ جنسي. لكن بطريقة ما، لا يمكنني الاقتناع بأني سيئة. لا بد أن أفكر في ذلك».

«لا تفكري. ما الفائدة؟ لِمَ عليكِ أن تُكلّفي نفسكِ عناء التفكير في ذلك بينما أستطيع إخباركِ أي نوع من النساء أنتِ «. وكانت أصابعه تنحرفُ من حين إلى آخر، على خديها الناعمين الدافئين وذقنها المكتنز، الذي أخذ يزداد استدارةً وبروزًا.

«أوه، نعم! ستخبرني بأنّي امرأةٌ فاتنة، كل شيء فيها يأسر الأنظار! وفّر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على نفسك المجهود»

«كلا. لن أخبركِ بأشياء من هذا القبيل، مع أنني لا أكذب إن قُلتُ ذلك»

«هل تعرف الآنسة رايس؟ «سألتُ للخروج عن الموضوع.

«عازفة البيانو؟ أعرفها بالنظر. لقد سمعتُ عزفها»

«إنها تقول كلامًا غريبًا أحيانًا بطريقةٍ مُمازحة، لا تُعرهُ انتباهًا في حينهِ، ثم تجدُ نفسك تفكر بقولها فيما بعد.»

«على سبيل المثال؟»

«حسنًا، على سبيل المثال، عندما هممتُ بالمغادرةِ اليوم، وضعت ذراعيها حولي وأخذتْ تتلمس لوحا كتفي، لمعرفة ما إذا كانت أجنحتي قوية ثم قالت: **إنَّ الطائر الذي يحلّق أعلى من الحدود الطبيعية للتقاليد والأحكام في سربهِ، ينبغي أن يكون طائرًا ذا أجنحةٍ لا تُقهَر.** إنه لمشهد محزن رؤية الطيور ضعفاء، مكسوري الأجنحة، يرفرفون صوبَ الأرض مجروحين! إلى أين تُحلق من جديد؟»

«لا أفكرُ بالتحليق فوق العادات. وإنما أحاول استيعاب جزءٍ منها» قال أروبين ثم أضاف: «سمعتُ أنها شبه مجنونة»

«تبدو لي بكامل قواها العقلية»

«قيل لي أنها بغيضة للغاية وسيئة. لماذا تُحدّثيني عنها في اللحظةِ التي أتوق فيها للحديث عنكِ؟»

«أوه! ابدأ بالحديث عني إن كُنتَ راغبًا» صاحتْ إدنا، وشبكتْ يديها تحت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأسها «لكن دعني أفكر في شيء آخر حتى تقرر الحديث»

«أشعر بالغيرة من أفكاركِ الليلة. إنها تجعلك ألطف من المعتاد قليلًا. وبطريقة ما، أشعر كما لو أنّ فكركِ هائم، كما لو أنهُ ليس هنا معي»

رمقتهُ إدنا بنظرةٍ فحسب، ثم ابتسمت. كانت عيناه قريبتين جداً منها، فنهض ومال فوق الأريكة، اقترب منها وأخذ يُمرِّر يدهُ على جسدها، فيما كانت اليد الأخرى ما تزال منغمسةً في مداعبة خصلات شعرها. تماديا بالنظرات دون أن ينبس أحدهما ببنتِ شفة، حتى انحنى نحوها، وقبّلَها. فأمسكتْ رأسه بقوةٍ على حين غرّة، وأطبقتْ شفتيهِ على شفتيها. في الحقيقة، كانت القُبلة الأولى في حياتها التي استجابت لها غريزتها. وكانت بمثابةِ شعلةٍ مضطرمة، أشعلتْ شهواتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بكت إدنا قليلاً في تلك الليلة بعد أن غادرها أروبين. إذ لم تكن تلك سوى فترة واحدة، حافلة بالكثير من المشاعر المتضاربة التي عصفت بها والتي رافقها شعورٌ عارم من اللامبالاة. فهناك صدمةٌ تحلُّ على المرء بطريقةٍ مباغتةٍ لا يألفها.

كان عتاب زوجها يُطيل النظر إليها من وراء الأغراض المنزلية المحيطة بها والتي أعدّها لأجل راحتها في هذه الحياة. وكانت ملامة روبرت تُثبت وجودها من خلال حُبٍّ غامرٍ، جَم، قد استيقظ في أعماقها اتجاهه. وقبل أي شيءٍ آخر، كان ثمّة إدراك. إذ شعرتْ كما لو أن غشاوةً قد أزيحت من عينيها، مما مكّنها من استيعاب وفهم مغزى الحياة، تلك القوّة المهولة، المكوّنة من القسوة والجمال. ولكن من بين كل الأحاسيس المتناقضة التي داهمتها، لم يكن ثمّة أدنى شعور بالخزي أو الندم. نعم، هناك وخزةٌ خفيفةٌ من الحزن- لا لشيءٍ آخر- سوى لأنّ قبلة أروبين، لم تكن قُبلة الحب التي أشعلت جذوة رغباتها، لأنّهُ ليس الحب الذي حمل فُنجان الحياة هذا، إلى شفتيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سارعت إدنا بالاستعدادات الخاصة بترك منزلها في شارعِ اسبيلاند والانتقال الى بيتٍ صغير في الشارع المجاور دون حتى انتظارِ جوابٍ من زوجها عن رأيه أو رغباته في هذه المسألة. لازمها توقٌ شديد في كل خطوةٍ تتخذُها صوبَ ذلك الاتجاه. ما كانت تملك لحظةً واحدة للتفكير بتأنٍ، ولم يكن ثمة فترة استراحةٍ بين الفكرة وتنفيذها. في الصباح الباكر، وبعد انقضاء تلك الساعات برفقةِ أروبين، شرعت إدنا في تأمين مسكنها الجديد وتسريع ترتيباتها للسكن فيهِ. ففي محيط منزلها، شعرت بأنها كمن عاشت وبقيت عالقة وراء بواباتٍ تشبه بوابات المعابد المحرمة حيث ارتفعت الآلاف من الأصوات المكتومة. وطالبتها بالانصراف.

نقلت إدنا كل ما كان عائدًا لها في المنزل إلى المنزل الآخر، كل ما كانت قد اكتسبتهُ هي بغض النظر عن هدايا زوجها، كي تسد النقص الضئيل في منزلها الجديد من مواردها الخاصة.

وجدها أروبين بأكمام مرفوعة وهي تعمل مع خادمة المنزل أثناء بحثهِ

عنها بعد الظهيرة. بدت مدهشة وقوية، ولم تبدُ يومًا أجمل مما كانت عليهِ بذلك الثوبِ الأزرق العتيق، ووشاح الحرير الأحمر الملفوف جزافًا حول رأسها، لحماية شعرها من الغبار. كانت تعتلي سُلّمًا عاليًا، تفك لوحةً من على الحائط عندما وصل ورأى باب المنزل مفتوحًا، وقرعهُ ودخل يسير بدون تكلُّف.

«انزلي!» قال أروبين «هل تنوين أن تقتلي نفسكِ؟»

فحيّته ببرودٍ متكلف، إذ بدت منهمكةً في مهمتها. لا بد أنه فوجئ كثيرًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو كان يتوقع رؤيتها وهي تقاسي معاتبةً إياه أو منغمسةً في مزاجٍ عاطفيٍ حزين. ومما لا شك فيه، أنه كان متأهبًا لأي طارئ، ومستعدًا لأيٍ من المواقف السالفة الذكر كما كان يتصرف تلقائيًا وبكل يُسر في المواقف التي واجهتهُ.

«انزلي من فضلك» أصر أروبين، ممسكاً بالسُلم وينظر اليها.

«كلا. تخشى إيلين صعود السلم. وجُو يعمل في ‹عِش الحَمام›. هذا هو الاسم الذي أطلقتهُ إيلين على مسكني الجديد، لأنه صغيرٌ جدًا ويبدو مثل عش الحَمام. وعلى أحدِهم أن يقوم بهذهِ الأعمال»

خلع أروبين معطفه، وأبدى استعدادهُ ورغبتهُ في إغواء القدرِ، بدلاً منها. جلبت له إيلين واحدة من أغطية شعرها الواقية من الغبار. وعندما رأتهُ وهو يرتدي الغطاء أمام المرآة بطريقةٍ غريبةٍ جدًا، أخذت قسمات وجهها تلتوي بطريقةٍ لا إرادية من الضحك الذي وجدت أنه من المستحيل السيطرة عليهِ.

حتى إدنا، لم تستطع الامتناع عن الابتسام عندما ثبتت الغطاء بناءً على طلبهِ. كان دورهُ هو اعتلاء السلم، فكَ الصور ورفع الستائر، وتحريك الزينة من موضعها بحسب توجيهاتِ إدنا. وعندما انتهى من عمله، خلع الغطاء الواقي من الغبار، وخرج ليغسل يديه.

كانت إدنا جالسةً على كرسي بيانو، وهي تزيل الأوساخ بتأنٍ من أطراف مِنفضة ريشٍ على طول السجادة عندما عاد أروبين مرةً أخرى.

«هل هناك أي شيء آخر يمكنني فعلهُ» سأل.

«هذا كل شيء، بوسعِ إيلين تدبُر الباقي» أجابت إدنا، إذ أبقت الشابة منهمكة بالعمل في قاعة الضيوف، غير راغبة في تركها وحدها مع أروبين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«ماذا عن العشاء؟ الحدث الكبير؟! الانقلاب السياسي؟»

«سيكون بعد يوم غد. لماذا تدعوه ‹انقلاب سياسي›؟ أوه سيكون الأمر على ما يرام، سيكون هناك الأفضل من كل شيء. أوانٍ من الكريستال والفضة والذهب وحتى البورسلين. وسيكون هناك زهور وموسيقا، وشمبانيا كثيرة. سأجعل ليونس يدفع الفواتير. أتساءل ماذا سيقول عندما يرى الفواتير!»

« وتسأليني لماذا أسميهِ انقلابًا سياسيًا؟!»

ارتدى أروبين معطفه، ووقف أمامها وسألها فيما إذا كانت ربطة عنقهِ بوضعٍ صحيح. أخبرته أنها لا تبدو أعلى من طرفِ ياقتهِ.

«متى تقيمين في عش الحَمام؟ مع فائق تقديري لـ إيلين»

«بعد الغد، بعد أمسية العشاء. يجدر أن أنام هناك»

«إلين، هلّا تفضلتِ بإحضار كأس من الماء لي؟» سأل أروبين «فغُبار الستائر، إذا سمحتِ لي بالقول، قد جَفّف حنجرتي وجعلني أشعر بعطش شديد»

«بينما تحضر إيلين الماء، سأودعك، وأتركك تذهب. عليّ أن أتخلص من هذهِ القذارة، وأمامي الكثير للقيام به، والتفكيرَ فيهِ» قالت إدنا ونهضت.

«متى سأراكِ؟» صاح أروبين ساعيًا لإيقافها، بعد أن غادرت الخادمة الغرفة.

«على العشاء بالطبع. أنك مدعو»

«ليس قبل ذلك؟ هذهِ الليلة؟ أو غداً صباحًا أو ظهرًا أو مساءً؟ أو فجر بعد

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الغد أو عصرًا؟ ألا يمكنكِ أن تفهمي معنى الأبدية دون أن أقول لكِ ذلك؟»

ولحق بها إلى القاعة حتى أسفل الدَرج، ناظرًا إليها وهي ترتقي الدَرجات ونصف وجهها ملتفتٌ نحوه.

«ليس أبكر من ذلك» قالت. لكنها ضحكت ورمقتهُ بنظرةٍ منحتهُ القوة للانتظار، وتركتهُ يعاني من لوعةِ الانتظار في آنٍ واحد.

مع إنَّ إدنا قد تحدثت عن العشاء على أنه سيكون عشاءً ضخمًا، إلا أنه في حقيقة الأمر، كان عبارة عن مأدبة صغيرةٍ للغاية ومنتقاة بعناية. فالمدعوون قليلون، إذ اختارتهم إدنا على أساس المحاباة. كانت قد حصرت عددهم في اثني عشر شخصًا يجلسون إلى مائدة الطعام المصنوعة من خشب الماهوغني، ناسية في تلك اللحظة، أنّ السيدة راتينيول لم تكن بصحةٍ ومظهرٍ جيدين أبدًا كي تتمكن من تلبية دعوتها. ولم تتوقع أن السيدة ليبرون سترسل آلالاف الاعتذارات لعدم المجيء في اللحظة الأخيرة. لذا وفي نهاية المطاف لم يتبقَ سوى عشرة أشخاص، الأمر الذي جعل من حضورهم وديًا ومريحًا.

ومن بين الحاضرين، كان آل ميريمان. السيدة ميريمان، امرأة جميلة شابة في الثلاثينات من عمرها، مفعمة بالحيوية والمرح. وزوجها السيد ميريمان، رجلٌ بشوش، سطحيٌ إلى حدٍ ما، ينفجرُ ضحكًا على نُكات الآخرين، وهذا ما جعل منهُ شخصيةً محبوبةً للغاية. وانضمت إليهم السيدة هايكام. حضر ألسي أروبين بلا شك. ووافقت الآنسة رايس على الحضور بعد أن أرسلت لها إدنا باقةً جديدة من البنفسج وزينةٍ بلونٍ أسود من الحرير لأجل شعرها. اعتذر السيد راتينيول نيابةً عن زوجتهِ وعنه. أما فيكتور ليبرون، الذي صادفَ وجوده في المدينة، عازمًا على أن ينال قسطًا من الراحة، فقد لبى الدعوة بكل سرور. ومن بين المدعوين كان هناك الآنسة مايپلانت، التي تجاوزت مرحلة المراهقة، وكانت ترى العالم من خلال نظّارات يدوية باهتمام كبير. فقد ساد اعتقاد كما قيل، بأنها شخصيةٌ ذات اهتمامات فكرية وثقافية، ويُشتبه ُبأنها تكتبُ تحت اسمٍ حركي. كانت قد حضرتْ مع سيّدٍ يدعى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غفرنيل، لهُ صلة عمل بإحدى الصحف اليومية، ولا يمكن أن يُشاع عنه شيء مهم باستثناء كونه سريع الملاحظة، وبدا هادئًا ومُسالمًا. كانت إدنا نفسها الشخص العاشر من بين الحضور. جلس الجميع إلى المائدة عند الثامنة والنصف. فجلس أروبين والسيد راتينيول على جانبي إدنا. وجلست السيدة هايكام بين أروبين وفيكتور ليبرون، في حين جلس كلٌّ من السيدة ميريمان، والسيد غفرنيل، والآنسة مايبلانت، والسيد ميريمان والآنسة رايس بالتتابع، على جانب السيد راتينيول.

كان ثمة شيءٌ ما خلّاب للغاية في مظهر المائدة، تأثيرٌ من الروعة يعكسهُ مفرشٌ من الساتان الأصفر الباهت، المشغولٌ بشرائط من نسيج الدانتيل. وكان هناك شموع مثبتة في شمعدانٍ نحاسيٍ ضخم، تشتعلُ بعذوبةٍ ناشرةً ظلال من اللون الأصفر الناعم. وكانت المائدة تزخر بالكثير من الورود، حمراء وصفراء، كاملة الإزهار وتغمر المكان بعبير شذاها. وكان هناك أدواتٌ من الفضة والذهب، كما قالت إدنا، وأخرى من الكرستال، تتلألأ مثل الجواهر التي وضعتها النساء.

تخلّصت إدنا من كراسي الطعام العادية لأجل هذهِ المناسبة، واستبدلتها بكراسي أكثر فخامةً واتساعًا، يمكن تحصيلها في جميع أنحاء المنزل. ونظرًا لأن الآنسة رايس، كانت ناعمةً للغاية، فقد وضعوا لها وسائد على كرسيها لرفعها إلى مستوى المائدة، كما يُرفَع الأطفال الصغار أحيانًا إلى مستوى مائدة بحجم ضخم.

«هل هذا الخاتم جديدٌ يا إدنا؟» صاحت الآنسة مايبلانت، وهي توجّهُ نظارتها اليدوية نحو خاتمٍ تعلوهُ مجموعة ألماسات رائعة تتلألأ -حتى لتكاد تتفرقع- في شعر إدنا، أعلى قليلًا من منتصف جبهتها.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«جديدٌ تمامًا. وفي الواقع هديةٌ من زوجي وصلت هذا الصباح من نيويورك. ولي أن أقول: أنّ اليوم عيد ميلادي، وأنّي بلغتُ التاسعة والعشرين من عمري. وبما أن الوقت مناسب، لكم أن تشربوا نخب صحتي، لذلك سأطلب منكم البدء بهذا الكوكتيل، الذي حضّرهُ... هل تقولون الذي حضّرهُ؟ ...» ووجهتْ السؤال للآنسة مايبلانت، وأكملت: «الذي حضّرهُ أبي على شرف زفاف أختي جانيت»

كان أمام كل ضيف، كأسٌ صغيرة تتلألأ تشبهُ جوهرة من العقيق الأحمر.

«إذن، إن كان كذلك، سنكون مُقصرّين إن لم نبدأ الشراب نخب العقيد بالكوكتيل صنعهُ، في عيد ميلاد أكثر النساء سحرًا، الابنة التي أنجبها».

وانطلقتْ ضحكة السيد ميريمان على هذه الأطروفة مثل فَوْرة حقيقية ومُعدية جدًا، لدرجة أنه أطلق العنان لبدء العشاء بنشاطٍ مُحبّب لم يفتر أبدًا.

طلبتْ الآنسة مايبلانت أن يُسمَح لها بإبقاء الكوكتيل أمامها دون أن تلمسهُ، فقط كي تنظر إليه. إذ كان اللون رائعًا! ولم تستطع مقارنتهُ بأي شيء رأته من قبل، فالتماعات العقيق التي تنبعث من الكأس كانت نادرة بشكلٍ لا يوصف. فأشادت بالعقيد ووصفتهُ بـ «الفنان» والصقت التسمية به.

فيما أبدى السيد راتينيول استعدادهُ لأخذ الأمور على محمل الجد، بدءًا من أصناف الطعام، المقبلات، الخدمة، الديكور، وحتى الناس. ثم رفع بصرهُ من طبق سمكِ البنبان الخاص به، وسأل عما إذا كان لأروبين صلة قرابة بالرجل الذي يحمل هذا اللقب، وهو المؤسس لإحدى شركات المحامين (لايتنر وأروبين). فأقرّ الشاب بأن لايتنر كان صديقًا مُقرّبًا، سمح لاسم عائلة أروبين بتزيين أوراق الشركة الرسمية والظهور على لوحة تُزين شارع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بيرديدو.

«يزداد الأشخاص الشغوفون والمؤسسات الضخمة الداعمة بأعدادٍ كبيرة جدًا، حتى أن المرء يُجبَر هذه الأيام-من باب الأمان- على التمسك بنزاهتهِ في مهنتهِ، إن لم يكن يملك غيرها» قال أروبين، فأخذ السيد راتينيول يحدّق لوهلة، ثم استدار ليسأل الآنسة رايس إن كانت تعتبر الحفلات السيمفونية ترقى لمعايير الحفلات التي أقيمتْ في الشتاء المنصرِم.

أجابت الآنسة رايس على سؤال السيد راتينيول باللغة الفرنسية. وقد عدّته إدنا تصرُّفًا وقحًا بعض الشيء، في ظل تلك المناسبة، إلا أنّه شيءٌ يخصها. لم يكن لدى الآنسة سوى ملاحظات بغيضة لتقولها عن الحفلات السيمفونية، وعبارات مهينة لجميع موسيقيي نيو أورليانز، فُرادى وجماعات. وبدا أن كل اهتمامها منصبٌ على الأطعمة الشهية الموضوعة أمامها.

وقال السيد ميريمان أن ملاحظة السيد أروبين حول الأناس الشغوفين ذكّرته برجل من واكو، قابلهُ في فندق القدّيس تشارلز قبل أيام. ولكن، بما أنّ قصص السيد ميريمان كانت دائمًا مُملّة، وتفتقر إلى المغزى، فإنّ زوجتهُ نادرًا ما تسمح له بإكمالها. وهكذا قاطعتهُ لتسأله عما إذا كان يتذكر اسم المؤلف الذي اشترت كتابه في الأسبوع الماضي، لإرسالهِ إلى صديقٍ لها في جنيف. كانت تتحدث عن «الكتب» مع السيد غفرنيل، وتحاول أن تستخلص منه رأيه في الموضوعات الأدبية الحالية. حكى زوجها قصةَ رجل واكو على انفراد للآنسة مايبلانت، التي تظاهرت بأنها مستمتعةٌ إلى حدٍ كبير وأنها تظنها قصةً مبهرة.

انشغلت السيدة هايكام باهتمامٍ مُمِل ولكن حقيقي، بالثرثرة اللطيفة لفيكتور ليبرون الجالس إلى يسارها. لم يتشتت انتباهها عنه ولو للحظة

منذ أن جلست إلى المائدة. وعندما التفت فيكتور إلى السيدة ميريمان، التي كانت أجمل وأكثر مرحًا من السيدة هايكام، انتظرت فرصةً لاستعادة انتباهه بِبُزوغٍ عفويٍ. كان ثمة صوت موسيقا يرتفع من حين لآخر ينبثق من آلة مندولين (23) بعيدةً بما فيه الكفاية لتشكّل ضَجبةً عذِبة دون مقاطعة للأحاديث. من خارج المنزل، يمكن سماع صوت تناثر رتيب للنافورة؛ ينفذُ إلى الغرفة ويتسرب معهُ من النوافذ المفتوحة، رائحة الياسمين الفواح.

انتشر اللمعان الذهبي لفستان إدنا الحريري في ثنيات بهيّة على كلا جانبيها. كان هناك تدلٌ ناعم من الدانتيل يطوق كتفيها بلون بشرتها، من غير توهج، عددٌ لا يحصى من الألوان الحيّة التي قد يكتشفها المرء أحيانًا في جسدٍ نابضٍ بالحياة. وكان ثمّة شيء ما في موقفها وفي حضورها برمّتهِ. عندما اتكأت برأسها، إلى الكرسي عالي الظهر، وبسطت ذراعيها، بدث وكأنها امرأةٌ ذات أصول ملكية. امرأة تحكم وتفكر، وتقف وحيدةً.

لكن فيما جلست هناك وسط ضيوفها، اجتاحها شعورٌ مألوف بالضجر. الشعور باليأس الذي لطالما هاجمها كهاجس، مثل شيءٍ غريب، خارج عن الإرادة.

لقد كان شيئًا أعلنَ عن ذاتهِ، نسيمٌ باردٌ، بدا وكأنه يهبُّ من كهفٍ واسع حيث الخلافات بانتظارها. وهناك اعتراها شوقٌ مُبكٍ، لهفة لطالما استحضرتْ في رؤاها الروحية «شبح المحبوب»، لتغمرها بأحاسيس صعبة المنال، على الفور.

وانقضى الوقت، كما يمر الشعور بالرفقة الطيبة حول دائرة الأصدقاء، مثل حبلٍ سرّي، يشد ويربط هؤلاء الناس بحس الدعابة والضحك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان أول من كسر التعويذة البهيجة تلك هو السيد راتينيول، إذ اعتذر عند تمام العاشرة لكون السيدة راتينيول بانتظارهِ في المنزل معتلّة الصحة، تملؤها توجسات غامضة، لا يمكن تهدئتها إلا بوجود زوجها. ثم نهضت الآنسة رايس مع السيد راتينيول، بعد أن عرض عليها مرافقتها إلى العربة. لقد أكلتْ جيدًا، وشربت من النبيذ الفاخر، ولا بد أنها ثملت، لأنها انحنت لكل الحاضرين على نحوٍ مضحك بعد أن انسحبث من المائدة. ثم قبلت إدنا من كتفها وهمست:

«طابث ليلتكِ أيّتها الملكة. أحسني التصرف»

بدث الآنسة رايس شبه متحيّرة أثناء النهوض أو بالأحرى، نزولها من على الوسائد. فأخذ السيد راتينيول بيدها وقادها بعيدًا بطريقةٍ تنمُّ عن شهامة.

أما السيدة هايكام، فكانت تنسج إكليلًا من الورود الصفراء والحمراء. وعندما أنهت الإكليل، وضعته برفق على شعر فيكتور الأسود المجعد. إذ كان يجلس مسترخيًا للخلف على كرسي فخم، ممسكًا بكأسٍ من الشمبانيا في وجه الضوء.

وكما لو أنّ عصا ساحرٍ قد مسّته، حوّلهُ إكليل الورود إلى صورةٍ طبق الأصل، من الجمال الشرقي. بوجنتينِ بلون العنب المهروس، وعيناه الداكنة، تتوهجان بحماسٍ فاتر.

«يا إلهي!» هتف أروبين.

لكن، كان للسيدة هايكام، لمسةٌ أخرى تُضيفها على الصورة. فأخذث وشاحًا حريريًا أبيض اللون، معلّقًا على ظهرِ كرسيها، كانت قد غطث به كتفيها في الجزء الأول من السهرة. ولفتها حول جسد الشاب في ثنيات أنيقة المظهر،

لإخفاء بدلة السهرة السوداء التقليدية، على نحوٍ ما. لم يبدُ فيكتور أنه يمانع ما تفعلهُ السيدة بهِ، بل اكتفى بالابتسام وحسب، كاشفًا عن لمعةٍ خفيفة من أسنانهِ البيضاء، بينما استمر في إمعان النظر إلى الضوء من خلال كأس الشمبانيا خاصته، وهو يضيق عينيه.

«يا إلهي! معنى أن يكون الرسم بالألوان أبلغ من الكلمات» قالت السيدة مايبلانت، وهي تسلم نفسها لحُلمِ يقظةٍ عاطفي مبالغ فيه، وهي ترمقهُ بعينيها.

«ثمَة تمثالٌ منحوت من الرغبة

مطليٌ بدماءٍ قانيةٍ على أرض من ذهب» (22)

قال غفرنيل بصوتٍ مهموس.

كان تأثير النبيذ على فيكتور يتمثل في إبدال ثرثرتهِ المعهودة إلى حالةٍ من الصمت المطبق. إذ يبدو أنه سلَّم نفسه لحُلم، ليلتقط رؤى سارَّة في فقاعات النبيذ ذات اللون الكهرماني.

«غنِّ لنا» طلبت السيدة هايكام، «ألن تغنِّ لنا؟»

«دعيه وشأنه» قال أروبين

«إنّه يُمثّل» صرّح السيد ميريمان. «دعوهُ يُخرج ما بداخلهِ من مواهب»

«أظنه أصيبَ بالشلل» علقت السيدة ميريمان ضاحكةً، ثم مالت ناحية كرسي الشاب، أخذت الكأس من يده، وقرَّبتهُ من شفتيه. فرشف فيكتور النبيذ ببطء، وعندما فرغ الكأس وضعته على الطاولة ومسحت شفتيه بمنديلها الشفّاف الصغير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«بلى، سأغني لكم،» قال فيكتور وهو يستدير في كرسيه نحو السيدة هايكام. ثم شبك يديه خلف رأسه، نظر إلى السقف وبدأ يهمهم قليلًا ليُجرّب صوته، كموسيقار يضبط آلة موسيقية. ومن ثم، نظر إلى إدنا، وبدأ في الغناء:

«آه! ليتكِ تعلمين!»

«توقف!» صرخت إدنا، «لا تغنّها. لا أريدك أن تغنيها» وأطرقت كأسها على الطاولة، بعنفٍ ودون تفكير، حتى هشمتهُ على قارورة النبيذ. أريق النبيذ على ساقي أروبين، فيما سال بعضهُ على فستان السيدة هايكام الأسود الرقيق. تناسى فيكتور كل انطباع عن الكياسة، أو ظن بأن مضيفته لم تكن جادةً في طلبها لأنه أخذ يضحك وتابع:

«ليتكِ تعرفين

بما تشيانهُ عيناكِ لي»

«أوه! لا تُغنِّ! لا تُغنِّ!» صاحت إدنا متأوهة. ثم دفعت كرسيها للخلف ونهضت. وذهبت ووقفت خلفه، وضعت يدها على فمه. فلثَمَ فيكتور راحة كفها ناعمة الملمس، التي أطبقَت على شفتيه.

«لن أغنيها يا سيدة بونتيلييه، لم أكن أعرف أنك تعنين ذلك» علق فيكتور وهو يتطلع إليها بنظرات تمسّ القلب. كانت لمسة شفتيه أشبه بوخزة إبرةٍ في يدها، لكنها وخزة مُحببة إلى النفس. رفعت إكليل الورود من رأسه ورمتها في الغرفة.

«هيّا يا فكتور؛ لقد قضيتَ وقتا طويلًا بما فيه الكفاية. أعطِ السيدة هايكام وشاحها». نزعت السيدة هايكام الوشاح عنه بيديها. ثم أدرك كلًا من الآنسة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مايبلانت والسيد غفرنيل فجأةً، أن الوقت قد حان للمغادرة وتمني ليلة سعيدة للجميع. واستغرب السيد والسيدة ميريمان كم أن الوقت كان متأخرًا جدًا.

وقبل أن تودّع السيدة هايكام فيكتور، دعته لزيارة ابنتها، التي كانت تعرفُ أنها ستُسعد بمقابلته والتحدث معه وغناء الأغاني الفرنسية. وأعرب فيكتور عن رغبته ونيته في دعوة الآنسة هايكام في أول فرصة تُتاح له. ثم سأل فيما إذا كان أروبين، سيمضي في طريقه، إلا أنّ أروبين لم يكن كذلك.

غادر عازفو المندولين منذ وقتٍ طويل. فأطبقَ هدوء عميق على الطريق الواسع الجميل. كانت الأصوات المتفرقة لضيوف إدنا تتذبذب خابئةً، مثل نوتةٍ موسيقيةٍ ناشزة، أمام إيقاع الليل الهادئ.

---

(23)المندولين آلة موسيقية وترية ذات رقبة نحيفة متّصلة بجسم كُمثّريّ الشكل يشبه العود. وشبيهة باللوت كذلك ولكنها أصغر منه. وهي ذات أربعة أو خمسة مسارات مزدوجة، ويتم العزف عليها بواسطة النقر على الأوتار باستعمال الريشة.

(22)مقتبس من قصيدة (حجر بنقش بارز) للشاعر ألغرنون تشارلز سوينبرن، مكوّنة من 14 بيت يصف فيها المشاعر القوية للرغبة والألم واللذة والشبع والكراهية كشخصيات معذبة جسديًا في عالم فانٍ.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«حسنا؟» استعلم أروبين الذي بقي مع إدنا بعد أن رحل الآخرون.

«حسنا...» كررت إدنا وانتصبت واقفة. ثم مدّت ذراعيها، وشعرت بالحاجة إلى إرخاء عضلاتها بعد أن جلست لفترة طويلة.

«ماذا بعد ذلك؟» سأل أروبين.

«رحل الخدم. غادروا جميعًا عند مغادرة الموسيقيين. لقد صرفتهم من العمل. يجب إغلاق البيت ووضع الأقفال على بابه، ثم سأنطلق الى عِش الحَمام سريعًا سأبعث بالخادمة سيلستين في الصباح لتوضيب المائدة»

ألقى أروبين نظرةً من حوله، وبدأ بإطفاء بعض الأنوار ثم سأل:

«ماذا عن الطابق العلوي؟»

«أعتقد أنّ كل شيء على ما يُرام. ولكن قد توجد بعض النوافذ غير المقفلة. حرِيٌ بنا أن نلقي عليها نظرة. بإمكانك أخذ شمعة واستطلاع الأمر. وأحضر لي ردائي وقبعتي من على طرف السرير في الغرفة الوسطى»

مضى أروبين للأعلى حاملًا شمعة. وبدأت إدنا بإغلاق الأبواب والنوافذ. مع أنها كرهت بقاء روائح النبيذ في داخل المنزل. وجد أروبين رداءها وقبعتها، فأنزلهما وساعدها على ارتدائها.

عندما أحكما إغلاق كل شيء وإطفاء الأنوار، غادرا من الباب الأمامي. ثم أقفلهُ أروبين، أخذ المفتاح، وحملهُ لإدنا. وساعدها على النزول من الدَرجات.

«هل ستأخذين باقة من أزهار الياسمين؟» سأل أروبين وهو يقطف بعض

الزهرات أثناء مروره.

«كلا. لا أريد أي شيء»

لقد بدت كئيبة، ولم يكن لديها ما تقوله. استندت على ذراعه، التي عرضها عليها، حاملةً ثقل ذيل فستان الساتان بيدها الأخرى. نظرت إلى الأسفل، ولاحظت الظلال المعتمة لساقهِ وهي تتحرك جيئةً وذهابًا بالقرب منها في مقابل اللمعان الذهبيّ لفستانها. في مكان ما من بعيد، تناهى إليهما صوتُ قطار يُصفِّر، وأجراس منتصف الليل تدق. لم يصادفا أحد أثناء طريقهما القصير.

كان «عش الحَمام» يقبعُ خلف بوابة مقفلة، أمامهُ حديقة زهور قليلة الغور، مهملة إلى حدٍ ما. وكان هناك رواق أماميّ صغير، تطلُّ منه نافذة واسعة وبابٌ أمامي. حيث ينفتح الباب مباشرةً إلى قاعة جلوس. لم يكن هناك مدخل جانبي. أما غرفة الخدم فكانت في الفناء، حيث ستعيش سيلستين العجوز.

تركت إدنا القنديل مشتعلًا على الطاولة. وقد نجحت في جعل غرفة الجلوس تبدو مناسبة لِلسُّكنى وذات جوٍّ عائلي مريح. على الطاولة، يوجد بعض الكتب، وهناك أريكةٌ قريبة من متناول اليد. وعلى الأرض ثمة سجادٌ جديد مغطى بدواسة واحدة أو اثنتين. وعلقت على الجدران بعض الصور الجميلة. إلا أنّ الغرفة كانت تعجُّ بالزهور، وكانت هذه مفاجأة لها أرسلها أروبين، وأمر سلستين بترتيبهم أثناء غياب إدنا. كانت غرفة نومها مجاورة لغرفة الجلوس. في حين تقبع غرفة الطعام والمطبخ نهاية ممر قصير.

جلست إدنا، وكل مظهرٍ من مظاهر عدم الارتياح، بادٍ عليها.

«هل تشعرين بالتعب؟» سأل أروبين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أجل، وأشعر بالبرد والتعاسة. كما لو انتهى بي المطاف لخطوة هامة، وحرجة للغاية، كأن شيئًا ما في داخلي قد انكسر» ثم وضعت رأسها على الطاولة، وأسندتها على ذراعها العارية.

«أنكِ بحاجة للراحة، ولأن تهدأي. سأغادر. سأتركك وأدعكِ ترتاحين» قال

«نعم».

وقف أروبين بجانبها، وأخذ يفرد شعرها بيده اللطيفة الساحرة. منحتها لمسته راحة جسدية لا جدل فيها، إذ كان بإمكانها أن تغرق في نوم عميق هناك بكل هدوء، لو استمر بتمرير يده على شعرها. كان يمرر يدهُ في شعرها برفق، صعودًا من قفا عنقها.

«آمل أن تشعري بتحسُّن وسعادةٍ أكبر بحلول الصباح»، قال أروبين وأضاف: «لقد بذلتِ جهدًا أكثر من اللازم في الأيام القليلة الماضية. والعشاء كان القشة الأخيرة، ولربما، كان يجدر بكِ الاستغناء عنه»

«نعم، كان حماقةً مني»

«لا، كانت أمسية ساحرة. لكنها أرهقتكِ»

وهنا، انحرفت يده إلى كتفيها الجميلتين، وشعر باستجابة جسدها للمساتهِ. جلس بقربها، وأخذ يُقبّل كتفها بكل رقّة.

«اعتقدتُ أنك مُغادِر» قالت إدنا بصوتٍ غير متزّنة.

«أنّي كذلك، فور قولي طابت ليلتكِ»

«طابت ليلتك» همست إدنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يجبها أروبين، إلا أنه استمر في مداعبتها. ولم يقل لها ليلةً سعيدة، حتى استسلمتْ لإغواءاتِهِ الساحرة الرقيقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما علم السيد بونتيلييه بعزمِ زوجته على ترك منزلها واتخاذ منزلٍ آخر لإقامتها، كتب إليها على الفور رسالة رفضٍ واعتراضٍ تافيَن. لقد أعطتهُ أسبابًا لم يرغب في الاعتراف بها على أنها أسباب كافية. وقد أمِلَ أنها لم تتصرف وفقًا لأهوائها المتسرعة. وتوسل إليها أن تفكر أولاً وقبل كل شيء، بما سيقوله الناس عنهما.

لم يكن يفكر من باب الفضيحة أثناء تحذيراتِه، وهذا جانبٌ، ما كان ليخطر بباله قطٍ، أو أن يأخذ بعين الاعتبار ما يتعلق باسم زوجتِهِ أو اسمِهِ. لقد كان ببساطةٍ يفكر بسمعتِهِ المالية، بعد أن أثيرَ لغطٌ حول آل بونتيلييه مفادهُ أنهم يعانون من انتكاسات مالية، وأنهم مضطرون لتسيير شؤون حياتهم وفق موازين أكثر تواضعًا من ذي قبل. وقد يتسبب هذا القيل والقال، بأذى لا يمكن حسابهُ لإمكانيات أعماله.

ولكن عندما تذكر التبدُّل الغريب بتفكير إدنا في الآونة الأخيرة، توقع أنها تصرفتْ على الفور وفقًا لأهوائها المندفعة. فأدرك الوضع بسرعتهِ المعهودة، وتعامل معه بلباقته، وذكائهِ التجاري المعروف.

لذلك أرسل في نفس البريد الذي حمل إلى إدنا خطاب رفضهِ، بريدًا آخر يحمل تعليماتٍ -دقيقةٍ للغاية- لمهندسٍ معماريٍّ معروف، بشأن إعادة تصميم منزلِهِ وتنفيذ التغييرات التي كان يفكر فيها منذ فترة طويلة، والتي رغب في إتمامها خلال فترة غيابِهِ المؤقت. وتعاقد مع خبراء وغسّالين موثوقين وحمّالين لنقل الأثاث والسجاد والصور -كل شيء قابل للنقل- إلى أماكن آمنة. وفي وقت قياسي، تم تسليم منزل آل بونتيلييه إلى الحرفيين. كان من المقرر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن تكون هناك إضافة للمنزل: غرفةٌ دافئةٌ صغيرة. وأن تكون هناك لوحاتٌ جدارية، وتطبيق أرضيات الخشب الصُلب، في غرف لم تخضع بعد لهذا التحسين.

إلى جانبٍ ذلك، ورد في إحدى الصحف اليومية إعلانٌ مقتضب يقول: **أن السيد والسيدة بونتيلييه يفكران في إقامةٍ صيفيةٍ مؤقتة خارج البلاد، وأن مسكنهما الفاخر في شارع إسبيلاند، يشهد تغييرات فخمة، ولن يكون جاهزًا للسكن فيهِ حتى عودتهما.** وبهذهِ الطريقة، حافظ السيد بونتيلييه على سمعتهُ، والمظاهر.

أُعجبتْ إدنا بمهارتهِ في المناورة، ولم تنوِ عرقلة نواياه. وعندما قبلتْ الوضع على النحو الذي حدده السيد بونتيلييه، واعتبرتهُ أمراً مفروغًا منه، اقتنعت على ما يبدو أنه ينبغي أن يكون كذلك.

بعث عش الحَمام الرضا في ذاتها. لقد تبنى الطابع الحميم للمنزل دفعة واحدة، في حين شغلتهُ هي بسحرٍ أخذ يعكسهُ مثل وهجٍ دافئ. كان يرافقها شعور بالانحدار في السلم الاجتماعي، يقابلهُ شعور مماثل بالتسامي في الحالة النفسانية. فكل خطوة اتخذتها نحو تخليص نفسها من الالتزامات، زادت من قوتها وانطلاقها كفرد حُرّ. بدأت تنظر ببصيرتها، لرؤيةِ وفهمِ أعمق التيارات الخفيّة في الحياة. لم تعد راضية «بمبدأ إطلاق الأحكام» حين أوعزتْ لها روحها ذلك.

وبعد أيام قلائل، سافرت إدنا وقضت أسبوعًا مع ولديها في إيبرفيل، حيث أيام فبراير السارّة، وكل بوادر فصل الصيف، تحوم في الهواء.

ويا لفرحتها برؤية الولدين! لقد بكت من فرط سعادتها حين شعرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأذرعهم الصغيرة تُحيط بها، ووجناتهم الفضة المتوردة، تلامس وجنتيها المحمرّتين. وأخذت تمعن النظر إلى وجهيهما بأعين متعطشة لا تكتفي من النظر.

ويا للقصص التي كان عليهم أن يرووها لوالدتهما! عن الخنازير والأبقار والبغال! وعن رحلتهما إلى الطاحونة القابعة وراء غلوغلو، والصيد في البحيرة مع عمهم غاسبر، وعن سرقتهم جَوز البقّان من صغار ليديا الشقر، ونقلهم كمية من الخضار في عربتهم. وما زاد من تسليتهما هو جرّ عربتهما المليئة بالفحم من أجل موقد سوزي العجوز العرجاء، حتى أنه كان أكثر إمتاعًا من جرّها على الأرصفة الضيقة في شارع إسبيلاند.

فذهبت معهما بنفسها لترى الخنازير والأبقار، لتنظر إلى الظلام وهو يفترش قصب السكر، لتهز جذوع أشجار البقان، وتصطاد السمك في البحيرة الخلفية. عاشت معهما أسبوعًا كاملًا، كرست نفسها لهما كليًا. ونهلت من رفقتهما وحضورهما الطفولي وأشبعت روحها بهما. ثم فجأة، أنصتا كلاهما مبهورين، حين أخبرتهما أنّ البيت في شارع إسبيلاند مكتظ بالعمّال الذين يطرقون بالمطارق ويعلقون الأشياء بالمسامير، ويقصون أشياء أخرى بالمناشير، ويملأون المكان بجلبةٍ كبيرة. أرادا معرفة مكان سريرهما، وما فعلوه بحصانهم الهزاز، وأين نام جو، وأين ذهبت إلين والطاهية. ولكن، قبل كل شيء، حدث بكليهما رغبةٌ قوية لرؤية المنزل الصغير في الشارع المجاور. أكان هناك مكان للعب فيه؟ هل كان هناك أي أولاد بالجوار؟ كان راؤول مقتنعًا -في توجس متشائم- بأن الفتيات فقط من يعشن في الجوار. أين سينامون، وأين سينام أبيهم؟ فأخبرتهم أن الجنيّات سيأخذن على عاتقهن تسوية كل تلك الأمور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سُرّت السيدة بونتيلييه العجوز بزيارة إدنا أيّما سرور، فأغدقت عليها اهتمامًا فائقًا. وقد فرحت كثيرا عندما علمت أن البيت في شارع إسبيلاند كان في حالة إعمار. الأمر الذي منحها حُجةً إضافية للإبقاء على الطفلين إلى أجلٍ غير مسمى.

تركت إدنا أولادها بلوعة كبيرة. حملت معها نبرة أصواتهما وملمس وجنتيهما. وطوال رحلة العودة، بقي حضورهما معها كأنهُ ذكرى من أنشودة مبهجة. ولكن في الوقت الذي وصلت فيه المدينة، لم يعد صدى الأنشودة يتردد في روحها. وعادت وحيدة مرة أخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحدث أحيانًا أن تتوجه إدنا لزيارة الآنسة رايس، ثم تجد أن العازفة الشابة غير موجودة في شقتها. أما تعطي درسًا أو تقوم ببعض المشتريات المنزلية الضرورية. لذلك، كانت تترك المفتاح دائمًا في مخبأ سري في المدخل، تعرفهُ إدنا. وإذا صادف ووجدت الآنسة غير موجودة، فإنّ إدنا عادةً ما تدخل وتنتظر عودتها.

عندما طرقت باب الآنسة رايس بعد ظهر أحد الأيام، لم تلقَ ردًا. وهكذا، فتحت الباب -كالعادة- ودخلت الشقة فوجدتها خاليةً، كما توقعت. كان يومها مزدحمًا، وكانت قد سعت لزيارة صديقتها من أجل الراحة، والملاذ، والتحدث عن روبرت. لقد عملت طوال الصباح على لوحتها -رسمٌ تجريبي لشخصية إيطالية بعمر صغير- وأنجزت العمل بدون نموذج، ولكن تخلل عملها العديد من التوقفات، بعضها لتدابير منزلها المتواضع، وبعضها الآخر ذو طابعٍ اجتماعي. إذ جاءت السيدة راتينيول لزيارة بيت إدنا الصغير، متجنبةً الطرقات المزدحمة كما ذكرت. متذمرةً من أن إدنا قد أهملت زياراتها في الآونة الأخيرة. بالإضافة الى ذلك، انتابها فضولٌ هائل لرؤية البيت الصغير والطريقة التي يُدار بها. رغبت أن تعرف كل شيء عن حفلةِ العشاء، فالسيد راتينيول غادر مبكرًا، وأرادت أن تعرف ما حصل بعد مغادرتهِ. كانت الشمبانيا والعنب التي أرسلتها إدنا، لذيذة جداً. إذ كانت شهيتها شبه مقطوعة، وقد أنعشاها ولاءما معدتها. أين كانت ستضع السيد بونتيلييه والأولاد في ذلك المنزل الصغير؟ ثم جعلت إدنا تعدها بالذهاب لزيارتها عندما تتجاوز محنتها.

«في أي ساعةٍ من النهار أو الليل يا عزيزتي» أكدَت لها إدنا.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقبل أن تغادر السيدة راتينيول قالت لإدنا:

«بصورةٍ أو بأخرى، تبدين لي كطفلٍ يا إدنا. يبدو أنكِ تتصرفين دون أي قدرٍ من التفكير الذي يُعد ضروريًا في هذه الحياة. لذلك السبب، أودّ أن أقول لكِ أنه يجدر بكِ ألّا تمانعي إذا نصحتكِ أن تتوخي الحذر قليلًا ما دمتِ تعيشين هنا وحدكِ. لماذا لا تدعين أحدًا يأتي ويقيمُ معكِ؟ ألن تأتي الآنسة رايس؟»

«كلا. لن ترغب بالمجيء، ولستُ مضطرة لوجودها معي دائمًا»

«حسنًا. القضية وما فيها، وأنتِ تعرفين حق المعرفة مدى خُبث هذا العالم، أنّ أحدهم تحدث بخصوص زيارات ألسي أروبين لك. وبالطبع، ما كان الأمر ليُشكّل فارقًا لو لم يملك السيد أروبين مثل تلك السمعة السيئة. أخبرني السيد راتينيول أن اهتماماته لوحدها، تُعدُ سببًا كافيًا لتشويه سمعة امرأة»

«هل يتفاخر بأفعالهِ؟» سألت إدنا دونما اكتراث وهي تحدق في لوحتها.

«كلا، لا أعتقد. أظنه رجلًا طيبًا على الرغم من ذلك. لكن سمعتهُ معروفةٌ بين الرجال، لن أكون قادرة على العودة لزيارتكِ، كان قدومي اليوم حماقةً كبيرةً مني»

«انتبهي لخطواتك!» صاحت إدنا.

«لا تنسي زيارتي» طلبت السيدة راتينيول منها وأضافت: «ولا تتضايقي مما قلتهُ لكِ عن أروبين أو عن مجيء شخص ما ليبقى معك»

«طبعًا لا. بامكانكِ قول ما يحلو لكِ» قالت إدنا ضاحكةً، ثم قامتا بتقبيلِ بعضهما قبلة وداع. وقفت إدنا عند الشرفة فترة من الوقت، تراقب ضيفتها

وهي تسير في الشارع.

بعد ذلك، قامت السيدة ميريمان والسيدة هاياكام بزيارةٍ جماعية بعد الظهر. فشعرت إدنا أنهما لربما، استغنتا عن الأعراف الرسمية للزيارات. وقد جاءتا أيضًا لدعوتها للعبِ الورق في إحدى الأمسيات في منزل السيدة ميريمان. وقد طلبتا منها المجيء مبكراً من أجل العشاء وسوف يأتي السيد ميريمان أو السيد أروبين لاصطحابها للمنزل. قَبِلَت إدنا الدعوةَ قبولًا فاترًا. كانت تشعر في بعض الأحيان بالسأم الشديد من السيدة هايكام والسيدة ميريمان.

لذلك، لجأت في وقت متأخر من بعد الظهر، إلى الآنسة رايس، وبقيت وحيدة، بانتظارها. وهناك، شعرت بنوعٍ من السكينة تجتاحها، في أجواء تلك الحجرة الصغيرة المتواضعةِ البالية.

فجلست إدنا عند النافذة المُطلّة على سطوح المنازل والنهر. كان محيط النافذة مكتظًا بأُصص الزهور، فجلست وأخذت تقطف الأوراق الجافة من زهرات إبر الراعي. كان النهار دافئًا، والنسيم الذي يتسلل من النهر منعشًا للغاية. فخلعت قبعتها ووضعتها على البيانو واستمرت في التقاط الأوراق والحفر حول النباتات بدبوس قبعتها. ولوهلة، خُيِّل إليها بأنها سمعت خُطوات الآنسة رايس تقترب، لكن ظهرت فتاة شابة سمراء البشرة، جاءت لتجلب مجموعة صغيرة من الغسيل، التي أودعتها في الغرفة المجاورة، ومضت.

جلست إدنا إلى البيانو، وحملت بيدٍ واحدة، الموازين الموسيقية المفتوحة أمامها. ومرّت نصف ساعة. كان يتناهى إلى سمعها من حين لآخر، أصوات أناس يروحون ويأتون في الطابق الأسفل. ثم انهمكت في فهم الآزيا(24)

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

باهتمامٍ أكبر، عندها، سمعت طرقةً ثانية على الباب. فتساءلت -مستفهمةً- بما يحدث لهؤلاء الناس عندما يجدون باب الآنسة مقفلًا.

«تفضلوا» قالت والتفتت. وهذه المرة، كان روبرت ليبرون من ظهر عند الباب.

حاولت النهوض، غير أن قدميها لم تعودا تحملانها دون أن يفضحها الاضطراب الذي سيطر عليها بمجردِ رؤيته، لذلك ارتدّت على المقعد مرةً أخرى، وهتفت: «عجبًا! روبرت!»، فجاء وشبك يدها كما يبدو للناظر دون أن يعرف ما يقوله أو يفعله.

«أيعقل هذا؟ السيدة بونتيلييه! تبدين بحالٍ جيدة! أليسث الآنسة رايس هنا؟ لم أتوقع أن أراكِ أبدًا!»

«متى غدث؟» سألت إدنا بنبرةٍ مرتعشة، ومسحت وجهها بمنديلها. بدث غير مرتاحة على كرسي البيانو، فطلب منها متوسلًا، أن تجلس على الكرسي الذي بجانب النافذة.

فعلت ذلك لا إراديًا، فيما جلس هو على كرسي البيانو.

«عدتُ أول أمس» أجاب، فيما كان يتكئ بذراعه على مفاتيح البيانو، محدثًا لحنًا نشازًا.

«أول أمس!» كررت، بصوت عالٍ. واستغرقت بالتفكير وهي تردد مع نفسها (أول أمس) بطريقةٍ تنمُّ عن فرد عاجز عن الاستيعاب. إذ تخيلَته وهو يبحث عنها في أولى ساعات عودتهِ. لقد عاشا تحت السماء نفسها منذُ يومين، بينما لم يعثر عليها إلا بالصدفة المحضة. لابدَّ أن الآنسة قد كذبث في اعترافها حين قالت: «ياللمسكين الأحمق، إنه يحبكِ»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«أول أمس» كررث إدنا، وقطفت باقة زهور إبرة الراعي الخاص بالآنسة وسألت: «لو لم تقابلني هنا اليوم، ماكنتَ... عندما... أعني...ألم تقصد القدوم لرؤيتي؟»

«بلا شك. كنتُ سآتي لرؤيتكِ. كان هناك العديد من الأمور...» وأخذ يُقلّبُ أوراق موسيقا الآنسة بتوترٍ سافرٍ. «لقد بدأتُ العمل مع الشركة السابقة فورًا. فالفرصة في نظري هنا، لا تقل عن تلك التي كانت في المكسيك، أي أنني قد أجدها مربحة في يوم من الأيام. لم يكن المكسيكيون ودودين جدًا»

إذن، فقد عاد لأن المكسيكيين لم يكونوا ودودين. لأن العمل كان مربحًا هنا بقدرِ ما كان مربحًا هناك. لأي سبب آخر ماعدا لأنه كان يرغب بأن يصبح قريبًا منها. وتذكرت اليوم الذي جلست فيه على الأرض وهي تُقلّبُ صفحاتَ رسالتهِ، بحثا عن سببٍ لم يُذكر.

لم تلاحظ كيف غدا، بل شعرتْ بوجودهِ فقط. لكنها استدارت بتروٍّ وراحت تراقبه. فمع أنه لم يغب سوى بضعةَ أشهرٍ، لكنه لم يتغير. فشعره -الذي بلون شعرها- يسترسل كالموج من على صدغهِ كما كان من قبل. لم تكن بشرتهُ أكثرَ اسمرارًا مما كانت عليه في جزيرة غراند. وعندما حدّق إليها للحظة واحدة في كنف ذلك الصمت، رأتْ في عينيهِ النظرة الرقيقة ذاتها، يشوبهما دفءٌ وضَراعة لم ترَهُ فيهما من قبل. ذات النظرة التي تسللت إلى مواضع السُبات في روحها، وأيقظتها.

تخيلَتْ إدنا عودة روبرت مئات المرات، وتخيلت لقاءهما الأول. كان الأمرُ عادةً من العادات في منزلها، حيث تخيلت لهفتهِ للبحث عنها في لحظة وصولهِ. ولطالما تخيلتهُ يُعبر أو يكشف عن حُبهِ لها بطريقةٍ أو بأخرى. غير أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقيقة أنهما جلسا على بعد عشرةِ أقدام، هي قرب النافذة، تسحق أوراق نبات إبرة الراعي بيدها وتشم رائحتها، وهو يدور حول كرسي البيانو، قائلاً:

«تفاجأتُ كثيرًا عندما سمعتُ بغياب السيد بونتيلييه، أني لأعجب أن الآنسة رايس لم تُخبرني بذلك. أما مسألة انتقالكِ من البيت، فقد عرفتها من والدتي بالأمس. اعتقدتُ أنك ستذهبين إلى نيويورك معه أو إلى إيبرفيل مع الطفلين. سمعتُ أنك ستسافرين خارج البلاد كذلك. لا يبدو أننا سوف نستضيفكِ في جزيرة غراند الصيف القادم! من الواضح أنكِ ترين الآنسة رايس كثيرًا. لقد تحدثت عنك كثيرًا في الرسائل التي كتبتها»

«هل تذكر وعدكَ بالكتابة لي إبان رحيلك؟»

فاصطبغ وجهه كلهُ، بحمرةٍ شديدة.

«لم أعتقد أن خطاباتي تهمكِ»

«هذهِ حُجة. إنها ليست الحقيقة» أجابت إدنا ومدّت يدها لأخذ قبعتها على البيانو. عدّلتها، وثبتت دبوس القبعة في لفيفة شعرها المتينة، على مهل إلى حدٍ ما.

«ألن تنتظري عودة الآنسة رايس؟» سأل روبرت.

«كلا. لقد اكتشفتُ أنها عندما تغيب كل هذه المدة، فأنها عرضةٌ لعدم العودة حتى وقت متأخر» قالت إدنا، وارتدت قفازاتها.

أخذ روبرت قبعته.

«لِمَ لا تنتظرها؟» سألت إدنا.

«ليس أن كُنتِ تعتقدين أنها ستتأخر في العودة» علق روبرت وكما لو أنه أدرك فجأة شيئًا من الوقاحةِ في حديثهِ أضاف قائلًا: «أنّي أفتقدُ متعة السير إلى المنزل معك»

أقفلت إدنا الباب وأعادت المفتاح إلى مخبأه.

وسارا معاً يشقان طريقهما عبر الشوارع والأرصفة الموحلة، يعرقل طريقهما افتراش الباعة لبضاعاتهم الزهيدة. قطعا جزءًا من المسافة بالعربة، وبعد النزول منها، مرّا بقصر بونتيلييه الذي بدا متداعيًا وشبه مهدّم. لم يعرف روبرت المنزل قط، فنظر إليه باهتمام.

«لم أركِ قطّ في بيتكِ»

«سعيدةٌ أنك لم تفعل»

«لماذا؟» سأل، ولم تجب.

ومضيا إلى الشارع المجاور، وبدا وكأن أحلامها تتحقق، عندما تبعها إلى المنزل الصغير.

«عليك أن تدخل وتتعشى معي يا روبرت. كما ترى، أنا بمفردي، ومضى وقت طويل منذ آخر مرة رأيتك فيها. وثمة الكثير أريد أن أسألك عنه» قالت، وخلعت قبعتها وقفازيها.

وقف مترددًا، يختلق بعض الأعذار حول والدته التي توقعت عودته. حتى أنه تحدث عن شيءٍ من قبيل التزامات. بدأ الغسق يُرخي سدوله، فأشعلت القنديل على الطاولة بعود ثقاب. وعندما رأى وجهها في ضوء القنديل، رأى علائم الاستياء بادية عليهِ، بكلِ خطوطهِ الناعمة البارزة. فألقى قبعته جانبًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجلس.

«تعرفين أنني أرغب بالبقاء إن سمحتِ لي بذلك!» أكد روبرت. وعاد للطفهِ بالكامل. فانبسطث أسارير إدنا، وذهبث ووضعت يدها على كتفه.

«هذا هو روبرت الذي أعرفهُ. سأذهب لأعطي سيلستين خبزًا.» وأسرعت لتقول لـ سيلستين أن تُجهّز مكانًا إضافيا. حتى أنها أرسلتها للبحث عن أطايب الطعام الذي لم تفكر بجلبهِ لنفسها. وأوصتها أن تحرص على تقطير القهوة جيدًا وتحضير الأومليت بأفضل طريقة. عندما دخلت إلى البيت، كان روبرت يُقلّب المجلات، الرسومات، والأشياء التي على الطاولة بتوتر بالغ. ثم التقط صورة، وصرخ:

«ألسي أروبين! ماذا تفعل صورتهُ هنا بحق السماء؟!»

«حاولث ذات يومٍ أن أرسم لوحةً لوجههِ، فظننتُ أن الصورة قد تساعدني. كانث هذهِ الصورة في القصر، اعتقدتُ أني تركتها هناك. لا بد إني حزمتها مع مواد الرسم خاصتي»

« أعتقد أنه يجدر بكِ إعادتها اليه إن كُنتِ قد انتهيتِ منها»

«أوه! أملك الكثير من هذه الصور لم أفكر بإعادتهم يومًا. فهي ليسث بتلك القيمة». ظل روبرت يحدق في الصورة.

«يبدو الأمر لي... هل تظنين أن وجههُ هذا يستحق الرسم؟ أهو صديق السيد بونتيلييه؟ لم تقولي أنكِ تعرفينه!»

«إنه ليس صديقاً للسيد بونتيلييه. إنه صديقٌ لي. عرفتهُ دائمًا. أي، عرفتهُ جيدًا في الآونة الاخيرة. لكنني أحبذُ الحديث عنك، ومعرفة من كنتَ تقابل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما تفعل وتشعر بهِ هناك في المكسيك».

رمى روبرت الصورة جانبًا وأجاب:

«لقد رأيتُ الأمواج والشاطئ الرملي لجزيرة غراند. شوارع شينير المعشوشبة الهادئة، الحصن العتيق في جزيرة غراند تير. كنت أعمل كآلة، وأشعر كأنني روحٌ تائهة. لم يكن هناك شيء مثير للاهتمام».

وضعت إدنا يدها على رأسها لتستر عينيها من الضوء.

«ومن قابلتِ أنتِ وما فعلتِ وما الذي شعرتِ به كل هذه الأيام؟» سألها روبرت.

«لقد رأيتُ الأمواج والشاطئ الرملي لجزيرة غراند، الشارع الهادئ المعشب في شينير كاميندادا، الحصن المشمس العتيق في غراند تير. لقد كنت أعمل كآلة، باستيعاب أكثر بعض الشيء. وما زلتُ أشعر كروحٍ تائهة. لم يكن هناك شيء مثير للاهتمام».

«سيدة بونتيلييه، أنكِ لئيمة» قالها بإحساس، وهو يغلق عينيه ويريح رأسه على كرسيه. ومكثا هكذا، يكتنفهما الصمت، حتى أعلنت سيلستين العجوز أن العشاء جاهز.

---

(24)آزيا: مقطوعة غنائية مطولة لِمُغنٍ منفرد في الأوبرا

كانت غرفة الطعام صغيرة جدًا. تكاد مائدة إدنا المدورة المصنوعة من خشب الماهوغني أن تملأها. لدرجة أنها لم يتبقَ فيها سوى خطوةٌ أو خطوتين للمشي تبدأ من جهة الطاولة الصغيرة وإلى المطبخ ومن رَف المدفأة إلى الخزنة الصغيرة، وحتى الباب الجانبي الذي يفْتح على فناء ضيّق مُعبّد بالآجر.

استقرتْ على وجهيهما شيءٌ من ملامح الرسميات مع المناداة العشاء. لم يكونا هذه اللحظة على طبيعتهما. روى روبرت أحداث إقامته المؤقتة في المكسيك، وتحدثت إدنا عن أحداث وقعت أثناء غيابه، ربما تهمّه. كان العشاء من النوع العادي، باستثناء بعض الأطعمة الشهية التي أرسلت سيلستين لشرائها. فيما راحت سيلستين العجوز، وهي تلّف وشاحًا قطنيًا مُلّونًا حول رأسها، تعرجُ جيئةً وذهابًا، مُبديةً اهتمامًا شخصيًا في كل شيء. وكانت تماطل في الخدمة بين الفينة والأخرى، لتتحدث باللهجة العامية مع روبرت، الذي تعرفهُ مذ كان فتىً صغير.

خرج روبرت إلى كشك السجائر المجاور لشراء لفائف التبغ، وعندما عاد، وجد أن سيلستين قد قدمتْ القهوة السادة في غرفة الجلوس.

«ربما لم يجدر بي العودة. أخبريني حين تسأمين مني كي أغادر» قال روبرت

«إنّك لا تجعلني أشعرُ بالسأم أبدًا يا روبرت. لا بُدّ أنك نسيتَ الساعات الطوال التي قضيناها سويةً في جزيرة غراند واعتدنا فيها على بعضنا»

«لم أنسَ شيئًا من جزيرة غراند» قال روبرت، دون أن ينظر إليها، بل أخذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يلف سيجارة. كان جِراب التبغ الذي وضعه على الطاولة منسوجٌ من الحرير المطرز على نحوٍ رائع، وعلى ما يبدو، كان من صنيع يد امرأة.

«كنتَ تضع التبغ في كيس مطاطي» قالت إدنا وهي تحمل الجراب لتمعن النظر في شغل إبرة التطريز.

«نعم. لقد ضاع»

«من أين ابتعتَ هذا الجِراب؟ في المكسيك؟»

«أهدتني إياه فتاة من سُكان فيرا كروز. إنهم أناس كرماء جدًا»، أجاب روبرت، وهو يشعل سيجارتهِ بعودِ ثقاب.

«إنهن جميلاتٌ جدًا على ما أعتقد، تلك النسوة المكسيكيات. إنهن باهرات الجمال، بعيونهن السوداء وأوشحتهن المحبوكة بالدانتيل»

«بعضهن جميلات، وبعضهن بشعات، تماما كما هُنَّ النساء في كل مكان»

«كيف كان شكلها؟ أقصد الفتاة التي أهدتك الجراب؟ لا بد أنكَ على معرفةٍ جيدة بها»

«كانت عاديةً جدًا. لم تكن ذات أهمية تُذكر. أعرفها جيدًا»

«هل زرتها في منزلها؟ هل كان المنزل مثيرًا للاهتمام؟ أود أن أعرف وأسمع عن الأشخاص الذين التقيتهم، وعن الأثر الذي تركوهُ فيك»

«ثمّة أناس، يتركون أثرًا لا يعدو كونهُ مثل أثر المجداف على سطح الماء، أثرٌ زائل»

«هل كان أثرُ تلك الفتاة هكذا؟»

«ستكون وضاعة مني الاعتراف بأنها كانت من ذلك النوع من الناس» قال روبرت وهو يعيد الجراب إلى جيبه كما لو أنه يضع جانبًا السبب الذي أثار الموضوع.

عندها، دخل أروبين حاملًا رسالة من السيدة ميريمان مضمونها أن أمسية اللعبة قد تأجلت بسبب مرض أحد أطفالها.

«كيف حالك يا أروبين؟» قال روبرت وهو ينهض من زاوية ما.

«أوه! ليبرون! لا شك في ذلك! فقد سمعت البارحة أنك عدت. كيف عاملوك في المكسيك؟»

«معاملة جيدة إلى حد ما»

«لكن ليس جيداً بما فيه الكفاية لتمكث هناك، ثمة فتيات فاتنات في المكسيك! ظننت أني لن أغادر فيرا كروز أبدًا عندما سافرت إلى هناك قبل عامين».

«هل قمن بتطريز الأحذية وأكياس التبغ وشرائط القبعات وأشياء من هذا القبيل لأجلك؟» سألت إدنا.

«أوه! يا إلهي! لا! لم أحز على اهتمامهن لهذه الدرجة الكبيرة. أخشى أنهنّ تركن أثرًا بداخلي أكثر مما تركت أنا عليهنّ»

«إذن، كنت أقل حظًا من روبرت» قالت إدنا

«لطالما كنت أقلّ حظًا من روبرت. هَلا يكشف لي عن أسرار لطفهِ معهن؟»

فنهض روبرت، وقال وهو يصافح إدنا: «لقد أثقلت عليكم بوجودي لوقت

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

طويل. أرجوكِ أبلغي تحياتي إلى السيد بونتيلييه حين ترسلين خطابًا له»

ثم صافح أروبين ومضى في طريقه.

«رجل طيب ذاك ليبرون،» قالَ أروبين حين غادر روبرت، وسأل إدنا: «لم أسمعكِ تتحدثين عنهُ البتة؟»

«عرفته الصيف الماضي في جزيرة غراند. هذه صورتك. ألا تريدها؟»

«ماذا أفعل بها؟ تخلصي منها» أجاب أروبين، فرمتها على الطاولة.

«لن أذهب إلى أمسية السيدة ميريمان، إن رأيتها، أخبرها بذلك. لكن، لربما من الأفضل أن أكتبَ لها. وأظن أنه يجدر بي كتابة الرسالة الآن. سأقول لها إنني آسفة لمرض طفلها، وأطلب منها ألّا تتوقع مجيئي»

وافقها أروبين قائلاً: «فكرةٌ جيدة، لا ألومك، ثمة الكثير من الترهات في اجتماعهن!»

فتحت إدنا دفتر المسودات، وبعد أن حصلت على ورقة وقلم، بدأت بكتابة الرسالة. أشعل أروبين سيجارًا وأخذ يقرأ الصحيفة المسائية التي كانت في جيبه.

«ما تاريخ اليوم؟» سألت إدنا. وأجابها.

«هل سترسل هذهِ الرسالة من أجلي عندما تخرج؟»

«بالتأكيد»

ثم قرأ لها بعض المقتطفات من الصحيفة، وهي ترتب الأشياء على الطاولة.

«ما الذي تنوين فعله؟» سأل أروبين، ملقياً الصحيفة جانبًا، «أتودين

الخروج في نزهة أو الذهاب في جولة بالعربة أو أي شيء من هذا القبيل؟ ستكون ليلةً رائعة للتجول بالعربة»

«كلا. لا أرغب بفعل أي شيء ما عدا أن أظل في هدوء وحسب. امضِ أنت ورفّه عن نفسك. لا تبقَ»

«سأمضي إن كان لا بد من ذلك. لكني لن أستمتع. إنّكِ تعلمين أنّي لا أعيش حياتي إلا حين أكون بقربكِ»

وانتصب واقفًا لتوديعها وتمنّي ليلة سعيدة لها.

«أهذا من بين الكلام الذي تقوله للنساء دائمًا؟»

«لقد قلته من قبل، لكن لا أظنني عنيته لهذا الحد» أجابها بابتسامة. بان على عينيها بريقٌ لكن ليس وديًا، وإنما كانت نظرتها شاردة وفارغة فحسب.

«طابت ليلتكِ. أحبّكِ. نومًا هنيئًا» قال أروبين، وقبّل يدها ومضى في طريقهِ.

ظلت إدنا لوحدها فِي حالةٍ أشبه بالاستغراق في لحنٍ موسيقي -ضربٌ من الغيبوبة- فقد عاشت كل لحظة من الزمن مع روبرت منذ أن دخل من باب الآنسة رايس، خطوةً إثر خطوة. وراحت تتذكر كلماتهِ ونظراته، وكم كانت نظراتهِ وكلماتهِ شحيحة! لا تسمن ولا تغني من جوعٍ أمام قلبها التوّاق!

ثم راودتها رؤيا! انبثقت أمامها تخيُّلاتٍ مغويةً جدًا عن الفتاة المكسيكية. وأخذت تتلوى ألمًا من الشعور بالغيرة. وتساءلت متى سيعود. لم يذكر أنه سيعود! لقد كانت معه طوال الوقت، سمعت صوته ولمست يديهِ لكن بطريقة ما، كان يبدو أكثر قُربًا إليها وهو في المكسيك.

أنبلج الصباح زاخرًا بالأمل وضياء الشمس، لدرجة أنّ إدنا لم ترَ أمامها أوهامًا، بل وعدُ بفرحٍ بالغ. استلقت على السرير مستيقظةً، بعينين مشرقتين مفعمتين بالتخمينات.

«إنه يحبكِ، ذلك الأحمق المسكين»

فإن كان بإمكانها تثبيت هذهِ القناعة في ذهنها بقوة، فماذا تهمّ بقيةِ الأمور؟ إذ شعرتْ أنها في الليلة السابقة، قد تصرفت بطريقةٍ صبيانيةٍ حمقاء، اذ سلّمتْ نفسها بيد اليأس. وأخذتْ تُلخِص الدوافع التي تُفسّر تحفُّظ روبرت من دون ريب، والتي لم تكن دوافع يصعُبُ تذليلها. ولم تكن لتصمد إن كان يحبها حقًا، ولن يكون بوسعهِ الصمود في وجه هُيامها، الذي سوف يُدركهُ روبرت بمرور الوقت.

لقد تخيلتهُ وهو يذهب إلى عملهِ ذلك الصباح، حتى أنها تخيلتْ كيف يرتدي ثيابهِ، وكيف يمشي في أحد الشوارع، وكيف ينعطف عند ناصيةِ شارعٍ آخر. تخيّلتهُ وهو ينحني على مكتبه، يتحدث مع الأشخاص الذين يدخلون المكتب، يأخذ استراحةً لتناول غدائه، ولربما، يبحثُ عنها في وجوه المارّة من الشارع. وتخيلت أنهُ سيأتي لزيارتها بعد الظهر أو في المساء، يجلس ويلف سيجارته، يتكلم قليلًا، ثم يغادر كما فعل في الليلة السابقة. كم سيكون وجودهُ معها هناك رائعًا! لن يخامرها أي شعورٍ بالندم، ولن تسعى لفهم تحفُّظاتهِ إن كان ما يزال راغبًا بالتمسك بها.

تناولتْ إدنا فطورها وهي شبه عارية. ومع الفطور، جلبتْ الخادمة رسالةً بخربشة يدِ راؤول، يُعرِبُ فيها عن حبهِ لوالدتهِ، ويطلب منها أن ترسل له

بعض حلوى البونبون، ويخبرها أنهم وجدوا في ذلك الصباح عشر خنازير بيضاء صغيرة جدًا مستلقيةً في صف واحد بجانب خنزير ليديا الأبيض الكبير. ووصلتها رسالة من زوجها كذلك. يقولُ فيها إنه يأمل بالعودة في أوائل مارس. ثم سوف يستعدون للرحلة إلى الخارج التي وعدها بها منذُ وقتٍ طويل. إذ يشعر الآن أنه قادرٌ تمامًا على تحمُّل نفقاتها، وأنَّهُ قادر على السفر كما ينبغي للناس، دون إعارة اهتمام كبير بالسلوكيات الاقتصادية الصغيرة. ويعود الفضل في ذلك إلى مضارباتِهِ التجارية الأخيرة في شارع وول ستريت بنيويورك.

ومما أثار دهشتها أنها تلقت رسالةً من أروبين، كتبها في منتصف الليل من النادي. ليقول لها صباح الخير، آملًا أنها قد نامت جيدًا، ومؤكدًا لها حُبهِ الشديد، والذي أمِلَ أملاً ضعيفًا أن تُقابلهُ بالمثل.

سُرت إدنا بكل هذهِ الرسائل. أجابت الأطفال بمزاجٍ مرح، ووعدتهم بحلوى البونبون، ثم هنأتهم باكتشافهم المُبهج للخنازير الصغيرة.

وأجابت زوجها بمراوغة وذية، دون أدنى قدرٍ من النوايا الصادقة، لتضليله، فقط لأنها لم تعد تشعر بشيء في حياتها تلك. كانت قد تركتْ نفسها للقدر، وانتظرت العواقب بلا مبالاة. أما رسالة أروبين، فلم تردَّ عليها. بل وضعتها تحت غطاء موقد سيلستين.

رسمت إدنا عدة ساعات بروح معنوية عالية، دون أن تلتقي بأحد سوى تاجر لوحات سألها عما إذا كان صحيحًا ذاهبها إلى خارج البلاد للدراسة في باريس. أجابتهُ أنها ربما تفعل ذلك. فتباحث معها من أجل بعض البحوث الباريسية للوصول إليه في الوقت المناسب من أجل مبيعات العطل في ديسمبر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يأتِ روبرت لزيارتها في ذلك اليوم. فخاب ظنها كثيرًا. ولم يأتِ في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليهِ. كانت تستيقظ كل صباح يحدوها الأمل، ثم تُمسي فريسةً لليأس كل ليلة. كانت محاولة السعي لطلبهِ تُغريها، ولكن بدلًا من الاستسلام لنزوتها هذهِ، أخذت تتفادى أي مناسبةٍ قد تدفعها في طريقهِ. لم تذهب إلى الآنسة رايس ولا إلى السيدة ليبرون، كما كانت ستفعل لو أنه ما يزال في المكسيك. عندها ألحَّ أروبين عليها ذات ليلةٍ للذهاب معهُ في جولة بالعربة، خرجت إلى البحيرة على طريق شِلْ. كانت خيوله مفعمةً بالنشاط، حتى أنها لا يمكن السيطرة عليها. راقَ لإدنا العَدوَ السريع للخيول، والصوت الحاد لحوافرها على الطرقات الشاقة. فهم لم يتوقفوا ليأكلوا أو يشربوا في أي مكان. غير أن أروبين لم يكن أحمق دونما مبرر. لذلك أكلا وشربا عندما عادا لغرفة الطعام الصغيرة الخاصة بإدنا في أول المساء تقريبًا.

كان الوقت متأخراً جداً عندما غادرها أروبين في تلك الليلة. وقد كان الأمر أكثر من مجرد نزوة عابرة لأروبين، من ناحية رؤيتها ورفقتها. لقد اكتشف الشبقيّة الكامنة فيها، التي تكشّفت بإدراكهِ العميق لحاجات طبيعتها، مثل زهرةٍ حسّاسةٍ ومتأججة، كانت في حالة سُكون.

عندما غلبها النوم في تلك الليلة، غابت آثار اليأس. ولم يكن ثمّة أملٌ يحدوها عندما استيقظت مع الصباح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في إحدى الضواحي، كان ثمة حديقة عامة، عند رأس شارعٍ صغيرٍ محاط بالأشجار. وفي الحديقة، توجد طاولات خضراء اللون تُظللها أشجار البرتقال. على دَرَجات حجرية، جثم قط عجوز نائم طوال اليوم تحت أشعة الشمس. وهناك خلاسية عجوز تنام في أوقات فراغها في آخر الحديقة قربَ نافذةٍ مفتوحة، حتى ينقر أحدهم على إحدى الطاولات الخضراء، فتستيقظ. كانت امرأة تبيع الحليب والجبن السائل والخبز والزُبدة. وما من أحدٍ مثلها، يصنع قهوةً لذيذة أو أن يقلي دجاجةً بتحميصٍ جيد مثلما تفعل هي.

كان المكان متواضعًا جدًا بالنسبة لأصحاب الطبقة الراقية، وهادئًا جدًا بحيث غفل عنه أولئك الذين يبحثون عن الراحة والاختفاء شيئًا فشيئًا. اكتشفتهُ إدنا بالصدفة ذات يوم عندما تُركت بوابتهُ ذات السور العالي مواربةً. ولمحت طاولة خضراء صغيرة، مُبقعةً بأشعة الشمس التي كانت تتسرب من بين أغصان الأشجار في أعالي الجو، تسرُبا مُشطرجًا. وبداخلها رأت الخلاسية النائمة، والقط الغافي، وكأسًا من الحليب ذكرّها بالحليب الذي تذوقته في إيبرفيل.

كانت إدنا تتوقف هناك في كثير من الأحيان أثناء تجوالها. تأخذ معها كتاب في أغلب الأحيان، تجلس ساعة أو ساعتين تحت ظلال الأشجار عندما تجد المكان خاليًا. ولمرة أو مرتين، تناولت وجبةً هادئة هناك لوحدها، بعد أن تُخبر سيلستين مسبقًا بألّا تُعد غداء في المنزل. كان آخر بقعةٍ في المدينة تتوقع فيه أن تقابل شخصًا تعرفهُ.

ومع ذلك، لم تندهش عندما كانت تتناول غداءً متواضعًا في وقت متأخر

من بعد الظهر، وتحدق في كتاب مفتوح، وتربتُ على جسد القط الذي كوّنت صداقةً معه، لم تندهش حين رأت روبرت يدخل من بوابة الحديقة العالية.

«مُقدّرلي أن أراكَ بالصدفة فقط» قالت إدنا وهي تصرف القط من الكرسي المجاور لها. بدا روبرت مندهشًا، مضطربًا، وخجِلًا تقريبًا من مقابلتها بهذه الطريقة المفاجئة.

« أتأتين إلى هنا كثيراً؟» سأل روبرت.

«أكادُ أعيش هنا» أجابت

«اعتدتُ على القدوم في أغلب الأحيان لشرب كوب من القهوة اللذيذة. إنها المرة الأولى التي آتي منذ عودتي»

«ستجلب لك طبقًا، ستشاركني غدائي. هناك ما يكفي لاثنين أو ثلاثة دائمًا»

تعمدَت إدنا أن تبدو غير مباليةً ومتحفظة مثلما فعل هو عندما قابلته في المرة السابقة. لقد توصلت إلى قرارٍ عِبر تفكير طويل ومُضنٍ، مرتبطٌ بشكلٍ طبيعي بحالةٍ من حالات يأسها. لكن عزيمتها لانت عندما رأتهُ بعد أن دفعتهُ خطة القدر، مرة أخرى في دربها.

«لماذا تتجنبني يا روبرت؟» سألت إدنا وهي تُغلق الكتاب الذي تركتهُ مفتوحًا على الطاولة.

«لماذا تأخذين الأمور على محمل شخصي دائمًا يا سيدة بونتيلييه؟ لماذا ترغميني على اللجوء لحجج غبية؟» صرخ روبرت بعنف مفاجئ، «أعتقد أنه لا فائدة من إخباركِ أنني كنتُ مشغولاً للغاية، أو أنني كنتُ مريضًا، أو أنني

ذهبتُ لرؤيتكِ ولم أجدك في المنزل. أرجوكِ، اعفيني من التذرع بأيٍّ من هذه الحجج»

«إنكَ تجسيد للأنانية، أنتَ توفر على نفسك شيئًا -أجهله- ولكن ثمة دافعًا أنانيًا يحركك. وفي تجنيب نفسك بهذا الشكل، لن تُفكر مطلقًا بما أفكرُ فيهِ ولو للحظة، ولن تعرف كيف أشعرُ بإهمالك ولا مبالاتك. أعتقد أنك ستُسمي كلامي هذا ‹سلوكًا لا يحمل وجهًا أنثويًا› لكنني اعتدتُ التعبير عن مشاعري. لا يهم بالنسبة لي، وسمْ ذلك بما تشاء»

«كلا. أظنكِ لئيمةً كما قلتِ ذلك اليوم. لربما ليس عن قصد. ولكن يبدو أنكِ تُرغميني على الاعتراف بشيء دون جدوى. كما لو أنكِ تريدين مني أن أكشف عن الجرح لأجل متعة النظر إليه فحسب، دون النيّة أو امتلاك القدرة على شفائه!»

«إني أفسدُ عليك غداءك ياروبرت. لا تكترث لما أقوله. لم تأكل لقمةً واحدة»

«لقد أتيتُ من أجلِ فنجان قهوة فقط» قال روبرت، بعد أن تغيرتْ ملامح وجهه الرقيقة بسبب الانفعال.

«أليس هذا المكان مُبهجًا؟ إني سعيدةٌ أن أحدًا لم يكتشفهُ قط. حديقةٌ هادئةٌ ورائعة للغاية. هل تلاحظ أنه بالكاد تسمعُ صوتًا هنا؟ كما أنها خارج الطريق. يمكنك الوصول إليها بالعربة خلال وقتٍ قياسي. على أية حال، أنا لا أمانع المشي. لطالما أشعرُ بالأسف على النساء اللواتي لا يحببن المشي. إنهنّ يُفوّتن عليهن الكثير من لمحات الحياة الصغيرة النادرة، ونحن النساء، لا نعرف سوى النزر اليسير من هذه الحياة برّمتها» قالت إدنا وتابعت حديثها:

«هذهِ القهوة دائمًا ساخنة، لا أعرف كيف تتدبر تلك المرأة أمر إبقائها ساخنة هنا في الهواء الطلق. تبردُ قهوة سيلستين بمجرد جلبها من المطبخ لغرفة الطعام. ثلاثة حباتٍ من السكر! كيف تشربُها بهذه الحلاوة؟ تناول بعض الرشاد مع قطع السكر، إنهُ منعش وحار. ثم هناك ميزةً أن تكون قادرًا على التدخين بصحبة قهوتك هنا. ألن تدخن؟»

«بعد قليل» أجاب روبرت ووضع سيجارًا على الطاولة

«من أعطاكَ إياه؟» سألت إدنا ضاحكةً.

«لقد إشتريته. أعتقد أنني تسرّعت. فقد اشتريتُ علبةً كاملة» رد روبرت

وعزِمت على ألّا تتحدث معهُ بشكلٍ شخصيٍ ثانيةً، وتزعجه.

عقد القط صداقة مع روبرت، وتسلق إلى حِجرِهِ وهو يدخن السيجار. فأخذ يربتُ على فرائه الحريري وتحدثَ عنهُ قليلًا. ثم ألقى نظرة إلى كتاب إدنا، الذي كان قد قرأهُ من قبل. حكى لها النهاية، ليوفر عليها عناء قراءتهِ للنهاية. ثم رافقها مرة أخرى إلى منزلها، فوصلا إلى عش الحَمام بعد مغيب الشمس. لم تطلب إدنا منه البقاء. وكان روبرت ممتنٌ لذلك، لإن ذلك منحهُ فرصة البقاء دون توجس من ارتكاب حماقة من خلال مبررٍ لم ينوِ وضعهُ بالحسبان. ساعدها على إشعال القنديل ثم ذهبت إلى غرفتها لخلع قبعتها ولتغسل وجهها ويديها.

عندما عادت، لم يكن روبرت يتفحص الصور والمجلات كما فعل بالمرة السابقة. وإنما جلس بعيدًا في الظلام، مائلاً رأسهُ إلى الوراء على الكرسي كما لو كان في حُلم يقظة. بقيت إدنا الى جانب الطاولة ترتب الكتب هناك دقيقةً. ثم سارت عبر الغرفة إلى حيث جلس روبرت. انحنت على ذراع كرسيهِ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونادت باسمه.

«روبرت، هل أنتَ نائم؟»

«كلا»

فانحنت بجسدها عليه وقبّلته، قبلةً عذبة، بالغة الرّقة. اخترقتْ لسعتها المُبهجة للحواس، وانشرت في جسده كلّه. ثم ابتعدتْ عنه. فلحق بها، أخذها بين ذراعيه، واحتضنها بكل قوّته. فرفعت يدها إلى وجههِ وأطبقتْ وجنتيها على وجنتيه. كانا ينبضان حُبًا ورقة. بحث عن شفتيها مرة أخرى وراح يُقبّلها. ثم أجلسها على الأريكة بجانبهِ ممسكًا يدها بكلتا يديه وقال:

«صرتِ تعرفين الآن مم كنت أعاني منذ الصيف الماضي في جزيرة غراند. صرتِ تعرفين ما أبعدني عنكِ، وما أعادني مرة أخرى»

«ولِمَ المعاناة؟» سألت. وتورّد وجهها بحمرةٍ ناعمة.

«لماذا؟ لأنكِ امرأة متزوجة. لأنكِ زوجة ليونس بونتيلييه. لأنّي لم أستطع التوقف عن حبكِ وأنتِ زوجتهِ. لكن طالما سافرتُ وبقيتُ بعيدًا عنك، يمكنني منع نفسي من إخباركِ بذلك»

وضعتْ يدها الأخرى على كتفه، ثم على وجنتهِ، وأخذت تداعبها برفق. وقبّلها مرة أخرى. كان وجههُ دافئًا يتّقدُ حمرةً.

«هناكَ في المكسيك، كنتُ أفكر بكِ طوال الوقت، وأتحرق شوقًا لرؤيتكِ»

«لكن دون أن تكتُب لي» قاطعتهُ.

«هناك شيءٌ ما رسَخ في ذهني فكرةَ أنكِ تحبيني؛ وفقدتُ صوابي. لقد

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

نسيتُ كل شيء ماعدا حلمٌ جامخ بأن تصبحي زوجتي».

«زوجتك!»

«ستتخلى عن كل شيء، الدين، الإخلاص.. إن كنتِ راغبة بذلك..»

«إذن لابد أنك نسيت أنني زوجة ليونس بونتيلييه»

«أوه! كنتُ فاقدًا صوابي، أحلم بأشياء غريبة ومستحيلة، ثم أتذكر الرجال الذين طلّقوا زوجاتهم، سمعنا بأمورٍ كهذه»

«نعم، لقد سمعنا بأمور كهذه»

«وعدتُ مُحمّلًا بمقاصد مبهمة ومجنونة. وعندما وصلتُ إلى هنا...»

«وعندما وصلتَ إلى هنا لم تفكر بالبحث عني أبدًا» قالت بينما كانت ما تزال تداعبه.

«وأدركتُ كم كنتُ وضيعًا لأحلمَ بشيء كهذا، حتى لو كنتُ راغبًا بِهِ»

أخذتْ وجههُ بين يديها، وراحتْ تتفرّس في ملامحهِ كما لو أنها لن تُبعدَ عينيها عنه بعد الآن. ثم قبلتهُ على جبهته، عينيه، وجنتيه، وشفتيه.

«لقد كنتَ فتىً أحمق للغاية. تهدر وقتك في الحلم بأشياء مستحيلة وأنتَ تتحدث عن تطليقي من السيد بونتيلييه! لم أعد من ممتلكات السيد بونتيلييه لكي يتخلص مني أو لا. أني أهَبُ نفسي لمن أختاره. ولو قال لك: ‹يا روبرت، خذها وعيشا بسعادة. لقد أصبحتْ ملكك›، فسوف أضحكُ عليكما.»

«ما الذي ترومين إليه؟» سأل روبرت وقد شحب وجهه إلى حدٍ ما.

ثم سمعا طرقًا على الباب. ودخلت سيلستين العجوز لتقول إن خادمة السيدة راتينيول جاءت من الطريق الخلفي برسالة مفادها أن السيدة قد أخذ المخاضُ منها مأخذًا، وأنها تتوسل السيدة بونتيلييه للذهاب إليها على الفور.

«نعم، نعم» قالت إدنا وهي تنهض «لقد وعدتها. أخبريها أن تنتظرني. سأعود معها».

«دعيني أرافقكِ» طلب روبرت

«كلا. سأذهب مع الخادمة»

ومضت إلى غرفتها كي ترتدي قبعتها، وعندما عادت مرة أخرى، جلست على الأريكة بجانبهِ من جديد. لم يتحركْ قيد أنملة. فأحاطت عنقهُ بذراعيها وقالت:

«إلى اللقاء ياحبيبي روبرت. قل لي وداعًا»

وقبلّها روبرت بكل ما أوتي من شغف، ثم شدّها لصدرهِ.

«أحبُك...» همست إدنا قائلة، «أحبُكَ أنتَ.. أنتَ وحدكَ.. ولا أحد غيركَ. كُنتَ أنتَ من أيقظني من خلم تافه مدى الحياة في الصيف الماضي. وأوه! لقد جعلتَ مني فريسةً للغم بإهمالك. لقد عانيتُ، عانيتُ كثيرًا! أما الآن، فأنتَ هنا. سنُحب بعضنا دائمًا يا روبرت. سنكون كل شيء لبعضنا. لا شيء آخر في العالم ذو أهمية سوانا. يجدر بي الذهاب إلى صديقتي الآن، لكنك ستنتظرني؟ مهما تأخرتُ ستنتظر عودتي روبرت؟»

«لا تذهبي. لا تذهبي يا إدنا. ابقي معي» ترجاها روبرت. «لِماذا ستذهبين؟ ابقي معي، ابقي»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«سأعود في أقرب وقت ممكن. وسوف أجدك هنا»

ودفنت وجهها في عنقهِ، وودعتهُ مرة أخرى. فنبرة صوتها المغوية، بالإضافة إلى حبهِ الجّم لها، أسَرا حواسه، وجرّداهُ من كل دافعٍ، سوى رغبة عارمة في احتضانها وإبقائها بين يديه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخلت إدنا إلى صيدلية السيد راتينيول، حيث كان يُحضِّر الدواء بنفسهِ، ويمزجهُ بحذرٍ شديد، ويَسكب سائلًا أحمر اللون في دورق صغير. كان ممتناً لحضور إدنا ووجودها، إذ سيكون أمرًا يبعث على السكينة في نفس زوجته، بعد أن تعذَّر على أخت السيدة راتينيول-رفيقتها دائمًا في مثل هذه الأوقات العصيبة- القدوم من المزرعة. لقد كانت أديل في حالةٍ يُرثى لها -ولا يمكن مواساتها فيها- حتى وعدت السيدة بونتيلييه بالمجيء إليها بكُلّ طيب.

كانت السيدة راتينيول في غرفة استقبال الضيوف، حيث بقيت متخبطةً في ألمها بصبرٍ نافد، وهي تجلس على الأريكة، مرتديةً منامة بيضاء واسعة، في يدها منديل تشدُّ عليهِ بقبضةٍ متوترة. كانت علامات الإرهاق والشحوب بادية على وجهها، لعينيها الزرقاوتين الحلوتين نظرةٌ منهَكة وغريبة. وكان شعرها الجميل مسحوبًا خلف رأسها، مضفوزًا بجديلة طويلة ومُلقىً على وسادة الأريكة، ملفوفًا مثل ثعبان ذهبي. بقربها الممرضة، امرأةٌ سمراء ذات مظهرٍ مريح، ترتدي مئزرًا وقبعة بيضاء اللون. وكانت تحضها على العودة إلى غرفة نومها.

«لا فائدةَ تُرجى، لا فائدة!» قالت لإدنا في حال رؤيتها، «يجب أن نتخلص من ماندليت. لقد هرِمَ وأصبح شخصًا مهملًا. قال أنه سيكون موجودًا في تمام السابعة والنصف والآن لا بُدَّ أنها دقّت الثامنة. انظري ما الوقت الآن يا جوزفين»

كانت المرأة ذات طبيعةٍ بشوشة، تأخذ أي ظرفٍ على محمل اللين واللطف خاصةً وهي تعلم بحالة السيدة راتينيول. وحثت السيدة على التحلي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالشجاعة والصبر. ولكنَّ السيدة نشبت أسنانها في شفتها السفلى من الألم. رأث إدنا العرق يتفصد ويتجمع على شكلِ قطرات فوق جبهتها ناصعة البياض. بعد لحظات، تنهّدت السيدة راتينيول تنهيدةً عميقة، ومسحت وجهها بالمنديل المُكوّم كالكرة. بدث مهدودة القوى، فأُعطتها الممرضة منديلًا جديد رشث عليه الكولونيا.

«هذا الألم لا يطاق...» صاحت «ينبغي أن يُقتَل ماندليت! أين ألفونس؟ هل يُعقل أن يتركني، وأن يتخلى عني الجميع بهذا الشكل؟»

«يتركك الجميعُ؟! عجبًا!» هتفث الممرضة. ألم تكن هي بجانبها؟ ألم تغادر السيدة بونتيلييه منزلها بعد أن تخلت عن أمسيةٍ لطيفة -من دون شك- لتكرس وقتها لها؟ ألم يدخل السيد راتينيول -في تلك اللحظة بالذات- إلى الغرفة؟ ثم أن جوزفين كانت متأكدةً تمامًا أنها سمعت كوبيه السيد ماندليت(25). نعم!، هاهي عند الباب.

عندئذٍ، وافقت أديل على العودة إلى غرفتها. فجلسث على حافة أريكةٍ صغيرة منخفضة، مجاورةٍ لسريرها.

لم يعر الدكتور ماندليت أي اهتمام لتوبيخ السيدة راتينيول، إذ كان معتادًا عليها في مثل هذه الحالات، وكان موقنًا تمام اليقين من صلاحها إلى الحد الذي يجعله غير قادر على التشكيك في ذلك.

كان مسرورًا لرؤية إدنا، وأراد منها أن ترافقهُ إلى غرفة الجلوس لترتاح قليلًا. لكن السيدة راتينيول رفضث أن تتركها إدنا ولو للحظة واحدة. وفي خضم اللحظات الموجعة، أخذث تتجاذب أطراف الحديث قليلًا، مما أبعد الألم عن بالها، كما قالت.

بدأت إدنا تشعر بالقلق. استولت عليها رهبةٌ غامضة. إذ بدت تجربتها المشابهة البعيدة ضرْبٌ من الخيال، بالكاد تذكره ليس إلّا. بالكاد تذكرت نشوة الألم، ورائحة الكلوروفورم الشديدة، وحالات الإغماء التي تُخفف من وطأة الإحساس بالألم، ثم الاستيقاظ لتجد نفسها قد أنجبت كائنًا صغيرًا لهذهِ الحياة، يُضاف إلى العدد الهائل من النفوس التي تولد وتموت.

وأخذت تتمنى لو أنها لم تأتِ، إذ لم يكن حضورها ضروريًا. لعلّها تختلق ذريعةً للابتعاد، حتى أنها قد تختلق ذريعةً للمغادرة الآن. غير أنّ إدنا لم تذهب. ثم، شهدتْ إدنا مشهد الألم المُبرّح بصراعٍ داخلي عميق، وعاطفةٍ مشبُوبة، وبتمرُّد صريح على إرادة الطبيعة.

كانت ما تزال مشدوهةً ومعقودة اللسان بتأثرٍ بالغ، عندما انحنت لاحقًا على صديقتها لتقبلها وتودعها بلطف. فهمست أديل وهي تشدُّ على وجنتها بصوتٍ مُرهَق:

«لا تنسي الأطفال يا إدنا. فكري فيهم! ضعيهم في الحسبان!»

---

(25) مصطلح يطلق على نوع من أنواع السيارات التي تتكون من بابين بدلًا من أربعة

بقيَ الشرود مسيطرًا على إدنا عندما خرجت إلى الهواء الطلق. جاءوا بعربة الطبيب وركِنت أمام المدخل الرئيسي التابع للمبنى. لم ترغبْ إدنا بركوب العربة، وأخبرتْ الدكتور ماندليت أنها سوف تذهب مشيًا. لم تكن خائفة، وبإمكانها الذهاب بمفردها. فأعطى الدكتور ماندليت تعليماتٍ للسائق بأن ينطلق بالعربة وينتظره أمام منزل السيدة بونتيلييه. وبدأ معها رحلة العودةِ سيرًا إلى المنزل.

وفي البعيد، فوق شارع ضيق وفيما بين منازلَ عالية، كانت السماء مُرصعة بالنجوم. وكان الجو لطيفًا يداعب الوجوه، لكنه يُعطي شعورًا بالبرودة مع أنفاس الربيع والليل. سار كلاهما ببطء، الدكتور بخطىً ثقيلة منظمة، وهو يشبك يديه خلف ظهره. فيما بدث إدنا شاردة الذهن مثلما سارت ذات ليلةٍ في جزيرة غراند، كما لو أن أفكارها قد سبقتها وكانت تسعى جاهدةً للحاق بها.

«ما كان يجب أن تكوني موجودة هناك يا سيدة بونتيلييه. لم يكن ذلك المكان مناسباً لكِ. في مثل هذه الأوقات تكون أديل منقادة لأهوائها. ثمة الكثير من النساء ممن يستطعنَ البقاء معها، نساء لا يتأثرن سريعًا. شعرت أنّ الأمر كان قاسيًا عليكِ، قاسٍ للغاية. لم يكن عليك الذهاب»

قال الدكتور ماندليت.

«أوه! حسنًا...» أجابت إدنا، بقلة اكتراث. «على أيةِ حال، لا أعرف ما إذا كان يهم. يجب على المرء أن يُفكر بالأطفال أحيانًا. وخبزُ البر عاجله»

«متى سيعود ليونس؟»

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

«قريبًا جدًا، في يومٍ ما خلال مارس»

«وهل ستسافرين معهُ لخارج البلاد؟»

«لربما لا. لستُ ذاهبة. ولن أجبَر على القيام بأمور. لستُ راغبةً بالسفر إلى الخارج. جُل ما أريدهُ هو أن أكون لوحدي. ما من أحدٍ يملك الحق -باستثناء الطفلين، ربما. رغم ذلك، يبدو الأمر لي... أو أنه بدا...»

وتوقفتْ عن الكلام فجأة، إذ شعرت أنهُ كان يكشف عن تشتتٍ في أفكارها.

«المشكلة هي...» تحدث الدكتور مانديليت متنهدًا بعد أن أدرك ما تعنيهِ حدسًا، «المشكلة هي، أن الشباب يستسلمون للأوهام. ويبدو ذلك أنه تدبيرٌ من تدابير الطبيعة، فخًا لإبقاء الأمهات في سباق الزواج والأمومة. والطبيعة لا تأخذ في الحسبان العواقب المعنوية، والظروف التعسفية التي نختلقها، والتي نشعر أننا ملزمون بالعيش فيها بأي ثمن»

«بلى، تبدو السنوات التي انقضت كأحلام - هذا إذا كان بإمكان المرء أن يواصل النوم والحلم- ولكن أن يستيقظ ويكتشفَ أمورًا! أوووه! حسنًا! قد يكون من الأفضل لهُ أن يستيقظَ في النهاية، حتى لو تعذّب، بدلاً من أن يظل مخدوعًا بالأوهام طيلة حياته» أجابت

«يبدو لي يا صغيرتي العزيزة...» علق الدكتور مانديليت ممسكًا يد إدنا قبل أن يودعها، «يبدو لي أنكِ في مأزق. لن أطلب منكِ أن تمنحيني ثقتكِ. سأكتفي بالقول: إذا شعرتِ يومًا بأنكِ مستعدةٌ لمنحي الثقة، فلعلّي أستطيع مساعدتكِ. مُتأكدٌ أنني سوف أتفهم. ولأصدقكِ القول، لن يتفهمكِ كثيرون، ليس الكثير، يا عزيزتي»

«بطريقةٍ ما، لا أشعر بالرغبة في الحديث عمّا يعذبني. ولا تعتقد أني أنكر لطفك أو أني لا أقدر تفهُمك. تستحوذُ عليّ فتراتٌ من الكآبة والمعاناة. لكني لا أريد شيئًا سوى الحياة على طريقتي الخاصة. وهذا يتطلّب الكثير بالطبع عندما تكون مضطرًا لأن تدوس على حياة وقلوب الآخرين والأحكام المُسبقة. لكن لا يهُم. ومع ذلك، لا يجدر بي أن أدوس على حياة الصغار. أوه! أني لا أعرف ما أقول يا دكتور. عُمتَ مساءً. لا تلُمني في أي شيءٍ قُلته.»

«بلى، سوف ألومكِ إن لم تأتِ لرؤيتي قريبًا. سنتحدث عن أشياء لم تتمكني من التحدث بها من قبل، وسيفيدنا هذا. لا أريدكِ أن تُلقي باللوم على نفسكِ مهما حدث. طابت ليلتكِ يا طفلتي.»

ودلِفت من بوابة الحديقة، ولكن عوضًا عن الدخول إلى عِش الحمام، جلست عند عتبة المدخل. كان الليلُ هادئًا ومُطمئنًا. كل المشاعر التي كانت تنهش روحها في الساعات القليلة الماضية تبددت كما يتبدد الحزن، كأنها ثوب ضيّق، لم يكن عليها إلا أن ترتخي لكي تتخلص منه. لقد عادتْ إلى تلك اللحظات قبل أن تطلبها أديل، واشتعلتْ حواسها من جديد عند التفكير في كلمات روبرت، في قوة ذراعيه، والشعور بشفتيهِ على شفتيها. فلم يكن في وسعها أن تتخيل في تلك اللحظة نعمة على الأرض أعظم من امتلاك محبوب. لقد اعترف لها بحُبهِ اعترافًا ضمنيًا. وحين تخيلت أنه موجود بين يديها وينتظرها، بدأ شعورٌ بالخدر يسيطرُ عليها، يرافقهُ إحساسٌ بنشوةِ الأمل. كان الوقت متأخرًا للغاية، ولعلهُ يكون نائمًا. وكانت ستوقظه بقُبلة. وقد أمِلت أن يكون نائمًا، كي تُثيرهُ بمداعباتها.

ومع ذلك، صدحَ صوت أديل في ذاكرتها وهي تهمس لها، «فكري بالأطفال. فكري بهم»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت تعني ما تقولهُ، أن تُفكّر إدنا بهما. ذلك العزم على التفكير بطفليها كان قد اجتاح روحها كالجُرح المُسبب للموت. ولكن ليس هذهِ الليلة. غدًا، سيكون الوقت المناسب للتفكير في كل شيء.

لم يكن روبرت ينتظرها في غرفة الجلوس الصغيرة. لم يكن في أيّ مكان. كان المنزل خاليًا. لكنه كان قد خربش على ورقة موضوعة أسفل المصباح:

«أحبكِ. وداعًا لأنّي أحبكِ»

شعرتْ إدنا أنها سيُغمى عليها عندما قرأت الكلمات. فمضتْ وجلست على الأريكة. ثم تمددت هناك دون أن تنبس ببنت شفة. لم تنم. ولم تأوِ إلى الفراش. أخذ لهب القنديل يكبو حتى انطفأ. وعندما فتحت سيلستين باب المطبخ صباحًا وجاءت لإضرام النار في الموقد، كانت إدنا ما تزال مستيقظةً.

كان ڤيكتور يُصلِّح ركنَ أحد المداخل بمطرقةٍ ومسامير وبقايا الخشب. وكانت ماريكيتا تجلسُ بجانبه، تدلّي ساقيها، تراقبهُ وهو يعمل، وتناولهُ المسامير من صندوق الأدوات. كانت الشمس تصَبُ أشعتها فوق رأسيهما، حتى أن الفتاة حمث رأسها بمئزرها المبطن ببطانة مربعة الشكل. كانا يتحدثان لأكثرٍ من ساعة. لم تسأم أبدًا من سماع فيكتور وهو يصف العشاء عند السيدة بونتيلييه. وقد بالغ في وصف كل تفصيل، جاعلًا إياها تبدو مثل وليمة لوكولوس حقيقيةً، مليئةً بالترف(26). إذ وضعت الزهور في أحواض، كما قال. وكان يعبُ الشمبانيا من أقداح مُذهبةٍ ضخمة. وإنّ آلهة الحب والجمال التي وُلِدتْ من البحر، لم يكن بوسعها أن تظهر بشكلٍ أحلى من السيدة بونتيلييه، المُرصعة بالجمال على رأس المائدة، في حين أن النساء الأخريات كنّ مثل حورياتٍ فتيات، يُضفينَ سحرًا على الأمسية، لا مثيل له.

وضعت ماريكيتا في ذهنها، أنّ فيكتور مغرم بالسيدة بونتيلييه، فقد أجابها بطريقةٍ مراوغة، ملفقة، مما جعلها تؤكد ظنونها. تجهّمَ وجهها، وبكت قليلًا، مهددةً إياهُ بالمغادرة وتركه لسيداتهِ الجميلات. فهناك الكثير من الرجال المجانين بها في شينير، وبما أنّ الوقوع في الحب مع أُناس متزوجين أصبح أمرًا دارجًا، فبوسعها الهرَب في أي وقت تحب إلى نيو أورليانز مع زوج سيلينا!

كان زوج سيلينا خسيسًا وجبانًا وأحمق. ولكي يثبتَ فيكتور ذلك لها، عزم على غرس رأسهِ في المُزَيّات في المرة القادمة التي يواجهه فيها. وهذا ما

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

واسى ماريكيتا كثيرًا. فجففت عينيها من الدموع، وأخذت تتلهف لوقوع ذلك المشهد بكل سعادة.

وفيما كانا ما يزالان يتحدثان عن العشاء وإغراءات حياة المدينة، تسللت السيدة بونتيلييه حول ركن المنزل. بقي فيكتور وماريكيتا صامتين في حالةِ ذهول أمام ما اعتبراهُ شبحًا. غير أنها كانت هي -السِيدة بونتيلييه- بشحمها ولحمها. وتبدو منهكةً، شبه قذرة، من السفر.

«أتيتُ من جهة رصيف الميناء وسمعت أصوات المطرقة. علمتُ أنه أنتَ من يقوم بإصلاح المدخل، إنها خطوةٌ جيدة. لطالما تعثرتُ بتلك الألواح المفككة الصيف الماضي. كم يبدو المكان موحِشًا ومهجورًا!»

استغرق فيكتور بعض الوقت ليُدرك أنها جاءت في زورق بودليت، وأنها جاءت لوحدها، ولم يكن ثمة غرضٌ لذلك سوى الراحة.

«لم يتم إصلاح أي شيء حتى الآن، كما ترين. سأعطيكِ غرفتي. إنها المكان الوحيد المتوفر» رد فيكتور

«أي رُكنٍ سيفي بالغرض»

«قد لا يُعجبكِ طبخ فيلوميل، مع ذلك، سوف أسعى لإحضار أمها بما أنكِ هنا. أتظنين أنها ستأتي؟» قال فيكتور، هو يلتفتُ إلى ماريكيتا.

اعتقدتْ ماريكيتا أن والدة فيلوميل قد تأتي لبضعة أيام، إن كان المال كافيًا.

بعد ظهور السيدة بونتيلييه، اشتبهت الفتاة على الفور في موعد غرامي. لكن دهشة فيكتور كانت حقيقية جدًا، واللامبالاة التي أبدتها السيدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بونتيلييه واضحة جدًا، فلم تدُم تلك الفكرة البغيضة طويلًا في ذهنها. وراحت تتأملُ باهتمامٍ كبير، هذه المرأة التي قدّمث أفخم وجبات العشاء في أمريكا، والتي يتهافت جميع رجال نيو أورليانز، تحت قدميها.

«متى سوف تتناولون الغداء؟ إنّي أتضور جوعًا. لكن، لا تكلف نفسك بجلب أشياء إضافية»

«سيكون الغداء جاهزًا في وقتٍ قصير جدًا» أجابها فيكتور وهو يحزم أدواتهُ بهمّة. «بامكانكِ الذهاب لغرفتي لتغتسلي وتنالي قسطًا من الراحة. سوف تُريكِ ماريكيتا الطريق»

«شكرا لك. ولكن، هل تعرف؟ أفكر بالتوجه إلى الشاطئ والاستحمام فيهِ جيدًا وحتى السباحة قبل الغداء»

«المياه باردةٌ جدًا! لا تُفكري في ذلك!» هتف كلاهما.

«حسنًا، لعلي أذهب لمجرد الجلوس ووضع قدميّ في المياه. عجبًا!، تبدو الشمس شديدةً بما يكفي لتبعث الحرارة في أعماق المحيط. هل يمكنك أن تُحضِر لي بعض المناشف؟ حريٌ بي الذهاب فورًا، حتى أعود سريعًا. سيكون الجو بغاية البرودة إذا انتظرتُ حتى ظهر اليوم» .

فهرعث ماريكيتا الى غرفة ڤيكتور، ثم عادت مع بعض المناشف وأعطتها لإدنا.

«آمل أن يكون لديك سمك على الغداء، لكن لا تقُم بأي شيء آخر إن لم يكن متوفرًا»، قالت إدنا، عندما بدأت تبتعد.

«أسرعي وابحثي عن والدة فيلوميل!» أمرَ فيكتور الفتاة. «سأذهب إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطبخ وأرى ما يمكنني فعله. يا إلهي! ليس للنساء أي مراعاة للموقف، لَو أنها أرسلت لي رسالة».

واصلت إدنا طريقها سيرًا صوبَ الشاطئ بطريقةٍ لا إرادية. لم تلحظ شيئًا مميزًا سوى أن الشمس حارة. لم تتطرق لحبلِ أفكارها من جديد. لقد اكتفت من التفكير بزمتهِ -رغم أنه كان أمرًا ضروريًا- بعد رحيل روبرت حين ظلت مستيقظة حتى الصباح على الأريكة.

وراحت تحادث نفسها مرارًا وتكرارًا قائلةً:

«اليوم يوجد أروبين؛ غداً سيأتي شخص آخر. ولن يُشكل الأمر أي فرق بالنسبة لي، لم يعد ليونس بونتيلييه يعنيني، ماعدا راؤول وإتيان»

وفي تلك اللحظة، أدركت بوضوح ما كانت تعنيهِ منذ زمن بعيد حين قالت لأديل راتينيول أنها مستعدةٌ للتخلي عن كل ما هو غير جوهري، ولكنها لن تضحي بنفسها يومًا، من أجل أطفالها.

كان اليأس قد تمكّن منها هناك في جنح ذلك المساء الحزين، ولم ينقشع أبدًا. لم يكن ثمة أيّ شيءٍ في العالم ترغب فيهِ. ما من بشريٍ واحد رغبت في وجودهِ معها باستثناء روبرت. حتى أنها أدركت أنه سيأتي اليوم الذي سيتلاشى التفكير فيهِ، من وجودها، تاركًا إياها وشأنها. ثم تجسد طفليها أمام عينيها على هيئة خصومٍ تغلبوا عليها، وسعَوا جاهدين لاستدراجها إلى عبودية الروح، لبقية حياتها. لكنها عرفت طريقة للإفلات منهما. ولم تكن تفكر في هذه الأمور عندما بدأت تسير في الشاطئ.

امتدت مياه الخليج أمامها، وامِضةً بأشعة الشمس الشديدة. حيث هدير البحر الساحر لا يتوقف. يزمجر، يهدن، ويدعو النفس لأن تهيم في لُجة العزلة.

على طول الشاطئ الرملي الأبيض -ذهابًا وإيابًا- لم يكن هناك كائن حي في الأفق. ما عدا طائر مكسور الجناح يحلق في السماء مترنحًا، يحوم ويحوم في حلقة دائرية صوب المياه عاجزًا.

وجدت إدنا بدلة سباحتها القديمة ما تزال معلقة على وتدها المعتاد وقد بهت لونها. كانت ترتديها تاركة ثيابها في الحمام. ولكن عندما صارت هناك بجانب البحر، وحدها تمامًا، ألقت عنها ثوبها الثقيل المزعج. ولأول مرة في حياتها، وقفت عاريةً في الهواء الطلق، تحت نعمة ضياء الشمس، والنسيم الذي ينهمر عليها، والأمواج التي تُغريها.

يا لهُ من موقفٍ غريبٍ يبعثُ على الرهبة: أن تقف عارية تحت السماء! يا للذةِ ذلك! شعرت كأنها مخلوق حديث الولادة، يفتح عينيه على عالم لم يألفهُ قط. التفت المويجات المُزبدة حول قدميها ناصعة البياض، وأخذت تتلوّى كأنها ثعابين حول كاحليها. ثم انحسرت. كانت المياه باردة، لكنها سارت فيها. كانت المياه عميقة، لكنها ارتفعت بجسدها الأبيض، مدت يدها، وقفزت بخبطةٍ واسعةٍ سريعة. كان للبحر أثرٌ مثيرٌ للحواس، يضمُ الجسد في عناقهِ الهادئ الحميم.

واستمرت إدنا على هذا المنوال. تذكرت الليلة التي سبحت فيها بعيدًا، استعادت ذكرى الرهبة التي استولت عليها خوفًا من عدم قدرتها على العودةِ إلى الساحل. أما في تلك اللحظة، فهي لم تنظر إلى الوراء، بل واصلت السباحة، وهي تُفكّر في مرج بلوغراس الذي اجتازته عندما كانت طفلة صغيرة، معتقدةً أنّ ليس لهُ بداية ولا نهاية.

ثم بدأ التعب يتسلل إلى ذراعيها وساقيها.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

فكرث في ليونس والطفلين. لقد كانوا جزءًا من حياتها. لكن ما كان ينبغي عليهم التصديق بأنهم يمتلكونها جسدًا وروحًا. كم ستضحك الآنسة رايس لو علمث، ولعلها ستسخر!

«وتدعين نفسكِ بفنانة! ياله من ادّعاء يا سيدة! على الفنان أن يمتلك قلبًا جسورًا، يجرؤ ويتحدى!»

وأخذ الإرهاق يغمرها ويعتصرُ جسدها.

«وداعًا. لأنني أحبكِ وداعًا»

لم يعرف روبرت شيئًا، حتى إنه لم يفهمها. ولن يفهمها بالمرّة. قد يفهمها الدكتور ماندليت لو أنها ذهبث لزيارتهِ. لكن فات الأوان. إذ صار الساحل على مسافة بعيدة وراءها، وخارت قواها.

ألقت نظرةً على المسافةِ. احتدمت مشاعر الذعر القديم لبرهة. ثم اختفث مجددًا. تناهى إلى إدنا صوت والدها وأختها مارغريت. سمعت نُباح كلبٍ هرم مُقيد إلى شجرة الجُمَّيز. صوت مِنخاس فرس ضابط سلاح الفرسان. يُجلجِل وهو يعبر المدخل. وصوت طنين النحل. ثُم شمّث أريج أزهار القرنفل الشبيهة بالمسك، وهي تملأ الجو.

النهاية

---

(26)لوشيوس لوكولوس. جنرال روماني مُحنك عمل قنصلًا عام 74 ق.م، وخاض حربًا ضد الملك ميتريداتس وهزمه في أرمينيا، ولم يفُت من جيشه سوى خمسة ضُباط وجرح مائة جندي فقط من بين جيش قوامهُ 18 ألف

جندي. اشتهر لوكولوس بالولائم الفخمة مع كبار الشعراء والفانين والفلاسفة في زمانه. وكانت باهظة بما يكفي لضرب المثل بها كمرادف للترف في المعجم الإنكليزي. من أشهر أقوالهِ: هناك معدة تأكل معدة أخرى، والأرض أكبر معدة في التاريخ. ولعل هذه المقولة هي ما أدّت إلى شهرته بأنه صاحب أكبر معدة في التاريخ.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ